نافذة الفرح

الدكتور طارق البكري

دار المكتبي

بسم الله الرحمن الرحيم

نَافِذَةُ الفَرَحِ

الطبعة الأولى

2016 - 1437

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزءٍ منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف 00963112248433 فاكس 00963112248432 ص.ب 31426
الشارقة هاتف 0097165512262 فاكس 0097165512264 ص.ب 3309
Email:almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

الإهداء

إِلَى أَبْنَائي الأَحِبَّةِ
مُنير ـ مُنى ـ مُحمَّد
أَنْتُمُ الحُبُّ الحَقِيقِيُّ

طارِق
الكُوَيت

ما أَجْمَلَ أنْ تَكُونِي رَفِيقَتِي!

أَتَذْكُرينَ أَوَّلَ مَرَّةٍ رَأَيتُكِ فِيها؟ في الحَقِيقَةِ لَمْ تَكُنْ رُؤْيَةً كَما هُوَ مَعْهودٌ. أَتَذْكُرِينَ تِلْكَ الوَرَقَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتي جاءَتْني يَوْمَ كُنْتِ لا تَزالِينَ طالِبَةً في المَدْرَسَةِ؟

أَلْقَتْ حَقِيبَةَ يَدِها فَوْقَ كُرْسِيٍّ مُجاوِرٍ، وابْتَسَمَتْ.

وَرْدَةُ الحَياءِ لا تُفَارِقُ وَجْنَتَيْها، طَراوَةُ الحَدِيثِ تُلْقِي عَلَى الأُمْسِيَةِ إِحْساساً باسِمَاً يَزْدادُ بَهْجَةً كَزَهْرَةٍ تَهُبُّ عَلَيْها نَسَائِمُ الرَّبِيعِ. أَتَذْكُرِينَ؟

(تَضْحَكُ)

ما أَجْمَلَ هَذِهِ الضَّحِكاتِ التي تُشِيعُ في نَفْسِي كُلَّ هَذا الحُبورِ والفَرَحِ.

ثَلاثونَ عاماً!

كَمْ تَمُرُّ اللَّحَظاتُ السَّعِيدَةُ بِسُرْعَةٍ، حَتَّى أَكاد لا أَلْحَظُ مُرُورَها، فَأَلْتَقِطُ بَعْضاً مِنْ ذِكْرَياتِها الحَمِيمَةِ.

أَوْقاتٌ ذَهَبِيَّةٌ قَضَيناها تُشَكِّلُ عُمرَنا الحَقِيقِيَّ.

ـ أَنْتَ مُتَأَثِّرٌ بِأَيِّ أُغْنِيَةٍ؟ آه، تَذَكَّرْتُ!

ـ هذِهِ لَيْسَتْ أُغْنِيَةً. أَتَذْكُرِينَ أَيّامَ فُقْدانِ الوَظِيفَةِ؟

ـ آه، تِلْكَ أَيّامٌ مَضَتْ في طَرِيقِها. أَذْكُرُ الأَيّامَ الحُلْوَةَ فَقَط.

ـ لا أَقْصُدُها بِعَيْنِها. أَعْجَبَني صَبرُكِ يا امْرَأَةُ!

ـ حَياةً نَعِيشُها.

ـ ما زِلْتِ جَمِيلَةً.

ـ أَنْتَ تَضْحَكُ عَلَيَّ.

ـ ما زِلْتِ تَتَغَنَّجِينَ كَما الماضِي، كَأَيّامِ زَواجِنا الأُوْلَى، بَلْ قُولي كَأَيّامِ الخُطوبَةِ.

ـ ما أَجْمَلَها!

ـ بَلْ ما أَجْمَلَكِ مِن رَفِيقَةِ أَيّامِي!

تَلَفَّتَتْ كَأَنَّها تَخْشَى أَنْ يَسْمَعَ أَحَدٌ هَذا الكَلامَ.

ـ يَجْتاحُني إِعْصارُ حُبٍّ يُغَلِّفُ كياني، ويَعْصِرُ إِحْساسِي.

ـ يا لَكَ مِنْ مُنَافِقٍ! حاذِرْ مِنِّي، أَنا مِثْلُ تْسُونامِي.

ـ أَنْتِ تُسامِي مَشاعِرِي، ولا (تسونمينها).

(تَضْحَكُ)

اشْتَقْتُ إِلَيكِ. أَنا لا أُحِبُّ السَّفرَ، أَنْتِ تَعْلَمِينَ هَذا، ولَكِنَّ قَدَرِيَ السَّفر. اشْتَقْتُ إِلَيكِ.

ـ أَيّاماً أَوْجَبَها العَمَلُ.

ـ الاشْتِياقُ لَيْسَ لَهُ حِسابٌ، لا أَيّامٌ ولا سَاعَاتٌ.

ـ الحَمْدُ للهِ أَنَّكَ تُسَافِرُ مِنْ حِينٍ لآخَرَ؛ حَتَّى تَعْرِفَ قَدْري.

ـ لا أَحْتَاجُ سَفَراً يَمْتَصُّ كيانِي.

ـ لَكِنَّكَ لا تُسْمِعُني مِثْلَ هَذا الكلامِ إِلَّا بَعْدَ عَوْدَتِكَ مِنَ السَّفَرِ.

ـ إِذَا لَمْ أَقُلْهُ فَهُوَ إِحْسَاسِي.

ـ أَنْتَ لاعِبٌ ماهِرٌ.

ـ أَنْتِ مَنْ تَقْدِرِينَ عَلَى صُنْعِ الكَلامِ، والإِحْساسِ.

ـ يَكْفِي، تَعِبْتُ، أُرِيدُ أَنْ أَنامَ.

ـ ثَلاثُونَ عَاماً أَحْفِرُ في أَيَّامِي تَماثِيلَ حُزْني وفَرَحِي، وقَبْلها ثَلاثُونَ لَمْ أُسَجِّلْها في غَيرِ كِتابِ هَواكِ. ثَلاثُونَ مُكَرَّرَةٌ، تُرَى؟! هَلْ تُسْعِفُني ثَلاثُونَ أُخْرَى؟

ـ بِمَاذَا تُفَكِّرُ؟ أَعْرِفُكَ! لا تَضَعُ إِبْهامَكَ في فَمِكَ إِلَّا وأَنْتَ في حَالَةِ تَأَمُّلٍ.

ـ لا شَيءَ، لا شَيءَ، وهَلْ أُفَكِّرُ بِغَيرِكِ؟!

ـ كَفَى يَا رَجُلُ. هَلْ أَنْتَ في الأَساسِ قَادِرٌ عَلَى التَّفْكِيرِ بِغَيري؟! مَنْ هِيَ تِلْكَ الَّتي سَتَنْظُرُ إِلَيكَ وأَنْتَ في هَذِهِ السِّنِّ؟! (تَضْحَكُ).

ـ ثَلاثُونَ عَاماً تَعَمْلَقَ الحُبُّ في نَفْسِي. أَتَنَفَّسُهُ صَباحَ مَساءَ. أَرَاكِ فاتِنَةً رَغْمَ السِّنينَ.

نَامِي، نامِي يا صَانِعَةَ الأَحْلامِ.

ـ هَلْ زَعلْتَ؟

ـ ما أَجْمَلَ أَنْ تَكُونِي رَفِيقَتي!

أَعْوامٌ مَضَتْ بِحُلْوِها ومُرِّها. صَبرْتِ عَلَى فَقْرِي، تَحَمَّلْتِ، حَتَّى حَقَّقْتُ بَعْضَ أُمْنِياتِكِ.

ـ آهٍ مِنْكَ، أَنْتَ تَعْتَرِفُ بِأَنَّكَ لَمْ تُحَقِّقْ كُلَّ طُمُوحاتِي.

ـ سْتَعِدُّ، مُسْتَعِدٌّ.

ـ لِذا أَنْتَ تَسْتَحِقُّني يا زَوْجِي العَزِيز، وبِكُلِّ تَوَاضُعٍ مِنِّي.

ـ كَمْ أَنْتِ قَوِيَّةٌ وصَبُورَةٌ! كُنتِ أَكْثَرَ صَلابَةً مِنِّي، ولا تَزالينَ.

أَنا أَعْتَرِفُ: لَولا صُمُودُكِ وصَبْرُكِ لما وصَلْتُ إِلى بَعْضِ ما وَصَلْتُ إِلَيهِ. أَلَمْ يَقُولُوا بِأَنَّ «وَراءَ كُلِّ رَجُلٍ عَظِيمٍ امْرَأَةٌ»؟!

ـ عُدْنا لِتَفْخَرَ بِنَفْسِكَ، أَنْتَ تَقْصدُ أَنَّكَ رَجُلٌ عَظِيمٌ.

ـ عُدْنا لِلْغُنْجِ والدَّلالِ.

ثَلاثُونَ عَاماً عَبَرَتْ أَمَامِي مِثْل غَزالٍ بَرِّيٍّ. رَأسِي الَّذي فَقَدَ ثُلُثَ شَعْرِهِ يُحاوِلُ الإِمْسَاكَ بِبِضْعِ خصْلاتٍ سُوْدٍ، ولَكِنَّ الثَّلْجَ يَكْتَسِحُ القِمَمَ.

ـ عُدْنا لِلْفَخْرِ.

ـ وأَنْتِ! أَلا تَتَوَقَّفِينَ عَنِ السُّخْرِيَةِ؟!

ـ ثَلاثونَ عَاماً مِثْل السِّحرِ... أُحبُّكَ.

ـ يَا لَها مِنْ كَلِمَةٍ سِحْرِيَّةٍ!

تَقْلبُ رَأْسَها إِلى النَّاحِيَةِ الأُخْرَى:

ـ تَوَقَّفْ يا رَجُلُ. كَأَنَّنا في سِنِّ المُراهَقَةِ.

ثَلاثونَ عَاماً، تَأَلَّمْنا، فَرِحْنا، مَرِضْنا، سَافَرْنا، كَافَحْنا. كَمْ مَرَرْنا بِأَيَّامٍ صَعْبةٍ، والأَوْلادُ يَكْسِرونَ الظَّهْرَ، الآنَ كَبُروا.

ـ يا لَها مِنْ مَرْحَلةٍ! لَقَدْ بَقيتِ أَنْتِ لي وَحْدِي.

ـ تُرَى؟! مَاذَا يَفْعَلُ الآنَ أَيْمَنُ في عَمَلِهِ؟ لَقَدِ انْشَغَلَ كَثِيراً في الأَيَّامِ الأَخِيرةِ؛ حَتَّى أَنَّهُ لمْ يَعُدْ يَتَّصِلْ.

ـ آهٍ مِنْكِ، دَعِي الأَولادَ قَليلاً. تَفرَّغي لي أَنا وَحْدِي.

ـ عادِلٌ يُريدُ أَنْ يَتزوَّجَ. مَنْ يا تُرَى تَصْلُحُ بِأنْ تكونَ زَوجةً لَهُ؟

ـ آهٍ مِنكِ، لنْ تَتغيَّري.

ـ ما أَجْمَلَ أَنْ تكونَ رَفِيقِي!

ـ بلْ ما أَجْمَلَ أنْ تكُونِي أَنتِ رَفِيقَتي! أتَذْكُرينَ؟

ـ عُدْنا؟! قُلِ الحَقيقَةَ: أَلا تُعْجِبُكَ مُطْرِباتُ اليَوم أَكْثرَ مِنِّي؟

ـ بَعْضُهنَّ جَميلاتٌ، لَكنَّكِ الأَجْمَلُ عِنْدِي.

ـ ها ها ها. صَدَّقْتُكَ. أَعْرِفُ بِأَنَّكَ تَحْتَفِظُ بِصورةٍ لِهيفاءَ.

ـ صورَةٌ؟ أَيُّ صورَةٍ؟ آه، تَقْصدِينَ الصُّورَةَ التي وَجَدتُها هَديَّةً في إِحْدَى المَجلّاتِ. احتَفَظْتُ بها لأَنَّها مُوقَّعَةٌ بِيَدِها.

ـ إِذاً؟

ـ لا شَيءَ. أَنا أُحِبُّكِ أَنْتِ.

ـ أَبَعْدَ كلِّ هذهِ السِّنينَ؟

ـ تَزْدادينَ بَهاءً في عُيوني.

ـ يا كَذّاب... يا بَكّاش.

ـ بَكّاش، بَطّاش، لا يوجَدُ مُشكِلَةٌ. سَأُكرِّرُ دائِماً:

(ما أَجْمَلَ أنْ تكُونِي رَفِيقَتي)! وقولي عَنِّي ما تَشائِينَ.

لَيْسَ هوَ!

نَظَرَ إِلَيها نَظْرةَ المُرْتابِ، وقَدِ اهْتَزَّتْ أَطرافُهُ مِنْ كَلِمةٍ سَقَطتْ مِنها بِشكلٍ عَفويٍّ.

كانَ يُحاوِلُ أَنْ يُكذِّبَ نَفْسَهُ، ويَمْحِي ما سَمِعَهُ، لَكِنَّ الكَلِمَةَ كانَتْ شَديدَةَ الوُضوحِ، ولا تَحتاجُ إِلى تَأْويلٍ أو شَرحٍ وتَبريرٍ.

تَأَمَّلَ عَيْنَيْهَا العَسَلِيَّتَينِ، والوَجنَتَينِ المَصْقولَتَينِ، ثمَّ قالَ:

ـ أَلَمْ يَكنْ مِنَ الأَوْلَى لي ولَكِ أَنْ تَتَأَكَّدي قَبلَ أَنْ تَأتي، وقَبلَ أَن تُغيِّري ـ في ثَورَتِكِ ـ المَكانَ والزَّمانَ، وتُعِيدي تَرتِيبَ الأَشياءِ، ثمَّ تكتَشِفِي في النِّهايَةِ أَنَّكِ أَخْطَأتِ التَّصوِيبَ؟

قَالَها بِقَلْبٍ جَريحٍ تكادُ الدِّماءُ تَسْقُطُ حَتَّى آخِرِ قَطْرَةٍ، ثمَّ قَالَ دُونَ أَنْ يَتَرَقَّبَ مِنْها جَواباً:

ـ ها هِيَ القَطَراتُ تَتَساقَطُ، أَلَمْ تَقولي لي أَنَّكِ سَتُحافِظينَ عَليَّ حَتَّى آخِرِ قَطرَةٍ؟

ها أَنا أَتَساقَطُ أَمَامَكِ قَطرةً قَطرةً، والأَرضُ تَمْتَصُّ كلَّ قَطَراتي دونَ أَنْ تَشبَعَ.

لَقَدْ تَغيَّرَ كلُّ شَيءٍ.

تَنبَّهتْ إِلى الأَمرِ متأَخِّرةً بَعدَ أنِ انزَلَقَتْ مِنها الكَلِماتُ عَفوَ الخاطِرِ، ودُونَ أَن تَعِيَ أَنَّ جُمْلَتَها وَقَعَتْ في حَبَّةِ القَلبِ.

أَلقَتْ بَصَرَها نَحوَ النّافِذَةِ تُحاوِلُ أَنْ تُبعِدَ عَيْنَيْهَا، وتُخفِي مِنْ وَراءِ حَركَتِها العَفويَّةِ ما لم تكنْ تَتَوَقَّعُهُ:

ـ أَبَداً. إِنَّكَ هو.لم يَتَغيَّرْ شَيءٌ.

قالَها بِلَهجَةِ الكَسيرِ المُلْتاعِ:

ـ مُنذُ هنَيهَة قُلتِ «لَستَ هو»، والآنَ تَتَراجَعينَ بِكلامِكِ. أَنتِ تَكَلَّمتِ بِشَكلٍ عَفويٍّ، ودُونَ قَصدٍ، ولا يُمكِنُ أَنْ تكونَ هَذهِ الجُمْلَةُ غَيرَ المَقْصودَةِ إِلّا جُملَةً صَحيحةً.

ـ آسِفَةٌ، ما قَصَدْتُ ذلِكَ؟

ـ لا دَاعِي لِلأسَفِ، فَمَنْ مِثْلُكِ لا يَأْسَفُ عَلَى مَنْ مِثْلي. أَنا المُخْطِئُ. ولا ضَيْرَ عَلَيكِ.

ـ آسِفَةٌ.

ـ عُدْنا إِلى الأَسَفِ مِن جَديدٍ. أَنا المُخْطِىءُ. بلْ أَنا الغَبِيُّ. كَيفَ أُصَدِّقُ ما قُلتِ لي عَلَى الهاتِفِ، فَهَوَى قَلبي بِكُلِّ هذِهِ السُّهُولةِ؟!

تَلفَّتَ خَلفَهُ بَعدَ أنْ سَمِعَ صَوتَ خُطُواتٍ تتَّجِهُ نَحْوهُما، هَدَأَ قَليلاً، ثمَّ تَكَلَّمَ بِصَوتٍ مُنْخَفِضٍ:

ـ لا بَأسَ عَلَيكِ! لا تَقلَقِي. أَعتَقدُ أَنَّكِ أُصِبْتِ بِالإحْباطِ أَكثَرَ مِنِّي. ومَنْ تِلكَ التي تَحْفلُ بِواحِدٍ مِثْلي؟ غَمَرَ الشَّيبُ رَأسَهُ، وهَرَبَ مِنْهُ قِطارُ العُمرِ؟!.

قَالتْ لهُ وهي تُحاوِلُ أَنْ تَشُدَّ وثاقَها كَيلا تَسقُطَ مِنها كَلِمَةً عَفويَّةً أُخرَى:

ـ أَبَداً. أَنتَ مَن رَأيتُكَ في تِلكَ الأُمسِيَةِ؛ حَيثُ اجْتَمَعَ النَّاسُ يَحْتفِلونَ. وكُنتَ تَمرُّ بِالقُربِ مِنِّي، فَابتَسَمْتُ لَكَ، فَرَدَدْتَ الابْتِسامَةَ بِأَحسَنَ مِنها.

ضَحِكَ ضِحْكَةً ساخِرَةً بِأَعْلَى صَوتِهِ، فَنَظَرَ إِلَيهِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ. لَمْ يَهتَمَّ بِهِمْ وبِنَظَراتِهِم، ثمَّ قالَ لَها:

ـ أَنا قُلتُ لَكِ يَومَ أَرْسَلْتِ لي صورَتَكِ بِالبَريدِ الإِلِكترونيِّ:

إِنِّي لا أَذْكُرُكِ، فَأَنا أَبتَسِمُ للجَميعِ، لَكنِّي صَدَّقتُكِ. يا لَغَبائي!

رَنَّ هاتِفُها النَّقَّالُ؛ كَأَنَّهُ كانَ المُنقِذَ للمَوقِفِ.

قَالتْ لِلْمُتَّصِلِ أَنْ يَنتظِرَها، فَسَوفَ تَأتي حالاً.

ثمَّ تَرَكتْهُ في حُزنِهِ، يَمتَصُّ شَفَتَيهِ؛ حَتَّى سَقَطَ الدَّمُ مِنَ الشَّفَةِ السُّفْلَى؛ فَمَلأَ المَكانَ حَتَّى آخِرِ قَطْرةٍ.

ذِكْرَيَاتُ إِجَازَةٍ صَيْفِيَّةٍ

صَبَاحُ «بَرْدٍ» جَدِيدٌ.

جَمْعٌ مِنَ النّاسِ يَسِيرُونَ بِبُطْءٍ عَلَى طُرُقٍ مَغْسُولَةٍ بِماءِ مَطَرٍ، يَتَحادَثونَ، يَتَضاحَكونَ، يَتَهامَسونَ، دُونَ أَنْ يَهْتَمَّ أَحَدٌ بِبَرْدٍ واهِمٍ يُجَمِّدُ دِماءَ العُروقِ.

صَوتُ نارٍ في مِدْفَأَةٍ جِدارِيَّةٍ قَدِيمَةٍ؛ يُؤَجِّجُ بَرْدَ الشِّتاءِ، وماءٌ مُنْزَلِقٌ عَلَى حَوائِطَ مُتَدَلِّيَةٍ خَلْفَ أَبْوابٍ، وجُسُورٌ مُعَلَّقَةٌ بَيْنَ سَماءٍ وأَرْضٍ.

عَلَى غُصْنِ شَجَرَةٍ تَحْتَ مَرْأَى البَصَرِ عُصْفورٌ نَشَرَ جَناحَيْهِ، يَغْسِلُ رِيْشَهُ الرَّطْبَ بِأَشِعَّةِ شَمْسٍ تَتَسَلَّلُ بِحَياءَ مِنْ نَوافِذِ غَيْماتٍ، ولَوْنُ انْكِسارِ الضَّوْءِ يَفْرشُ الأُفقَ بِلَوحاتٍ لَوْنِيَّةٍ مُدْهِشَةٍ.

أَتَذَكَّرُ أَيّامَ صَيْفِ مَدِينَةٍ خَلِيجِيَّةٍ مُلْتَهِبَةٍ؛ تَمْتَدُّ لأَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ العامِ، وأَفْظَعُ الأَوْقاتِ تِلْكَ الَّتي يَتَعَطَّلُ فِيْها مُكَيِّفُ هَواءِ السَّيارَةِ، فَيَدْفَعُنا لِشُعورٍ يُماثِلُ مَنْ دَفَعَتْهُ الأَقْدارُ لِيَسِيرَ دُونَ ساتِرٍ بَيْنَ رَأْسِهِ والشَّمْسِ، وحَتَّى شَعْرِ الرَّأْسِ يَنْحَسِرُ، فَيَكْشِفُ سِتْراً تَحْتَ نِخاعٍ.

مَدينَتي المُبَلَّلَةُ بِماءِ المَطَرِ عَطْشَى لِحُبٍّ، لِشَيءٍ يُبَدِّدُ صَمْتَ اللَّيالي وأُرْجُوحَةَ القَمَرِ، ويُعِيدُ المَدَى لِلْبَحْرِ ولِلْجَبَلِ، لِعَروسٍ فاتَها عَريسُها يَوْمَ الفَرَحِ، فَنَكَّسَتْ رَأْسَها؛ حَتَّى تَوارَتْ في حِجابٍ، وغابَتْ عَنْ وَجْنَتَيْها صَباحاتُ الصُّوَرِ.

صَبَاحٌ جَديدٌ، ومَدينَتي لا تَغْسِلُ عَيْنَيْهَا. تَجَمَّدَتْ حَبّاتُ اللُّؤْلُؤِ في مَحاجِرِها، فَقَدَتْ

أُنوثَتَها، أَوْدَعَتْ أَطْرافَ ضَفائِرِها في سِجْنِ اللَّيْلِ. ذَلِكَ اللَّيْلُ السَّجينُ، المُتَمَرِّدُ، المَسْكونُ بِالعَتْمَةِ الأَبَدِيَّةِ.

أَتَذَكَّرُ صَوتَ الرَّبيعِ، يَوْمَ كانَ الرَّبيعُ يُغَنِّي.

أَتَذَكَّرُ السّاعَةَ الكَبيرَةَ المَزْروعَةَ فَوْقَ العُشْبِ، لا أَذْكُرُ لَوْنَ العُشْبِ، لا أَزْعُمُ أَنَّهُ كانَ أَخْضَرَ، رُبَّما، فَكُلُّ عُشْبٍ لا بُدَّ وأَنْ يَكونَ أَخْضَرَ، ومَعَ ذَلِكَ فَلَيْسَ في رَأْسِي أَيُّ صُورَةٍ تُذَكِّرُني بِلَونِ عُشْبِ السَّاعَةِ، فَقَدِ امَّحَتِ الأَلْوانُ عِنْدِي كَما امَّحَى لَوْنُ شَعْري.

البَرْدُ يَشْتَدُّ، السُّحُبُ تَتَراكَمُ كَصَفَحاتٍ باهِتَةٍ حالِكَةٍ، تَعْدُو سَرِيعَةً لاهِثَةً، والشَّمْسُ تَغْفُو خَلْفَها، تَنْتَظِرُ مَوْعِدَ إِشْراقٍ جَديدٍ.

صَوْتُ مُذيعٍ أَعْرِفُهُ، كُنَّا نَعْمَلُ سَوِيّاً في رَيْعانِ الشَّبابِ، يُحَذِّرُ مِنْ عاصِفَةٍ ثَلْجِيَّةٍ تَغْزو مَناطِقَ جَبَلِيَّةً، يَتَحَدَّثُ عَنْ سَيّاراتٍ بَيْنَ ثُلُوجٍ يُحاوِلُ رِجالُ الإِنْقاذِ تَحريرَها مِنْ أَسْرِها، يَنْقُلُ عَنْهُمْ أَنَّ الأُمورَ تَحْتَ السَّيْطَرَةِ، ولا داعِيَ لِلقَلَقِ:

ـ الطُّرُقاتُ عَلَى العُمُومِ سالِكَةٌ لِلسَّياراتِ المُجَهَّزَةِ بِسَلاسِلَ حَديدِيَّةٍ.

كَمْ أَكْرَهُ السَّلاسِلَ الحَديدِيَّةَ، عَرَفْتُها في مَرْحَلَةٍ ما مِنَ العُمرِ.

أَيُّ عُمرٍ هَذا يَعِيشُ بَيْنَ السَّلاسِلِ والقُيودِ؟

كَانَتِ الطُّفولَةُ أَسْرٌ، والشَّبابُ أَسْرٌ، والرُّجولَةُ أَسْرٌ.

بَياضُ مَدِينَتي لَمْ يَكُنْ غَيرَ غِشاوَةٍ وضَبابٍ.

أَوَّلُ نَسْمَةٍ أَطاحَتْ بِكُلِّ الأَسْرارِ، جَعَلَتْ مِنْ حِجارِ المَدِينَةِ مَتارِيسَ لِكُلِّ الأَبْطالِ

المَزْعومِينَ، أَشْباهِ الرِّجالِ؛ الَّذينَ ضَحِكُوا عَلَيْنا مَسِيرَةَ عُمرٍ، غَسَلُوا التُّرابَ بِمِدادٍ أَحْمَرَ، زَرَعُوا الأَصْفادَ في كُلِّ مَكانٍ.

كانَ نَصبُ الشُّهَداءِ الشَّاهِدَ الوَحِيدَ، فَخَلَعوهُ لِيَعودَ شاهِداً صامِتاً بَعْدَ تَرْوِيضِهِ.

وَدَدْتُ لو أَعودُ إِلى تِلْكَ المَدِينَةِ بَعْدَ هُجْران طَويلٍ، فَأَجِدُ الشَّمْسَ عادَتْ لِوَهْجِها، والحِجارَةَ وَضَعَتْ أَثْقالَها، والنصبَ أَلْقَى هُمُومَهُ، والحُرِّيَّةَ غادَرَتْ أَصْفادَها.

فَما وَجَدْتُ غَيْرَ بَرْدٍ، والنّاسُ (تَضْحَكُ) مِنْ بَرْدٍ يُجَمِّدُ دِماءَ العُروقِ.

عُيونُ السَّحابِ المُكَحَّلَةِ تَرْصُدُني في كُلِّ مَكانٍ، في مَدْرَسَتي المُنْتَصِبَةِ بِشُموخٍ قُرْبَ ما كانَ يُعْرَفُ بِخُطُوطِ تَماسٍ، في مَلاعِبَ تُظَلِّلُها أَشْجارُ الصَّنَوْبَرِ المُنْخَلِعَة مِنْ أَرْضِها، بُعَيْدَ رَحِيلِنا عَنْها بِقَلِيلٍ؛ لِتُزْرَعَ الأَرضُ مَكانَها جِبالاً مِنَ الإِسْمَنْتِ المَصْقولِ، المُلْتَصِقِ بِحُبَيْباتٍ تُرابِيَّةٍ دُسْناها بِخِفَّةٍ وحُبٍّ، عَفَّرْنا بِها أَقْدامَنا، غَسَلْنا بِها أَكُفَّنا ووُجوهَنا يَوْمَ عَزَّ الماءُ، وأُبِيحَ التَّيَمُّمُ.

تَذَكَّرْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ بَعْدَما اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً، وفَقَدْنا كُلَّ تِلْكَ الأَحْلامِ الَّتي عانَقَتِ الصَّنَوبَرَ.

حَفَرْتُ وصَديقٌ لي كَلِماتٍ للذِّكْرَى، كُنْتُ أَعُودُ إِلَيْهَا لأَراها مِنْ سَنَةٍ لأُخْرَى.

أَتَذَكَّرُ التُّرابَ المَسْكُونَ بِغُرْبَتِنا، بَعْدَما حَفَرْتُ الكَلِماتِ، قَرَأْتُ في كِتابٍ أَنَّ جُذوعَ الشَّجَرِ تَتَضَرَّرُ إِذا حُفِرَتِ التِّذْكاراتُ في جَنَباتِها، حَزِنْتُ كَثِيراً، قَرَّرْتُ الامْتِناعَ عَنِ الحَفْرِ في الشَّجَرِ طوالَ العُمرِ.

ما ظَنَنْتُ أَنَّ الأَشْجارَ كُلَّها سَتُقْتَلَعُ؛ لِيَكْتَسِحَ الإِسْمَنْتُ مَلاعِبَ الصِّبا، ويَدْفِنَ تَحْتَهُ ذاكَ التُّرابَ المُتَوَّجَ بِفَرَحٍ!

لِلْمَوْتِ وَجْهٌ آخَرُ

لَيْسَ كُلُّ ما يُدْرِكُهُ امْرُؤٌ يَتَمَنّاهُ، ولو كانَ المُدْرِكُ أَضْخَمَ حَجْماً مِنْ حُلُمٍ.

والتَّمَنِّي قَدْ يَعْتَرِيهِ فَشَلٌ لا يَجْلبُهُ تَمَنٍّ.

الْتِماسُ ضَوءٍ في عَتْمَةِ قَبْرٍ لا يُقَدِّرُ نَزَقَهُ غَيرُ مُكابِدٍ.

لَيْلٌ طَويلٌ في صَحْراءَ مُقْفِرَةٍ، لولا بَعْضُ نُجَيْماتٍ حَيْرَى، في غَيْبَةِ قَمَرٍ، لاسْتَحالَ فَضاؤُهُ قَبْراً، رَغْمَ مَداهُ.

كَرْكَرَةُ أَلَمٍ تَجْلُو مَرارَةَ حُلُم.

مَنْ يَجْرُؤُ عَلَى تَصْرِيحٍ بِأَنَّ غَرْغَرَةَ رُوحٍ تُنْهِي وَجَعاً؟

جَمِيعُ فُصُولِ سَنَةٍ واحِدَةٍ تُشْبِهُ نَفْسَها.

هِيَ تَعْرِفُ عاماً وَلَدَتْ فِيهِ، يَوْماً، ساعَةً، لَحْظَةً.

تَقولُ أَنَّها وَلَدَتْ هَكَذا، كَما هِيَ، رُبَّما لو ازْدادَ وَعْيُها ـ أو رُبَّما جَهْلُها ـ لَزَعَمَتْ أَنَّها تُشْبِهُ مَنْ تَكَلَّمَ في المَهْدِ صَبِيّاً.

ـ عَيْبٌ عَلَيكِ يا امْرَأَة، يَكْفِي جُنوناً، ارْحَمِي أَباً مِسْكِيناً أُصِيبَ بِجَلْطَةٍ؛ كادَتْ تُبَرِّدُ ما بَقِيَ مِنْ جَسَدِهِ دافِئاً بِما تَقْتَرِفِينَ مِنْ إِثْمٍ، عَيْبٌ، واللهِ العَظِيمِ عَيْبٌ.

تَنْظُرُ بِعَيْنَينِ سَوْداوَتَينِ؛ لَمْ تكونَا كَذَلِكَ مِنْ قَبْلُ.

كَانَتْ عَيناها تَبْرُقانِ دَوْماً مِثْلَ ذَهَبٍ، والابْتِسامَةُ تَخْطُفُ أَبْصارَ حالِمِينَ.

جَحَظَتا تَطابَتَينِ مُتَذَبْذِبَتَينِ، حالُهُما مُتَأَرْجِحٌ أَقْرَبُ إلى مَوتٍ مِنْ حَياةٍ.

النّاسُ فَظِيعُونَ حَقّاً، يَتَّهِمونَ «امْرَأَةً» دونَ دَلِيلٍ، يُصْدِرونَ حُكْماً بِلا مُحاكَمَةٍ، ولا قاضٍ، ولا شُهودٍ، ولا مَنْ يَحْزَنونَ.

كَأَنَّما «هِيَ» سِتْرُ فَضِيلَةٍ، أو كُتْلَةُ فَسادٍ.

ما أَقْبَحَها مِنْ وُجوهٍ مُتْخَمَةٍ بِتَفاهاتٍ بالِيَةٍ! يُجِيزونَ لأَنْفُسِهِم ما يُحَرِّمونَ عَلَيها، يَسْمَحونَ لِخَليلاتِهِمْ أَنْ يَتَمايَلْنَ، ولا يَسْمَحْنَ لِزَوجاتِهِمْ وهُنَّ في حَضْرَتِهِمْ، لا حَضْرَةِ سِواهُمْ.

لَطالَمَا أَنْفَقوا «ثَرَواتٍ» عَلَى امْرَأَةٍ عابِرَةٍ، ويَضُنُّونَ عَلَى زَوْجاتِهِمْ بِقَلِيلٍ.

لَكِنَّها لا تَقولُ ذَلِكَ ـ تَتَمَنَّى أَنْ تَقولَ ـ هِيَ مُتَّهَمَةٌ، ولو بَرَّأَتْها كُلُّ مَحاكِمِ الأَرْضِ، ولو جاءَ «ميلتس» ومِنْ بَعْدِهِ «براميرتز» نَفْسُهُ، ومَعَهُ كُلُّ خُبَرائِهِ وأَجْهِزَتِهِ، وبَرَّأَ ساحَتَها، سَتَبْقَى عاراً، نُقْطَةَ ضَوءٍ مُعْتِمَةٍ.

مالَتْ عَلَى حائِطٍ، تَسْنِدُهُ أو يُسْنِدُها ـ سيّانَ ـ تَتَمَنَّى رُبَّما لو يَسْقُطُ ذابِحاً كُلَّ شَرايِينِها.

ـ لا تَكُونِي حَمْقاءَ يا امْرَأَة، مُنْذُ مَتَى تُذْبَحُ الحِيطانُ؟!

هَكَذا صاحَتْ بِصَمْتٍ صارِخٍ.

مالَتْ إلى الحائِطِ أَكْثَر، كَأَنَّما تُرِيدُ أَنْ تُحَرِّكَهُ مِنْ مَكانِهِ، أو أَنْ تَبْتَلِعَهُ.

عَيْناها ارْتَفَعَتا نَحْو سَقْفِ الغُرْفَةِ، سَقْفٍ مُرْتَفِعٍ، تَذَكَّرَتْ قَبْواً ـ قَبْراً ـ عاشَتْ فِيهِ طُفولَةً وصِبا.

رَجُلٌ مُسَجًّى عَلَى سَرِيرٍ وَسَطَ الغُرْفَةِ، لا يَنْطِقُ ولا يَهْتَزُّ لَهُ جَفْنٌ، لَكِنَّ أَطِبّاءَ قالوا أَنَّ حالَهُ مُسْتَقِرٌّ تَماماً! جَلْطَةٌ قَلْبِيَّةٌ عابِرَةٌ، رَغْمَ خَطَرٍ شَديدٍ.

أَرادَتِ الاقْتِرابَ أَكْثَرَ، أَنْ تُمْسِكَ شَعْراً مُنْسَدِلاً عَلَى جَبِينِهِ، شَعْراً كَثّاً أَبْيَضَ، لَمْ تَسْتَطِعْ سُنون طَويلَةٌ نَيْلاً مِنْهُ، مَعَ أَنَّ شَيْباً كَساهُ لَونٌ لَبَنِيٌّ مَمْزوجٌ بِخَلِيطٍ عَلَى جَنَباتِهِ بَعْضُ شَعْرٍ أَسْودَ؛ يُذَكِّرُ بِأَيّامِ فُتُوَّةٍ وقَسْوَةٍ وشَبابٍ.

ـ قَلْبُهُ ماتَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيْدٍ، ومَعَ ذَلِكَ يَظَلُّ أَبِي.

لَمْ تَمْحِ أَيّامَ هَرَبَ ذُلَّ ماضٍ.

تُدْرِكُ أَنَّ زَمَناً لو عادَ لَنْ يُعِيدَ رَجُلاً كانَ سَبَبَ حَياتِها إِلى ما يَجِبُ أَنْ يَكونَ.

لا تَسْتَطيعُ نِسْيانَ صُراخَ أُمٍّ تَحْتَ ضَرباتِ قَبْضَةٍ.

أَيّامَ سَكِرَ في لَيالِيَ أُنْسٍ صاخِبَةٍ، لا لِيَومٍ واحِدٍ يَتيمٍ في أُسْبوعٍ، بَلْ كُلَّ يَوْمٍ.

لَمْ يَسْمَعْ تَوسُّلاتِها يَوْمَ كانَتْ تَتَوَسَّلُ:

ـ تَوَقَّفْ أَيا رَجُلاً عَظَّمَ أَمْرَهُ، تَمَهَّلْ. أَما آنَ لِفارِسٍ أَنْ يَتَرَجَّلَ؟

لَيْسَ بِفارِسٍ ولا غِيرِهِ.

(تَمْتَمَتْ).

نَظَرَتْ إِلى وِشاحٍ أَبْيَضَ يَأْسِرُ شُعاعَ شَمْسٍ ذَهَبِيٍّ، يُلْقِي عَلَى الوشاحِ إِشْراقَةً بَرّاقَةً.

بَحَثَتْ عَنْ كُرْسِيٍّ، سَقَطَتْ في واحِدٍ خَلْفَها لَمْ تَرَهُ مِنْ قَبْلُ، كانَ وَقْتُ صُبْحٍ في غُرْفَةٍ شَرْقِيَّةٍ:

ـ إِلى مَتَى تَظَلُّ كابوسَ حَياةٍ؟ إِلى مَتَى؟ وَجْهُكَ المَنْقُوعُ بِرَمادٍ لا تَذْرُوهُ رِيحٌ.

ـ لا تُثَرْثِرِي يا امْرَأَة، وَجْهٌ قَرِينُ مَوْتٍ، أَأَتَيتِ لِتَرَيْنَ كَيْفَ يَنْتَهِي؟

مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيْدٍ لم تَقْتَرِبي مِنْهُ، لولا اتِّصالٌ لانْتَهَى دُونَ أَنْ تَدْرِي.

لِمَاذَا أَنْقَذْتِ حياتَهُ؟

عِنْدَما ذَهَبْتِ إلى بَيْتٍ قَدِيمٍ تَنْشُلِينَ جُثَّةً قارَبَتْ مَوْتاً لَمْ تَرْحَمْكِ أَلْسِنَةٌ جَوْفاءُ لاسِعَةٌ؛ حَتَّى عَجوز حَمْقاء تَعْرِفِينَ ماضِيها تَجَرَّأَتْ عَلَيكِ.

ثُمَّ، ما فَعَلَ كُلُّ جِيرانِهِ؟

لَمْ يُسْعِفوهُ؟

لَمْ يَتَّصِلْ أَحَدُهُمْ بِمَنْ يُسْعِفُهُ؟

تَرَكُوهُ لِمَنِيَّتِهِ. لَولا ذاكَ الاتِّصالُ لانْتَهَى.

جَمَعَتْ كُلَّ ماضٍ في قَبْضَةِ غِرْبالٍ، مَسَحَتْ أَيّامَ تَشَرُّدٍ وضَياعٍ.

أَيّامُ التَّشَرُّدِ لا تَفْقَهُ مَعْنَى الحُبِّ، لا تَرَى غَيرَ عُيونٍ ناهِشَةٍ.

كِبارٌ في عُمرِ جَدِّها، صِغارٌ كَبروا بِسُرْعَةٍ.

الثَّمَرَةُ عِنْدَما تَنْضُجُ قَبْلَ أَوَانِها تَبْقَى دُونَ طَعْمٍ ورائِحَةٍ، مِثْل فاكِهَةٍ مُبَرَّدَةٍ تَأْتي في غَيرِ زَمانِها، أو فِراخِ دَجاجٍ تُعْلَفُ حَتَّى يُقْضَى عَلَى طُفُولَتِها.

تَكْثُرُ ثَرْثَرَةٌ بِحُضُورِ مَوْتٍ.

مَوْقِفٌ يَسْتَوْجِبُ صَمْتاً تَأَمُّلِيّاً صاخِباً.

واقِعٌ مُدْهِشٌ، يَنْزِعُ مِنْ إِمْكانِ التَّمَلُّصِ انْدِفاعاً إِلى دَهالِيزِ خَوفٍ أو تَمَرُّدٍ.

كَانَت تَعْرِفُ هَذِهِ الجُثَّةَ المُتَأَرْجِحَةَ بَيْنَ مَوتٍ وحَياةٍ، تَعْرِفُ كُلَّ تَفاصِيلِها اليَومِيَّةِ، تَعْرِفُ كُلَّ انْحِناءَةٍ فِيْها واسْتِدارَةٍ، أَفْكارٌ مُقَزِّزَةٌ.

يا لَهُ مِنْ لَوحٍ خَشَبِيٍّ مُتَعَرِّجٍ مِثْلُ حَيَّةٍ هارِبَةٍ مِنْ جُحْرٍ عَمِيقٍ!

لا يُسْعِفُ امْرَءاً فَرارٌ مِنْ مَصِيرٍ.

الكَلِماتُ عادَةً ما تُصْبِحُ سَيِّدَةَ نَفْسِها، تُحاوِلُ تَصَنُّعاً بِوجُوهٍ مَلأَى بِتَعَرُّجاتٍ وتَمَدُّداتٍ كَرِيهَةٍ.

تَظَلُّ رَغْمَ قَرارِ الانْسِحابِ حَبِيسَةَ زِنْزانَةِ المَوْتِ، تَوَدُّ لو تُصْدِرُ حُكْماً بِقَتْلٍ.

ظَلَّتْ واقِفَةً عَلَى عَتَبَةِ الغُرْفَةِ، مُتَسَمِّرَةً، ظَهْرُها إِلى حائِطٍ مُتْخَمٍ بِالثُّقوبِ، وَدَّتْ لو تُحْدِثُ ثُقْباً آخَرَ، لَكِنْ مُنْذُ مَتَى تَصْنَعُ الثُّقُوبُ ثُقوباً؟!

جاءَ مَنْ يَحْمِلُ آخِرَ الجَسَدِ.

وهَلْ لِلجَسَدِ آخِر؟! كَمْ نَفْقِدُ مِنْ أَجْسادِنا كُلَّ يَوْمٍ! لا نَشْعُرُ بِملايينِ الخَلايا نَفْقِدُها لَحْظَةً بَعْدَ أُخْرَى، نَتَهاوَى شَيْئاً بَعْدَ شَيءٍ.

ـ لِلْمَوتِ وَجْهٌ آخَرُ.

قَالَتْ بِسُخْرِيَةٍ. سَمِعَها المُحاسِبُ وهِيَ تَكْتُبُ شيكاً بِخَطٍّ مُتَعَرِّجٍ.

دَفَعَتْ بِسَخاء. مَنْ كانَ يُنَظِّفُ السَّريرَ لَمْ يُصَدِّقْ كُلَّ هَذا الكَرَمِ.

ما بَيْنَ الظَّنِّ الآثِمِ وخِلافُهُ فَرْقٌ

لا أُوَفَّقُ أَحْياناً كَثيرةً في فَهْمِ النّاسِ الَّذينَ هُمْ أَمامي، حالي كَحالِ الكَثيرينَ مِثْلِي.

وأَحْياناً أَعْتَقِدُ شِبْهَ جازِمٍ أَنَّني عَرَفْتُ الَّذي أَمامي بَالتَّفْصِيلِ، وتَمَكَّنْتُ مِنَ الحُكْمِ عَلَيْهِ بِالسَّلْبِ أو بِالإِيجابِ.

وما أَنْ أَغْفُوَ قَلِيلاً حَتَّى أَصْحُوَ عَلَى خِلافِ المُتَوَقَّعِ.

هَذا الجَهْلُ المُتَأَصِّلُ شَيءٌ مُزْعِجٌ؛ أَنْ تَظُنَّ الظَّنَّ فِيمَنْ ظَنُّهُ ظَنٌّ.

عُذْراً! لا تَظُنَّ ظَنّاً خاطِئاً أَنَّ الجُمْلَةَ الأَخِيرَةَ خَطأٌ.

فَظَنُّكَ فِيْها مِثْلُ ظَنِّي في كَثِيرٍ مِنَ النّاسِ خَطَأ حِيْنَما أَفْتَرِضُ حُسْنَ النِّيَّةِ في بَعْضِ النّاسِ، بَيْنَما الأَوْجَبُ هُوَ العَكْسُ.

وفي هَذا الكَلامِ تَفْسيرٌ مُحْبِطٌ لِبَعْضِ الواقِعِ الغَرِيبِ بِالوَقائِعِ.

أَنْتَ مَرَرْتَ دونَ شَكٍّ بِهَذا الظَّنِّ.

رُبَّما، و(أَظُنُّكَ) مُتَّفِقاً مَعي إِلى حَدٍّ ما، لَكِنَّكَ قَدْ لا تَسْتَطِيعُ التَّصْرِيحَ أو التَّلْمِيحَ؛ كَيْلا تَفْقِدَ الثِّقَةَ بِالحالِ.

بِالنِّسْبَةِ لي الثِّقَةُ غائِبَةٌ حَتَّى يَثْبُتَ العَكْسُ، دونَ إِنْكارِ وُجودِ حالاتٍ شاذَّةٍ، ومَعَ ذَلِكَ يَبْقَى الأَصْلُ في يَومِنا هَذا مُحاطاً بِالوَهمِ الواقِعِيِّ.

لا تَقْلِبْ شَفَتَيكَ، وتَهزَّ كَتِفَيكَ، وتَرحَلْ وتَتْرُكِ المَكانَ وَحِيداً. لا تُرِيدُ أَنْ تَسْمَعَ كَلامِي؟

أنا أَفْهَمُ أَنَّكَ لا تُريدُ العَبَثَ بِأَقْوالي.

مَعَكَ حَقٌّ. وأنا أَيْضاً مِثْلُكَ، لَكِنَّني أُفَضِّلُ العَبَثَ في زَمَنٍ (مَعْبوثٍ) فِيهِ.

رُبَّما لَمْ تَصِلْ إلى هَذِهِ النُّقْطَةِ بِسَماعِي.

أَنا أَفْتَرِضُ أَنَّكَ ما زِلْتَ تَسْمَعُني، مَعَ أَنِّي بِتُّ (شَكّاكاً)؛ ولِذا سَأُتابِعُ مَعَكَ دونَ أَنْ أُطِيلَ.

في حَياتِكَ تَعْرِفُ كَثِيراً مِنَ النّاسِ، ويَعْرِفُكَ أَيْضاً كَثيرٌ مِنْهُمْ، لَكِنْ في النِّهايَةِ مَنْ يَبْقَى مَعَكَ ويَسْتَمِرُّ؟!

مَرَّةً، مُنْذُ زَمانٍ طَويلٍ، عِنْدَما كُنْتُ يافِعاً ـ ولَسْتُ أَذْكُرُ مَتَى كُنْتُ يافِعاً ـ ماتَ صَدِيقٌ لِوالِدِي. وكانَ سياسيّاً مَعْروفاً، لَكِنَّ حِزْبَهُ تَعَرَّضَ لاضطهادٍ مِنْ جِهَةٍ ما، ورَفَضَ الهِجْرَةَ، وصارَ يَهْرُبُ مِنْ بَيْتٍ إلى بَيْتٍ.

وصُدْفَةً، رَأَيْتُهُ في بَيْتٍ مُلاصِقٍ لِبَيتِ صَديقٍ لي، فَحَفِظْتُ سِرَّهُ، ولَمْ أَقُلْهُ لأَحَدٍ حَتَّى لأَبي.

المُهِمُّ، ماتَ الرَّجُلُ بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الهَرَبِ، وبَعْدَ أَنْ تَوَقَّفَتْ عَنْهُ المُلاحَقَةُ، عادَ لِبَيْتِهِ.

أَتَذْكُري كَيْفَ ماتَ؟

فَتَحَ بابَ المِصْعَدِ، ودَخَلَ فِيهِ، المِصْعَدُ كانَ مُعَطَّلاً، فَوَضَعَ رِجْلَهُ في الهَواءِ.

هَوَى الرَّجُلُ في حُفْرَةِ المِصْعَدِ، ولَكِنَّهُ لَمْ يَمُت بِسَبَبِ السَّقْطَةِ.

لَقَدْ أَصابَتْهُ نَوْبَةٌ ما. لا أَدْرِي ما هي بِالتَّحْدِيدِ، وبَقِيَ في الحُفْرَةِ فَتْرَةً طَوِيلَةً دونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِ أَحَدٌ.

بَقِيَ هُناكَ حَتَّى ماتَ.

فَتَحَ أَبْناؤُهُ البَيتَ لِتَقَبُّلِ التَّعازِي. لَمْ يَأْتِ مِنَ الأَصْدِقاءِ والجِيرانِ والمحازبينَ إِلَّا قَلِيلٌ.

رَأَيْتُ كَلْبَهُ في باحَةِ المَنْزِلِ يَئِنُّ باكِياً، ثُمَّ عَلِمْتُ فِيما بَعْد أَنَّهُ ماتَ حُزْناً عَلَيْهِ.

تُرَى هَلْ رَأَيْتُمْ مِثْلَ هَذا المَشْهَدِ؟

أَنا لا أَظُنُّ أَنَّكُمْ لا تَظُنُّوا ظَنِّي؟ ومَعَ أَنَّ الظَّنَّ مُعْظَمَهُ إِثْمٌ، يَبْقَى الجُزْءُ، ويا تُرَى كَيْفَ يُصْبِحُ الجُزْءُ كُلاً، والكُلُّ جُزْءاً؟ سُؤالٌ يَحْتاجُ لِمَنْ يَجِيبُ عَنْهُ.

لَنْ أُتابِعَ؛ كَيْلا تَأْخُذَكُمُ الظُّنُونُ إِلى أَماكِنَ لَيْسَ المَطْلوبُ أَنْ تَذْهَبوا إِلَيْهَا.

سَلامٌ مِنَ القَلْبِ.

عَزْفٌ مُنْفَرِدٌ

مِنَ المُؤسِفِ أَنْ تُحاوِرَ مَنْ يَظُنُّ نَفْسَهُ عالِماً في مِضْمارِهِ، عَمِيقاً في مَجالِهِ، وتَكْتَشِفَ فِيما بَعْدُ عَكْسَ ما يَقولُ.

والَّذي يُؤْسَفُ لَهُ أَكْثَر أَنْ تُحاوِرَ مَجْمُوعَةً مِنَ النّاسِ؛ لا تَفْقَهُ عَنِ الفَنِّ شَيئاً، عَنْ عَزْفِ جَوْقَةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَيُحاوِلونَ إِقْناعَكَ بِأَنَّ عَزْفَ الجَوْقَةِ يُضاهِي عَزْفَ بِيتْهوفِن ومُوزارْت وزِيادَ الرَّحْبانيِّ، مَعَ أَنَّ هَذا العَزْفَ نَشازٌ في نَشازٍ:

هَذا ما كَانَ يُرَدِّدُهُ دائِماً أَمامَ أَصْدِقائِهِ وخُصُومِهِ.

ومِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ الأخِيرِينِ كانوا أَكْثَرَ مِنَ الأَوَّلِينَ، ومَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَعْبَأُ بِهَؤلاءِ ولا بِهؤُلاءِ.

حِوارُهُ لا يَخْلُو مِنْ طَرافَةٍ، لا يَتَرَدَّدُ عَنِ التَّصْرِيحِ بما يَخْتَلِجُ صَدْرُهُ، وما يُرِيدُهُ؛ طَالَمَا يَعْتَقِدُ بِصَوابِيَّةِ الرَّأْيِ.

مَعَ أَنَّ الآخَرِينَ ـ طَبْعاً ـ كانُوا هُمْ أَيْضاً مُعْتَقِدِينَ بِصَوابِيَّةِ آرائِهِمْ، ولَكِنَّهُ بِلا سُلْطَةٍ، وهُمْ سُلْطَوِيُّونَ في طَبْعِهِمْ، أَيْدِيهِمْ واصِلَةٌ ـ كَما يَقولونَ ـ.

كانَ لا يَهْتَمُّ بِغَيْرِ الأَدِلَّةِ والحُجَجِ، وإِنْ لَمْ تَكُنْ مُقْنِعَةً؛ لأَنَّ الحُكْمَ عَلَيْهِ صَدَرَ، ولَمْ يُلاقِ مَنْ يُنْجِدُهُ سِوَى قَولِهِ: «لا حَوْلَ لَها ولا قُوَّة».

كانَ يَسْكُنُ مَدينَةً مُكْتَظَّةً، النّاسُ فِيها يَبْحَثُونَ عَنْ حَياةٍ، كانَ واحِداً مِنْهُمْ؛ حَتَّى اصْطَدَمَ بِسُلْطَوِيَّتِهِم، فَصَدَمَهُمْ، و«ماذا تَفْعَلُ سَيّاراتٌ سِياحِيَّةٌ أَمامَ مُدَرَّعاتٍ ثَقِيلَةٍ؟!».

مَضَى مِنْ أَمامِهِمْ: «الحِكْمَةُ في التَّراجُعِ».

عَلَى ضِفَّةٍ أُخْرَى مِنَ العالَمِ صَادَفَ مِثْلَهُمْ، وعَلَى ضِفَّةٍ أُخْرَى تَرَاءَتْ لَهُ أَسْرابُهُمْ، وعَلَى ثَالِثَةٍ وسابِعَةٍ.

تَقَمَّصَ شَبابَهُ وتَنَكَّرَ، قَرَّرَ وَضْعَ قِناعٍ عَلَى وَجْهِهِ، صَفَّقَ لَهُ الأَوَّلونَ والآخِرونَ، كادَ التَّصْفِيقُ يَخْرُقُ أَعْماقَ أُذُنَيْهِ.

تَنَحَّى جانِباً ونَزَعَ القِناعَ؛ لِيَمْسَحَ وَجْهَهُ، لَمَحَتْهُ مِرْآةٌ عَلَى حائِطٍ يُقابِلُهُ، لَمْ يَعْرِفْ هَذا الوَجْهَ المَرْئِيَّ، كانَ الوَجْهُ قِناعاً آخَرَ، تَذَكَّرَ كُلَّ العازِفِينَ النَّشازِ.

قَرَّرَ الانْتِسابَ لِكُلِّ جَوْقاتِ النَّشازِ في العالَمِ.

بَعَثَ أَوْراقَهُ الرَّسْمِيَّةَ ـ المُعْتَرَفَ بِها وغَيرَ المُعْتَرَفِ بِها ـ إِلى كُلِّ سَفاراتِ العالَمِ، كَانَتْ أَبْوابُ العالَمِ مَصْقولَةً أَمامَهُ، لَكِنَّها مُوصَدَةٌ.

عادَ باحِثاً عَنْ قِناعٍ جَديدٍ مُناسِبٍ، كَانَتْ كُلُّ الأَقْنِعَةِ قَدْ نَفَدَتْ، وباتَتْ أَشْكالُها مَعْروفَةً.

اعْتَرَفَ بِخَسارَةِ المَعْرَكَةِ، قَرَّرَ الانْسِحابَ مِنْها.

لَمْ يُصَدِّقْ أَحَدٌ أَنَّهُ اعْتَزَلَ، تَسَلَّلوا إِلَيْهِ في لَيْلٍ بَهِيمٍ، حَشَروا أَنْفَهُ داخِلَ قِطْعَةٍ خَشَبِيَّةٍ، خَيَّطوا قِطْعَةً أُخْرَى طَوِيلَةً عَلَى كَتِفَيْهِ مَحْمُولَةً بِالعَرْضِ، حَلَقوا شَعْرَ رَأْسِهِ.

«لِيَكُنْ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ».

لـمْ يَـخْرُجْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ بَيْتِهِ، البابُ ضَيِّقٌ، فَكَيْفَ يَخْرُجُ مِنْهُ مَنْ «يَحْمِلُ السُّلَّمَ بِالعَرْضِ»؟!

خَطَّطَ لِلنُّزولِ مِنْ نافِذَةٍ عَريضَةٍ، تُطِلُّ عَلَى الشَّارِعِ الرَّئِيسِيِّ.

في اليَوْمِ التّالي نُشِرَ خَبَرٌ:

مُخْتَلٌّ عَقْلِياً يَنْتَحِرُ.

عالمٌ عَجِيبٌ.

لـمْ يَجِدِ الـمُحَقِّقُ دَلِيلاً عَلَى جَريمةٍ، لـمْ يَسْأَلْ عَنْ سَبَبِ السُّقوطِ، ولا عَنِ القِطْعَةِ الخَشَبِيَّةِ.

شَيءٌ لا يَعْنِيهِ، هَكَذا هُمْ «مُعْظَمُ النّاسِ يُهْمِلونَ مَنْ لا يُسْأَلُ عَنْهُمْ!» أو بِالأَصَحِّ مَنْ لا يَجِدُ لَهُ قُوَّةً تُسانِدُهُ!

ألـمْ تَنْشُرِ الصَّحافَةُ قَبْلَ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ خَبَرَ اخْتِفاءِ شَخْصٍ تَحْتَ تُرابٍ خَفِيفٍ لِمُدَّةِ أَيّامٍ طَويلَةٍ دُونَ أَنْ تُكَلِّفَ الشرطَةُ نَفْسَها عَناءَ البَحْثِ عَنْهُ، ودونَ أَنْ يَسْمَحوا لأُسْرَتِهِ بِالبَحْثِ عَنْهُ؟ والمَكانُ مَعْروفٌ، والزَّمانُ مَعْروفٌ، والمَفْقُودُ مَعْروفٌ؟!

حَمَلوهُ، وفي التُّرابِ دَسُّوهُ، ثُمَّ عادُوا يَحْتَفِلونَ!

فَرِحَ كَثيرونَ بِمَوتِهِ.

لَقَدْ كانَ مُزْعِجاً، و«ما أَكْثَرَ المُزْعِجِينَ! حَبَّذا لو يَموتونَ جَمِيعُهُمْ».

ما أَغْرَبَها مِنْ أُمْنِيةٍ!

بَقِيَتْ عِبارَةُ: «حَتَّى عِنْدَما يَتَزَيَّونَ بِزِيِّ الفُضلاءِ يَنْسونَ غَسْلَ أَثْوابِهِمُ المُلَطَّخَةِ بِالدَّنَسِ».

كَانَتْ بَعْضاً مِنْ كَلِماتٍ خَطَّها عَلَى حائِطِ غُرْفَتِهِ الضَّيِّقَةِ.

قالَ بَعْضُ جِيرانِهِ: «ضَيَّعَ نَفْسَهُ».

قالَ آخَرُ: «مَجْنونٌ وانْتَهَى».

قَالَ ثالِثٌ: «عاطِلٌ».

ما أَغْرَبَها مِنْ أَحْكامٍ!

لَقَدْ كانَ يَعْزِفُ مُنْفَرِداً.

السَّاعَةُ المُنَبِّهَةُ

تَقَلَّصَتْ كُلُّ الرُّؤَى والأَحْلامِ عَلَى وَقْعِ رَنِينِ المُنَبِّهِ المُزْعِجِ، الَّذي لا يُريدُ أَنْ يَهْدَأَ ولا يَخْرَسَ.

فاتِحٌ فَمَهُ مِثْلَ حَيَوانٍ مُفْتَرِسٍ، يَصِيحُ بِفَرِيسَتِهِ: أنا.

تَسَارَعَتِ الأَفْكارُ المُبْهَمَةُ عَلَى وسادَةٍ صَفْراءَ مُضْطَرِبَةٍ، كَجَسَدٍ يَحْتَضِرُ.

نَبَشَتْ صَيْحاتُ السَّاعَةِ المُنَبِّهَةِ، المُسْنَدَةِ إِلى طاوِلَةٍ جانِبِيَّةٍ بِالقُرْبِ مِنْ سَرِيرِي، حُطامَ رأسِي، شَكَّلَتْ مِنْهُ فُسَيْفساءَ عِمْلاقَةً، لا تَنْتَمِي إِلى دُنْيا الفَنِّ بِشيءٍ، تَشُذُّ حَتَّى عَنِ السِّرْيالِيَّةِ في عالَمٍ مِنَ اللَّامَعْقُولِ، يَحْجُبُ دَهْشَةَ النَّظْرَةِ الأُوْلَى.

ضَرْبَةٌ واحِدَةٌ، سَرِيعَةٌ خاطِفَةٌ، كَانَتْ كافِيَةً لِتُحَلِّقَ السَّاعَةُ نَحْوَ الجِدارِ الصَّلْبِ، فَتَسْقُطُ مُتَفَتِّتَةً مَبْقورَةَ البَطْنِ، بارِزَةَ الأَمْعاءِ، تَلْفُظُ بَقايا العَقارِبِ المُؤْذِيَةِ، ويَتَناهَى إِلى الأَسْماعِ أَنِينُ الجَرَسِ المُزْعِجِ.

وكانَ الصَّمْتُ إِعْلاناً عَنْ مَوْتِ السَّاعَةِ المُنَبِّهَةِ؛ لِتُصْبِحَ مِنَ الآن فَصاعِداً جُثَّةً هامِدَةً لا حَياةَ فِيْها.

هُوَ تَمَرُّدٌ، ثَوْرَةٌ، اعْتِراضٌ، سَمِّهِ ما شِئْتَ.

هَذِهِ حياتي لي أَنا وَحْدِي. مَتَى شارَكْتَني فِيها السَّاعَةُ حَتَّى تُحَدِّدَ لي خَياراتي؟

تَتَحَكَّمُ بِأَنْفاسِي، بِأَوْقاتي، لا أُرِيدُ بَعْدَ اليَوْمِ وَقْتاً، أُرِيدُ العَيْشَ خارِجَ الوَقْتِ، خارِجَ الزَّمَنِ.

المُتَسَوِّلَةُ

جَلَسَتْ عَلَى التُّرابِ في ظِلِّ حائِطٍ أَمامَ مَدْخَلِ المَسْجِدِ، تَسْتُرُ وَجْهَهَا بِقِطْعَةِ قماشٍ باهِتَةٍ مُتآكِلَةِ الأَطْرافِ، تَضُمُّ إِلى صَدْرِها طِفْلَةً صَغِيرةً شاحِبَةً، بَدَا مِنْ عَيْنَيْهَا أَنَّها لَمْ تَنَمْ، ولَمْ تَأْكُلْ مُنْذُ أَيّامٍ.

حَضَرَتْ مُبَكِّرَةً، فَوَقْتُ صَلاةِ الجُمُعَةِ لَمْ يَحِنْ بَعْدُ، هُنالِكَ أَكْثَرُ مِنْ سَاعَتَينِ، ولولا بَعْضُ العابِرِينَ مِنْ آنٍ إِلى آخَرَ لَقَفَرَ الشَّارِعُ إِلَّا مِنْهُما.

البِنْتُ الصَّغِيرَةُ مَلَّتِ المُكوثَ في حُضْنِ أُمِّها.

اللَّعِبُ في باحَةِ المَسْجِدِ أَمْرٌ مُغْرٍ، قَفَزَتْ تُهَرْوِلُ، لَمْ تُمانِعِ الأُمُّ، تَرَكَتْها تَلْهو بِبراءَةٍ حَتَّى عَثَرَتْ في أَحَدِ جَوانِبِ الباحَةِ عَلَى نَخْلَةٍ دانِيَةِ القُطوفِ، حَمَلَتْ بَعْضَ ثِمارِها، وَرَكَضَتْ نَحْوَ أُمِّها لِتُشارِكَها وَجْبَتَها الشَّهِيَّةَ.

نَظَرَتِ الأُمُّ بِإِشْفاقٍ:

ـ مِسْكِينَةٌ أَنْتِ! ما ذَنْبُكِ لِتَتَحَمَّلي مَعِيَ أَلَمَ الفَقْرِ؟لَقَدْ يُتِّمْتِ باكِراً جِدّاً؛ حَتَّى أَنَّكِ لَمْ تَعْرِفي مَعْنَى الأُبُوَّةِ.

تَذَكَّرَتْ كَيْفَ كَانَتْ تَعِيشُ عِيْشَةً رَغِيدَةً بِصُحْبَةِ زَوْجِها.

لَقَدْ كَانَتْ سَعِيدَةً جِدّاً قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الأَشْرارُ، ويَطْرُدونَها مِنْ بَيْتِها وأَرْضِها.

حاوَلَ زَوْجُها أَنْ يَمْنَعَهُمْ،لَمْ يُكَلِّفْهُمْ إِلَّا رَصاصَةً واحِدَةً، سَقَطَ إِثْرَها مُضَرَّجاً بِالدِّماءِ.

خَرَجَتِ الأُمُّ هائِمَةً عَلَى وَجْهِها، تَجُرُّ ابْنَتَها جَرّاً، وانْقَطَعَ أَيُّ اتِّصالٍ بَيْنَها وبَيْنَ إِخْوَتِها.

كَانَتْ مُتَأَكِّدَةً مِنْ مَوْتِ أَبِيها وأُمِّها عَلَى يَدِ هَؤُلاءِ الأَشْرارِ.

حَمَلَها بَاصٌ صَغِيرٌ، نَقَلَها وابْنَتَها إِلى أَرْضٍ بَعِيْدَةٍ، كَرِهَتْ نَفْسَها، كَرِهَتِ النّاسَ والحَياةَ، تَمَنَّتْ لَو ظَلَّتْ هُناكَ جُثَّةً هامِدَةً إِلى جانِبِ تُرْبَةِ زَوْجِها؛ لأَنَّ ذَلِكَ أَفْضَلُ ممَّا هِيَ فِيهِ أَلْفَ مَرَّة.

بِالأَمْسِ كَانَتْ تَعِيشُ مَلِكَةً في مَمْلَكَتِها، واليومَ تَمُدُّ يَدَها إِلى النّاسِ.

يا سُبْحانَ الله! كَيْفَ انْقَلَبَ بِها الحالُ؟! هَجَرَتْ أَمْلاكَها، وَوَجَدَتْ نَفْسَها في مَكَانٍ بَعِيْدٍ داخِلَ مَزْرَعَةٍ.

لَمْ تَكُنْ تَقْوَى عَلَى السَّيْرِ، حَمَلَها رَجُلٌ، وأَدْخَلَها بَيْتَهُ، وبَعْدَ أَنِ اسْتَعادَتْ وَعْيَها، حاوَلَ نَهْشَ لَحْمِها المَشْوِيِّ تَحْتَ الشَّمْسِ بِلا رَأْفَةٍ ولا رَحْمَةٍ.

ضَرَبَتْهُ بِخَشَبَةٍ امْتَدَّتْ إِلَيْهَا يَدُها الواهِنَةُ، ضَرَبَتْهُ في عينِهِ، فَانْقَلَبَ عَلَى ظَهْرِهِ مِنَ الأَلَمِ.

حَمَلَتِ ابْنَتَها، وفَرَّتْ بِمُصِيبَتِها، لَقَدْ كانَ جارَ أُسْرَتِها.

جَفَّ حَلِيبُها، ولَمْ تَيْأَسْ، بَحَثَتْ في القُمامَةِ عَنْ بَقايا الطَّعامِ، أَصْبَحَ وَجْهُها كَوْمَةَ عِظامٍ يَحْمِلُ عَيْنَيْنِ ناتِئَتَيْنِ، بَعْدَما كَانَت تَتَدَفَّقُ بِالحَياةِ.

اقْتَرَبَ مَوْعِدُ الصَّلاةِ، ولَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بَعْدُ، عَزَّتْ نَفْسَها بِثِمارِ النَّخْلَةِ، اقْتَرَبَتْ مِنْ بابِ المَسْجِدِ، فَشَاهَدَتْ وَرَقَةً مُعَلَّقَةً في رُكْنِ جانِبِ المَسْجِدِ: «مُغْلَقٌ لِلتَّرْمِيمِ».

ضَحِكَتْ كَما لو لَمْ تَضْحَكْ مِنْ قَبْلُ:

ـ حَتَّى المَسْجِد أُغْلِقَ لمَّا جِئْتُ إِلَيْهِ؟!

قامَتْ تَسيرُ بِبُطْءٍ شَدِيدٍ، مَرَّتْ سَيّارَةٌ مُسْرِعَةٌ، خافَتِ الطِّفْلَةُ مِنْ صَوْتِها المُرْعِبِ.

أوَقفَ السَّائِقُ سَيّارَتَهُ، فَأَحْدَثَتِ الإِطارَاتُ زَعِيقاً مُتواصِلاً فَوْقَ الإِسْفَلْتِ.

تَلَفَّتَ هُنا وهُناكَ، ثُمَّ عادَ بِهدوءٍ، وقالَ:

- إِلى أَيْنَ يا حُلْوَة؟

رَمَقَتْهُ الأُمُّ بِأَسى، وبَصَقَتْ في وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَتْ في طَرِيقِها.

أَغْضَبَتِ الأُمُّ الشَّابَ، عادَ وتَلَفَّتَ هُنا وهُناكَ، وعِنْدَما تَأَكَّدَ أَنَّ المَكَانَ خالٍ تَماماً انْقَضَّ بِسيارَتِهِ عَلَى المَرْأَةِ المِسْكِينَةِ وطِفْلَتِها البَرِيئَةِ، وتَرَكَهُما فَوْقَ الرَّصِيفِ يُوَدِّعانِ الحَياةَ.

المَـرْأَةُ الغامِضَةُ

مَنْ يَسْتَطِيعُ فَهْمَ تِلْكَ المَرْأَةِ الغَرِيبَةِ؟

جاءَتْ مِنْ مَكانٍ لا نَعْرِفُهُ.

سَكَنَتْ حارَتَنا الشَّعْبِيَّةَ، اشْتَرَتْ أَقْدَمَ بَيْتٍ فِيْها.

أَصْلَحَتِ البَيتَ، جَدَّدَتْهُ، حافَظَتْ عَلَى شَكْلِهِ القَدِيمِ، أَصْبَحَ تُحْفَةً رائِعَةً.

سَيَّارَتُها الحَدِيثَةُ جِدّاً، تَلْمَعُ تَحْتَ الشَّمْسِ، ولا تَتَناسَقُ أَبَداً مَعَ أَزِقَّةِ حارَةٍ ضَيِّقَةٍ مَمَرَّاتُها مُتَّسِخَةٌ، ساحاتُها مُخْتَنِقَةٌ بِالباعَةِ الجَوّالِينَ، وبَسْطاتِ الخُضارِ، والفاكِهَةِ والثِّيابِ المُسْتَعْمَلَةِ.

مَنْ يَفْهَمُ المَرْأَةَ؟

تَنْزِلُ مِنْ سَيارَتِها، تَدْفَعُ كُتْلَةً دُهْنِيَّةً عَظِيمَةً، تَجْعَلُها مِثْلَ بالونٍ مُنْتَفِخٍ.

يُمْسِكُ السَّائِقُ البابَ، ويَفْتَحُهُ أَقْصَى ما يَسْتَطِيعُ، السَّيَّارَةُ كَبِيرَةٌ واسِعَةٌ، تَنْزَلِقُ المَرْأَةُ مِنْها بِرَشَاقَةٍ وخِفَّةٍ تُناقِضُ ما تَحْمِلُهُ مِنْ تَضارِيسَ تَشْعُرُ أَنَّها قَدْ تَقَعُ مِنْ جِسْمِها.

تَسِيرُ المَرْأَةُ في مُحاذاةِ البُيوتِ المُتَهالِكَةِ، تَسيرُ ولا تَتَلَفَّتُ.

أَهْلُ الحارَةِ يَنْتَظِرونَ يَومِيّاً هَذا المَشْهَدَ الَّذي يَسْتَغْرِقُ ثَوانيَ مَعْدوداتٍ، ثُمَّ تَخْتَفِي المَرْأَةُ في بَيْتِها القَدِيمِ المُتَجَدِّدِ.

لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَمْلِكُ شَجاعَةً كافِيَةً لِيُلْقِيَ التَّحِيَّةَ عَلَى المَرْأَةِ، أو عَلَى الأَقَلِّ لِيَسْأَلَ سائِقَ السَّيارَةِ عَنِ السِّرِّ الغامِضِ.

أَصْبَحَتِ المَرْأَةُ حَدِيثَ النّاسِ.

والنّاسُ في لحاراتِ الشَّعْبِيَّةِ يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، يَعِيشونَ في بُيوتٍ كأَنَّها مِنْ زُجاجٍ؛ لِذا كَانَتِ المَرْأَةُ لُغْزاً حَقِيقِيّاً احْتَارَ بِهِ الجَمِيعُ.

مَواعِيدُ دَقِيقَةٌ جِدّاً مِثْلُ رَنَّاتِ السَّاعاتِ السُّويسرِيَّةِ الأَصِيلَةِ، الَّتي باتَ شَبابُ الحارَةِ يَفْتَخِرونَ بِاقْتِناءِ نُسَخٍ مُقَلَّدَةٍ مِنْها، يَتَباهونَ بِحَمْلِها.

المَرْأَةُ تَأْتي إِلى البَيْتِ مَرَّةً في الصَّباحِ، وتَخْرجُ بَعْدَ ساعَةٍ، وأَحْياناً تَأْتي قُبَيْلَ المَغْرِبِ إِلى أَذانِ العِشاءِ، وغالِباً يَوْمَ الخَمِيسِ تَمْكُثُ طوالَ النَّهارِ.

احْتارَ النّاسُ، لَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلَى الاقْتِرابِ مِنْها.

كَانَت تُحْضِرُ خادِمَتَها مَعَها؛ تَأْتِيانِ مَعاً، يَبْقَى السَّائِقُ قُرْبَ السَّيّارَةِ مُنْتَظِراً، يَمْسَحُ زُجاجَها وهَيْكَلَها، يَقْرَأُ كِتاباً.

تَسِيرُ المَرْأَةُ مُحاطَةً بِعلاماتِ الاسْتِفْهامِ، لا تُحَرِّكُ رَأْسَها، لا تَتَكَلَّمُ، تَغِيبُ بِسُرْعَةٍ، كَأَنَّها هارِبَةٌ مِنْ شَيءٍ.

نَسَجَ أَهْلُ الحَيِّ البُسَطاءُ عَن اللُّغْزِ قِصَصاً شَعْبِيَّةً.

العَمُّ أَحْمَدُ ـ صاحِبُ جزارَةِ اللُّحُومِ، أَثْرَى رَجُلٍ في الحارَةِ، وأَكْثَرُ أَهْلِها حِرْصاً عَلَى اكْتِناهِ سِرِّ هَذِهِ المرأة ـ زَوْجَتُهُ ماتَتْ قَبْلَ سَنَواتٍ طَويلَةٍ.

أَوْلادُهُ تَزَوَّجُوا، وخَرَجُوا مِنَ الحارَةِ؛ سَكَنوا العَمائِرَ الحَديثَةَ الَّتي يَقْصدُها المُتَعَلِّمونَ خَوْفاً مِنِ انْكِشافِ أَنَّهُمْ مِنْ أَبْناءِ الحاراتِ والأَزِقَّةِ والأَبْنِيَةِ الشَّعْبِيَّةِ.

العَمُّ أَحْمَدُ فَكَّرَ بِالمَرْأَةِ عَروساً لَهُ؛ بِبَساطَةٍ، بَعْدَ السِّتِّينَ:

ـ لا بَأْس، سِنُّها مُناسِبٌ جِدّاً، تَبْدو شابَّةً، لَكِنَّها بِالتَّأْكِيدِ جاوَزَتِ الأَرْبَعِينَ، أَظُنُّها أَرْمَلَةً. أَكِيدٌ هِيَ أَرْمَلَةٌ.

تَرْتَدِي دائِماً الثِّيابَ الدَّاكِنَةَ، صَحِيحٌ أَنَّها غَنِيَّةٌ، وتَبْدو أَيْضاً مُتَعَلِّمَةً، لَكِنَّ العَمَّ أَحْمَدَ، أَهَمَّ رِجالِ الحارَة، كَلِمَتُهُ كَلِمَةً، الكُلُّ يَحْتَرِمُهُ، ويَهابُهُ.

الحاجُّ فِكْرِيّ ـ حَلَّالُ المَشاكِلِ ـ تَصَوَّرَ المَرْأَةَ غارِقَةً في بَحْرٍ مِنَ الهُمومِ.

إِنَّها صَيْدٌ لِذيذٌ، حَبَّذا لو سَقَطَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَكْشفَ كُلَّ هَذا الهَمِّ الَّذي يَكْسُوها.

يُرِيدُ فِكْرِيّ أَنْ يُزِيلَ عَنِ المَرْأَةِ هَذا الغَمامَ، ويَرَى عَيْنَيْها.

حاوَلَ مَرَّةً الاقْتِرابَ مِنْها، نَظَرَ إِلَيْهِ السَّائِقُ نَظْرَةً مُرْعِبَةً، تَأَمَّلَ عَضَلاتِهِ المَفْتولَةَ، قالَ في نَفْسِهِ:

ـ الهُروبُ ثُلُثا المَرْجَلَةِ.

نِساءُ الحارَةِ أَصابَتْهُنَّ الغَيْرَةُ مِنَ السَّيِّدَةِ المَجْهُولَةِ. بَعْضُهُنَّ حاوَلْنَ التَّلَصْلُصَ عَلَيْها مِنَ النَّوافِذِ المُطِلَّةِ، لَكِنَّهُنَّ فَشِلْنَ، لَمْ تَكُنْ نَوافِذُ البَيْتِ تُفْتَحُ عَلَى الإِطْلاقِ، السَّتائِرُ السَّمِيكَةُ لَمْ تَكُنْ تَتَحَرَّكُ.

حاوَلَ البَعْضُ إِشاعَةَ خَبَرٍ:

ـ المَرْأَةُ سَيِّئَةُ السُّلُوكِ، تَأْتِي بِغَرَضِ المُتْعَةِ الحرامِ، لَكِنَّها لَمْ تَتَجاوَزِ الأَفْواهَ، لَمْ يَرَ أَحَدٌ رَجُلاً عَلَى الإِطْلاقِ يَدْخُلُ البَيْتَ؛ حَتَّى السَّائِق كانَ لا يَدْخُلُ أَبَداً، يَنْتَظِرُ في السَّيَّارَةِ مِثْلَ الحارِسِ الأَمِينِ.

الشَّبابُ تَفَتَّحَتْ أَذْهانُهُمْ عَلَى أَحْلامِ الزَّواجِ بِسَيِّدَةٍ قَوِيَّةٍ غَنِيَّةٍ، تَلَفُّها الأَسْرارُ والأَلْغازُ.

الاسْمُ لا يَهُمُّ، النَّسَبُ لا يَهُمُّ، المُهِمُّ أَنَّها تَمْلِكُ سَيارَةً فَخْمَةً وبَيْتاً رائِعاً في حارَتِهِمُ الشَّعْبِيَّةِ الفَقِيرَةِ. سَوْفَ يُصْبِحُ سَعِيدُ الحَظِّ سَيِّدَ الحارَةِ بلا مُنازِعَ.

شُيوخُ الحارَةِ تَأَسَّفوا عَلَى ضَياعِ شَبابِهِمْ. تَحَسَّروا لأَنَّهُمْ لَمْ يَلْتَقوا سابِقاً بِهَذِهِ المَرْأَةِ الغَرِيبَةِ الآتِيَةِ مِنَ المَجْهُولِ، ورَاحُوا يَتَمَنَّوْنَها لأَوْلادِهِمْ.

الصِّغارُ فَرِحوا بِالسَّيارَةِ الفارِهَةِ؛ يَنْتَظِرونَها كُلَّ يَوْمٍ، يَدورُونَ حَوْلَها، يَرْكُضُونَ وَرَاءَها، يُغَنُّونَ، ويَرْقُصُونَ، ويُصَفِّقُونَ.

السَّيّارَةُ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ عِيدٌ يَوْمِيٌّ، بَلْ صارَتْ كَرْنَفالاً مَجانِياً، يَسْرَحُونَ فِيهِ، ويَمْرَحونَ.

الجَمِيعُ بِلا اسْتِثْناء كانَ مَشْغولاً بِالمَرْأَةِ الغامِضَةِ.

المَرْأَةُ وَحْدها لَمْ تَكُنْ تُفَكِّرُ بِأَحَدٍ، كانَ فِكْرُها مَشْغولاً بِشيءٍ آخَرَ.

ما تَزالُ تَذْكُرُ هَذِهِ المَمَرّاتِ والأَزِقَّةَ والبُيوتَ المُكَدَّسَةَ فَوْقَ بَعْضِها.

يَوْمَ كَانَتْ طِفْلَةً، يَوْمَ طَرَدَها وأُسْرَتَها صاحِبُ البَيْتِ؛ لأَنَّهُمْ لا يَمْلِكُون دُرَيْهِماتٍ قِيمَةَ إِيجارِ غُرْفَةٍ رَطْبَةٍ في أَسْفَلِ المَنْزِلِ تَحْتَ الأَرْضِ، كَانَت تُسْتَخْدَمُ كَمَخْزَنٍ لِلأَشْياءِ المُهْمَلَةِ.

عادَتِ المَرْأَةُ لِتَتَذَكَّرَ ماضِيها.

عادَتْ غَنِيَّةً، بَلْ غَنِيَّةٌ جِدّاً.

النّاسُ لا يَعْرِفونَها، فَكَّروا بِكُلِّ شيءٍ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ ابْنَةَ الرَّجُلِ الفَقِيرِ الَّذي كانَ يَسْكُنُ الغُرْفَةَ الرَّطْبَةَ البَعِيدَةَ عَنِ الشَّمْسِ والهَوَاءِ قَبْلَ نَحْوِ ثَلاثِينَ عاماً.

لَكِنَّها ما عادَتْ لِتَسْكُنَ البَيْتَ، بَلْ لِتَسْكُنَ ماضِيها الأَلِيمَ، لِتَدْفِنَ تَشَرُّدَها وأَهْلِها سَنَواتٍ فَوْقَ الأَرْصِفَةِ، دُونَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْها وعَنْ أَهْلِها أَحَدٌ.

لا العَمُّ أَحْمَدُ، ولا الحاجُّ فِكْرِيّ، ولا حَتَّى واحِدَة مِنْ نِساءِ الحارَةِ، أو شابٌّ مِنْ شَبابِها أو شُيوخُها، كَما يَسْأَلونَ عَنْها اليَوْم لِـ «سَبَب».

كَانَتِ ابْنَةَ ذَلِكَ الفَقِيرِ، ابْنَةَ رَجُلٍ لا يَمْلِكُ شِراءَ لَحْمَةٍ مِنْ جزارَةِ العَمِّ أَحْمَدَ، بَلْ كَانَ يَبْحَثُ عَنْها في حاوِيَةِ القُمَامَةِ.

ولا يَمْلِكُ ثَمَنَ خِياطَةِ ثَوْبٍ عِنْدَ الحاجِّ مَرْعِي، ولا شِراءَ فاكِهَةٍ مِنْ بقالَةِ «الكَرَمِ».

لمْ تُبَدِّدِ المَرْأَةُ الغامِضَةُ أَحْلامَ حارَتِها، لمْ تُوْقِظْها مِنْ نَوْمِها الطَّوِيلِ.

لمْ تَشْتَرِ المَنْزِلَ الكَبِيرَ لِتَسْكُنَ فَيهِ؛ بَلْ كَانَت تَأْتِي لِتُلْقِيَ بِنَفْسِها دَقائِقَ مَعْدوداتٍ في سَرِيرِها القَدِيمِ في الغُرْفَةِ الرَّطْبَةِ؛ الَّتي لا يَصِلُها الهَواءُ ولا الشَّمْسُ.

ظَلَّ أَهْلُ الحارَةِ يَتَكَلَّمونَ ويَتَكَلَّمونَ ويَتَكَلَّمونَ، وظَلَّتِ المَرْأَةُ دَفِينَةَ أَسْرارِها وغُموضِها.

حاضِر سَيِّدِي

لمْ تُظْهِرْ أَيَّ شَكْلٍ مِنْ أَشْكالِ الاعْتِراضِ:

ـ حاضِر سَيِّدِي.

قَالَتْها بِصَوْتٍ مُنْكَسِرٍ، لا تَمْلِكُ حَتَّى أَنْ تُعَبِّرَ في مَلامِحِ وَجْهِها عَنِ الرَّفْضِ.

أَبْدَتِ الإِعْجابَ، وافَقَتْ فَوْراً عَلَى كُلِّ ما قَالَهُ.

في نَفْسِها كُلُّ إِمْكانِيَّاتِ التَّمَرُّدِ، لَكِنَّها امْرَأَةٌ مُحَطَّمَةٌ، أو عَلَى الأَكْثَرِ بَقايا حُطامٍ.

كَانَت أَفْكارُها مُجَمَّدَةً، أَحاسِيسُها مُكَبَّلَةٌ، عُيونُها فاتِرَةٌ، تَمْشِي كَآلَةٍ تُحَرِّكُها أَداةُ التَّحَكُّمِ عَنْ بُعْدٍ:

ـ حاضِر سَيِّدِي.

تَكْفِيهِ هَذِهِ العِبارَةُ، لا يُرِيدُ مِنْها أَكْثَرَ، يَثِقُ بِأَنَّها سَتُنَفِّذُ أَوامِرَهُ بِدِقَّةٍ تامَّةٍ.

يَعْلَمُ أَنَّها تَكْرَهُهُ، وتَوَدُّ لو تَغْرِسُ أَنْيابَها في لَحْمِهِ؛ تُمَزِّقُ جَسَدَهُ بِأَظافِرِها الَّتي تَبْدو لَهُ كَمَخالِبِ نَمِرَةٍ شَرِسَةٍ في قَفَصٍ مِنْ حَديدٍ.

تُعْطِيهِ ظَهْرَها، وَتَمْشِي.

يَرِنُّ جَرَسُ الهاتِفِ، يَقْطَعُ عَلَيْهِ حِبالَ الخَوْفِ؛ هَذا الرُّعْبُ اليَوْمِيُّ الَّذي يَعِيشُهُ دُونَ أَنْ يَجْرُؤَ عَلَى إِنْهائِهِ:

ـ أَهْلاً، كَيْفَ أَحْوالُكِ يا زَنْبَقَتي؟

تُجيبُ بِدلالٍ:

ـ تَوَقَّفْ عَنْ هَذا الكَلامِ، أَنا أَسْتَحِي.

ـ أَنْتِ تَسْتَحِين؟! ها ها ها.

يَضْحَكُ ضِحْكَةً مُجَلْجِلَةً.

ـ هَلْ أَنا زَنْبَقَتُكَ حَقّاً؟

ـ بَلْ أَجْمَلُ وأَحْلَى وأَغْلَى زَنْبَقَةٍ.

ـ آه! أَتَمَنَّى لو أُصَدِّقُكَ.

يَنْتَهِي الحِوارُ بِمَوْعِدٍ مَسائِيٍّ جَمِيلٍ.

يُنادِي المَرْأَةَ:

ـ أُرِيدُ فِنْجانَ قَهْوَةٍ بِسُرْعَةٍ.

ـ حاضِر سَيِّدِي.

لا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِ نَفْسِهِ مِنْ إِهانَتِها، يَعْلَمُ أَنَّهُ مُخْطِئٌ، لَكِنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ التَّوَقُّفَ عَنْ تَصَرُّفاتِهِ الغَرِيبَةِ.

اعْتادَ عَلَى ذَلِكَ، لو أَرادَ الآنَ تَغْيِيرَ أُسْلوبِهِ مَعَها لَعَجزَ، يَظُنُّ أَنَّها اعْتادَتْ هِيَ أَيْضاً، ومَعَ ذَلِكَ كُلَّما رآها خافَ مِنْ أَنْيابِها وأَظافِرِها.

يَظُنُّ أَنَّها سَتَقْضِي عَلَيْهِ يَوْماً ما دُونَ سابِقِ إِنْذارٍ، تَضَعُ حَدّاً لِفَظاظَتِهِ مَعَها.

يَرْفَعُ هاتِفَهُ النَّقَّالَ، يَطْلُبُ سَبْعَةَ أَرْقامٍ مَحْفُوظَةٍ في ذاكِرَةِ الهاتِفِ:

ـ أَلو، رُوحِي.

ـ أَيْنَ أَنْتَ؟ ظَنَنْتُكَ لَنْ تَتَّصِلَ.

ـ اشْتَقْتُ إِلَيْكِ.

ـ أَتَمَنَّى لَوْ أُصَدِّقُكَ.

ـ هَلْ أَنْتِ مَشْغولَةٌ اليَوْمَ؟

ـ آه يا عِفْريت! تَتَذَكَّرُني فَقَط عِنْدَما تُرِيدُ.

ـ لا وَغَلاكِ، أَنْتِ دائِماً في القَلْبِ.

ـ أَتَمَنَّى لو أُصَدِّقُكَ.

ـ السَّاعَة السَّابِعَة في الشَّقَّةِ البَحْرِيَّةِ؟

ـ اجْعَلْهَا الخامِسَةَ، لا أُرِيدُ أَنْ أَتَأَخَّرَ.

ـ اتَّفَقْنا.

تَدْخُلُ المَرْأَةُ، تَحْمِلُ فِنْجانَ القَهْوَةِ، كَانَت تَسْتَمِعُ إِلى المُخابَرَةِ قُرْبَ البابِ.

ـ كَمْ هُوَ وَقِحٌ! أَكْرَهُهُ، أَكْرَهُهُ.

يَرْمُقُها بِعَيْنَيهِ، تَبْدُو عَلَيْهَا حالَةُ الرَّهْبَةِ، لَكِنَّهُ فَظٌّ وغَلِيظٌ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ بِكلامِهِ المَعْسولِ الَّذي تَسْمَعُهُ عَلَى الهاتِفِ.

حَفِظَتْ كُلَّ كَلِماتِهِ المَلِيئَةِ بِالكَذِبِ، تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ النِّساءِ اللَّاتي يُكَلِّمْنَهُ يَعْلَمْنَ أَنَّهُ يَكْذِبُ عَلَيْهِنَّ، وأَنَّهُ يُدْرِكُ أَنَّهُنَّ لا يَسْعينَ إِلَّا لِمالِهِ وهَداياهُ.

تَوَدُّ لو تَقْفِزُ، وتَقْبِضُ عَلَى عُنُقِهِ وتَخْنُقُهُ مَرَّةً واحِدَةً، مَرّاتٍ عَدِيدَةً.

فَكَّرَتْ أَنْ تَفْعَلَ، لَكِنَّها تَخافُ مِنْهُ، تَخافُ مِنْ عَيْنَيْهِ، تَخافُ مِنْ يَدَيْهِ القَوِيَّتَينِ.

كانَ شُعورُ الخَوفِ مُتَبادَلاً. هُوَ يَأْمُرُها، وهِيَ تَقولُ جُمْلَةً مُحَدَّدَةً:

ـ حاضِر سَيِّدِي.

لَمْ تَجْرُؤْ يَوْماً عَلَى الرَّفْضِ.

تَتَمَنَّى لو تَسْحَقُهُ، تُدَمِّرُهُ، تُمَزِّقُ أَمْعاءَهُ.

يَرِنُّ الهاتِفُ في جَيْبِهِ:

ـ مَنْ؟ آه! حَبِيبَتي!

ـ لَمْ تَعْرِفْ صَوْتي؟! يا مُحْتال!

ـ لا، لا، عَرَفْتُكِ مُنْذُ رَنَّ الهاتِفُ.

ـ أَنْتَ كَذّابٌ خَفِيفُ الظِّلِّ. لَمْ تَتَّصِلْ بي مُنْذُ فَتْرَة؟

ـ مَشْغولٌ جِدّاً

ـ كَيْفَ أَحْوالُكَ؟ لَقَدْ وَعَدتَني بِإِسْوارَةِ ذَهَبٍ، ومُنْذُ وَعْدِكَ لي لَمْ أَرَكَ.

ـ إِنَّها جاهِزَةٌ، سَأَتَّصِلُ بِكِ عِنْدَما أَفْرُغُ مِنْ عَمَلي.

ـ أَنْتَ كَذّابٌ، كَذّابٌ، لَكِنَّكَ كَذّابٌ لَطِيفٌ. عَلَى أَيِّ حالٍ، لا بَأْسَ! لَقَدْ قَضَينا وَقْتاً مُمْتِعاً، وسَأَنْتَظِرُكَ حَتَّى تَمَلَّ مِنَ الأُخْرَياتِ.

ـ باي.

سَمِعَتِ الحِوارَ مِنْ خَلْفِ البابِ. تَعْلَمُ أَنَّهُ لا يَصْدُقُ مَعَ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ.

هَكَذا حَياتُهُ. لَنْ يَتَغَيَّرَ، فلِمَاذَا تَظَلُّ عَلَى أَمَلٍ؟

يَأْمُرُ، فَتَسْتَجِيبُ لأَمْرِهِ دونَ أَيِّ كَلامٍ؟

فَظٌّ مَعَها، لَكِنَّها سَعِيدَةٌ، وهُوَ لا يَسْتَطِيعُ التَّخَلِّي عَنْها لِسِرٍّ لا يَعْرِفُهُ.

نَصَحَتْها صَدِيقَتُها أَنْ تَتَجَمَّلَ لَهُ، أَنْ تُوْقِعَهُ في حُبِّها.

تَقولُ:

ـ هَذا الرَّجُلُ لَيْسَ لَهُ قَلْبٌ. التِّجارَةُ جَعَلَتْهُ يَتَعامَلُ مَعَ النّاسِ بِالحِسابِ. حَياتُهُ كُلُّها بَيْعٌ وشِراءٌ ونِساء.

ومَعَ ذَلِكَ كانَ في قَلْبِها شَيءٌ مِنْ أَمَلٍ.

تَوَتَّرَتْ، لَمْ تَسْتَطِعِ الصُّمُودَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَرَّرَتْ تَرْكَ العَمَلِ، والبَحْثَ عَنْ عَمَلٍ جَديدٍ.

فَجْأَةً، انْقَطَعَتْ، ذَهَبَتْ دُونَ أَنْ تُخْبِرَهُ بِأَنَّها ذاهِبَةٌ.

شَعَرَ بِفَراغٍ كَبِيرٍ.

انْقَطَعَ عَنْ كُلِّ اتِّصالاتِهِ، اشْتَرَى خَطَّ هاتِفٍ جَديدٍ، مَنَعَ سكرتيرتَهُ الجَديدَةَ مِنْ تَحْويلِ المُخابراتِ النِّسائِيَّةِ إِلَيْهِ.

ضَاقَتْ نَفْسُهُ، لَمْ يَصَدِّقْ ما حَدَثَ لَهُ، بَحَثَ عَنْها في كُلِّ مَكانٍ. لَمْ تَتْرُكْ عُنْوانَها، ولا رَقَمَ هاتِفِها.

أَخِيراً، وَجَدَها.

كَلَّفَ كَثيراً مِنَ النّاسِ البَحْثَ عَنْها.

وَجَدَها في بَيْتٍ فَقِيرٍ بَعِيْدٍ في أَطْرافِ ضاحِيَةِ المَدِينَةِ.

قَالَتْ:

ـ لَيْسَ عِنْدِي ما تَبْحَثُ عَنْهُ. اذْهَبْ إِلى هَؤُلاءِ اللَّاتي يَتَّصِلْنَ بِكَ.

جَثا أَمامَها :

ـ أَعْتَذِرُ.

أَظْهَرَ كُلَّ الخَوفِ الَّذي كانَ يَشْعُرُ بِهِ. أَبْدَى كُلَّ الرُّعْبِ الَّذي يَضْمُرُهُ.

لم تُصَدِّقْهُ.

أَقْسَمَ أَنَّهُ صادِقٌ.

أَخِيراً أَدْرَكَ سِرَّ المَرْأَةِ الَّتي كَانَتْ تَسْتَمِعُ إِلَيْهِ وتَقولُ: «حاضِر سَيِّدِي».

الآن صارَ يَقولُ لها :

ـ حاضِر يا زَوجَتي الغالِيَة.

حُزْمَةُ المالِ

ـ انْتَظِرْ حَتَّى يَأْتي دَورُكَ، لَمْ يَحِنِ الأَوَانُ بَعْدُ، أَلا يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَحَلَّى بِشَيءٍ مِنَ الصَّبْرِ؟!

مُنْذُ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ، وهُوَ يَسمَعُ هَذِهِ الكَلِماتِ في كُلِّ مَرَّةٍ يُراجِعُ فَيْها المَشْفَى الحُكُومِيَّ؛ حَتَّى مَلَّ التّكْرارَ، ورَتابَةَ الانْتِظارِ.

جَلَس أَكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ في الزِّيارَةِ الأَخِيرَةِ، رِجْلاهُ لَمْ تَعُودا كَما كَانَتا في المَضِي؛ المَرَضُ نَخَرَ حَتَّى عِظامَهُ.

قَعَدَ مُنْتَظِراً قُدومَ الكاتِبِ، بَعْدَ أَنْ قِيلَ لَهُ أَنَّهُ ذَهَبَ لِيَقْضِيَ حاجَتَهُ، لَكِنْ يَبْدو أَنَّهُ ذَهَبَ إِلى أَبْعَد دَورَةِ مِياهٍ في المَدِينَةِ.

ـ بِاللهِ عَلَيكَ يا بُنَيَّ، أَلَمْ يَحِنْ دَوْري بَعْدُ؟ أَنا تَعْبان، تَعْبان.

قَالَها بِحَسْرَةٍ، وكَأَنَّهُ يَعْرِفُ الجوابَ مُسْبَقاً.

نَظَرَ الكاتِبُ لِلرَّجُلِ بِاسْتِعْلاءٍ شَديدٍ:

ـ أَلا تَفْهَمُ؟! أَلا تَسْتَوْعِبُ الكَلامَ؟! أَنْتَ تَحْتاجُ إِلى عَمَلِيَّةٍ جِراحِيَّةٍ كَبِيرَةٍ، هُناكَ عَشَراتٌ مِثْلُكَ يَنْتَظِرونَ.

ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنْهُ هامِساً في أُذُنِهِ:

ـ كُلُّ شَيءٍ مُمْكِنٌ بِثَمَنٍ، فَانْظُرْ كَمْ تُساوِي حَياتُكَ؟

هَمَّ الرَّجُلُ بِضَرْبِهِ بِقَبْضَةِ يَدِهِ الواهِنَةِ، لَكِنَّهُ تَراجَعَ، وقالَ:

ـ كَمْ أَيُّها الحَقِيرُ؟

ـ ادْفَعْ ما تَظُنُّهُ قِيْمَةَ حَياتِكَ.

ثُمَّ مَضَى، ودَخَلَ غُرْفَتَهُ، وأَغْلَقَ البابَ يَبْتَسِمُ ابْتِسامَةً عَرِيضَةً.

خَرَجَ الرَّجُلُ حَيْرانَ أَسِفاً؛ مِنْ أَيْنَ يَأْتي بِالمالِ؟ لَقَدْ حَذَّرَهُ الطَّبِيبُ آخِرَ مَرَّةٍ مِنْ خُطورَةِ حالَتِهِ الصِّحِّيَّةِ، وأَنَّ دَقّاتِ قَلْبِهِ سَتَتَوَقَّفُ عَنِ النَّبْضِ في أَيِّ لَحْظَةٍ إِنْ لَمْ تُجْرَ لَهُ عَمَلِيَّةٌ جِراحِيَّةٌ سَرِيعَةٌ.

مِنْ أَيْنَ يَأْتي بِالمالِ لِيُرْضِيَ ذَلِكَ الكاتِبَ الجَشِعَ؟

فَكَّرَ قَلِيلاً، لَيْسَ لَدَيْهِ خَياراتٌ، لا يَمْلِكُ سِوَى شقَّةً قَدِيمَةً في حَيٍّ فَقِيرٍ؛ لا تُساوِي إِلَّا قِيمَةً تافِهَةً مِنَ المالِ، لَكِنْ لَيْسَ بِاليَدِ حِيْلَةٌ، لَمْ يَعُدْ هُنالِكَ مَجالٌ لِلتَّأْجِيلِ.

قادَتْهُ قَدَماهُ بِصعُوبَةٍ إِلى سِمْسارِ الحَيِّ، وَعَدَهُ السِّمْسارُ خَيْراً بَعْدَ أَنْ شَرَحَ لَهُ ظُروفَهُ.

وبَعْدَ أَيّامٍ جاءَ المُشْتَرِي، وبِيَدِهِ كِيسٌ فِيهِ حزْمَةٌ رَقِيقَةٌ مِنَ المالِ، فَوَقَّعَ عَلَى بَيْعِ شقَّتِهِ، وحَمَلَ الكِيسَ، وتَوَجَّهَ إِلى المَشْفَى:

ـ هَذِهِ المَرَّةُ لَنْ أَعودَ خائِباً، سَوْفَ أَحْصُلُ عَلَى مَوْعِدٍ بِأَسْرَعِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ، سَأَدْفَعُ لَهُ المَبْلَغَ كامِلاً، المُهِمُّ أَنْ تُجْرَى العَمَلِيَّةُ.

قَطَعَ الطَّرِيقَ مِنْ بَيْتِهِ المُباعِ إِلى المَشْفَى بِمُدَّةٍ قِياسِيَّةٍ، فَبَعْدَ أَنْ كَانَتِ المَسافَةُ تَسْتَغْرِقُ نَحْو السَّاعَةِ، وَصَلَ في أَقَلّ مِنْ نِصْفِ ساعَةٍ، أَسْرَعَ إِلى غُرْفَةِ الكاتِبِ لِيَرْمِيَ الكِيسَ في وَجْهِهِ، ويَنْتَزِعَ المَوْعِدَ القَرِيبَ.

فَجْأَةً، مُوَظَّفٌ آخَرُ يَجْلِسُ في مَكانِهِ، إِنَّهُ الموظَّفُ الجديدُ.

سَأَلَ عَنِ المُوَظَّفِ القَدِيمِ، فَقالَ لَهُ:

ـ لَقَدْ فارَقَ الحَياةَ قَبْلَ أَكْثَرَ مِنْ أُسْبوعَيْنِ، صَدَمَتْهُ سَيارَةٌ أَمامَ مَدْخَلِ المَشْفَى، وتُوُفِّيَ عَلَى الفَوْرِ. رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ. الآن، قُلْ لي ماذا تُريدُ؟

ـ اسْمِي جَمال السَّيِّد، لي طَلَبٌ قَديمٌ.

ـ مَرْحَباً بِكَ يا سَيِّدِي، أَيْنَ كُنْتَ؟ لِمْ تَتْرُكْ عُنْوانَكَ؟ إِنَّنا نَبْحَثُ عَنْكَ مُنْذُ أُسْبوعٍ.

لَقَدْ عَثَرْنا عَلَى أَوْراقِكَ في أَحَدِ الأَدْراجِ، يَبْدُو أَنَّها كَانَتْ ضائِعَةً.

لَقَدْ قُدِّمَتْ إِلى لِجْنَةٍ مُخْتَصَّةٍ، فَوَافَقَتْ عَلَى إِجْراءِ العَمَلِيَّةِ، وتمَّ تَحْديدُ المَوْعِدِ خِلالَ الأُسْبوعِ المُقْبِلِ. يَجِبُ أَنْ تَدْخُلَ المَشْفَى حالاً.

سَقَطَ الرَّجُلُ أَرْضاً مِنْ هَوْلِ المُفاجَأَةِ.

بَعْدَ أُسْبُوعَينِ مِنَ العَمَلِيَّةِ، غادَرَ المَشْفَى، وعادَ إِلى مُزاوَلَةِ عَمَلِهِ.

اسْتَأْجَرَ مَنْزِلاً جَديداً، وظَلَّ دائِماً يَتَرَحَّمُ عَلَى الكاتِبِ القَديمِ.

صَدِيقِي

كُنْتُ أَبْلَعُ رِيقِي حالَ مُخاطَبَتي إِيّاهُ، مُتَلَمِّساً أَطْرافَ أَنامِلِي، مُراقِباً كَلِماتِهِ المُرْسَلَةَ بِتَأَدُّبٍ شَديدٍ، واخْتِيارٍ حَرِيصٍ؛ خِلافَ غَيْرِهِ مِنَ الأَصْدِقاءِ، وأَظَلُّ مُبْتَسِماً مَهْما تَداعَتِ الخُطوبُ، خَشْيَةَ اسْتِفْزازِهِ، وانْتِشالِهِ مِنْ لَحَظاتِ الهُدوءِ النّادِرَةِ الَّتي كُنْتُ أَعْشَقُها وأَعْرِفُها كَخَبِيرٍ مُحَنَّكٍ، يُمَيِّزُ بَيْنَ الماسِ الحَقِيقِيِّ والمُزَيَّفِ.

عَرَفْتُهُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيْدٍ، لا أَدْرِي مَتَى تَحْديداً، رُبَّما مِنْ ثَلاثِينَ سَنَةً، رُبَّما أَكْثَر؛ حَتَّى أَنِّي نَسيتُ كَيْفَ الْتَقَينا، وفي أَيِّ مُناسَبَةٍ، ولِمَاذَا أُغْرِقْتُ في وُدِّ هَذا المَصْقولِ بِالتَّجارِبِ، الزَّاخِرِ بِالخَفايا.

كانَ صَديقِي القَرِيبَ، وكُنْتُ صَدِيقَهُ الوَحِيدَ.

بَقيتُ صامِداً رَغْمَ انْفِضاضِ الكُلِّ عَنْهُ، وتَأَرْجُحِهِ في دَوّامَةٍ مِنَ الحِدَّةِ؛ تَفَشَّتْ في نَفْسِهِ بِوُضوحٍ، طَبْعٌ أَصِيلٌ، لا يَنْفَكُّ عَنْهُ في أَفْضَلِ الظُّروفِ والمَواقِعِ.

عَصَبِيَّتُهُ الزَّائِدَةُ فَتّاكَةٌ؛ نَسَفَتْ كُلَّ الأَشْياءِ الجَمِيلَةِ الَّتي يُخْفِيها تَحْتَ كَوْمَةٍ مِنَ الأَشْواكِ المُسَنَّنَةِ الحادَّةِ.

عاشَ حَياتَهُ مُتَناقِضاً، لا يُمْكِنُ أَنْ تَفْهَمَ ما يُريدُ.

ساعَةً تَراهُ مُحِبّاً طَيِّباً لَيِّناً، مُسْتَعِدّاً لِلتَّنازُلِ عَنْ كُلِّ ما يَمْلِكُ لِقاءَ ابْتِسامَةٍ يَتَلَقّاها رَضِيَّةً مِنْ مُحْتاجٍ.

فَجْأَةً، دُونَ إِنْذارٍ أو سَبَبٍ مَفْهومٍ، يَنْقَلِبُ قاطِعاً خُيوطَ التَّماسِ، وغالِباً ما قَذَفَ بَعْضاً مِمَّنْ يَكونُ حَوْلَهُ بِكَأْسِ ماءٍ أو مِلْعَقَةٍ أو بِجِهازِ هاتِفِهِ النَّقّالِ، لِسَبَبٍ أو لِغَيْرِ سَبَبٍ.

ورَغْمَ هَذا أَحْبَبْتُهُ بِصِدْقٍ. رُبَّما أَكْثَر مِنْ زَوْجَتِهِ وأَوْلادِهِ الَّذينَ فَرّوا يائِسِينَ خائِفِينَ.

عِيْلَ صَبْرُهُمْ، فَتَرَكوهُ يُمارِسُ هِوايَةَ القَسْوَةِ، وكَأَنَّهُ يَتَلَذَّذُ عِنْدَما يُمْعِنُ حَتَّى الإِضْرارِ.

نَعَم أَحْبَبْتُهُ، لامَني النّاسُ عَلَى مَحَبَّتي؛ حَتَّى زَوْجَتي، فَالأَمْرُ لَمْ يَكُنْ بِيَدِي، كُنْتُ أَتَنازَلُ عَنْ رَأْيِي الَّذي أَعْتَبِرُهُ صائِباً، وأَتَخَلَّى عَنْ كِبرِيائي واعْتِزازِي بِنَفْسِي أَمَامَهُ؛ لأَنِّي أَحْبَبْتُهُ بِصِدْقٍ، وآمَنْتُ بِطِيبِ مَعْدِنِهِ، ولو بدا لِلنّاسِ غَيْرَ ذَلِكَ.

في البِدايَةِ، حاوَلْتُ جاهِداً ثَنْيَهُ عَنْ عَصَبِيَّتِهِ الفَرِيدَةِ مِنْ نَوْعِها، ثُمَّ تَراجَعْتُ.

مَرَّةً، قُلْتُ لَهُ مُسْتَغِلاً لَحْظَةَ صَفاءٍ عارِضَةً:

ـ الغَضَبُ مَطِيَّةُ الضُّعَفاءِ.

انْقَضَّ عَلَيَّ، كادَ يُهَشِّمُ رَأْسِي لولا فراري مِنْ أَمَامِهِ فرارَ «الشُّجْعانِ».

وما زِلْتُ أَذْكُرُ ذَلِكَ النَّادِلَ المِسْكِينَ الَّذي كَسَرَ عَظْمَ يَدِهِ؛ لأَنَّهُ أَوْقَعَ عَلَى ثَوْبِهِ الجَديدِ القَلِيلَ مِنَ الحساءِ السَّاخِنِ، فَقَعَدَ في جَبِيرَتِهِ لأَيّامٍ، فِيما حَلَّ صَدِيقِي ضَيْفاً عَلَى السِّجْنِ، إِلى أَنْ رَفَقَ بِهِ النّادِلُ، وتَنازَلَ عَنْ حَقِّهِ بَعْدَ إِلْحاحٍ ورَجاءٍ وتَعْويضٍ مُجْزٍ مِنِّي.

كانَ سِرّاً. لا لِشيءٍ إِلَّا مَخافَةَ أَنْ يُصِيبَني ما أَصابَ النَّادِلَ المِسْكِينَ.

لَمْ أَفْهَمْهُ يَوْماً، رُبَّما لِقُصورٍ في نَفْسِي! ورُبَّما لِعَجْزٍ!

لَكِنْ هَلْ كُلُّ الَّذينَ كانوا يُحِيطونَ بِهِ عاجِزونَ مِثْلِي؟ لَسْتُ أَدْرِي!

كانَ يَفْعَلُ المُسْتَحِيلَ مِنْ أَجْلِ إِنْفاذِ حاجَةٍ لإِنْسانٍ، وإِنْ كانَ لا يَعْرِفُهُ، فَقَدْ كانَ خَدوماً إِلى أَبْعَدِ الحُدودِ، كُنْتُ مُعْجَباً كَثِيراً بِإِصْرارِهِ الفَرِيدِ عَلَى فِعْلِ المُسْتَحِيلِ.

لا يَتَرَدَّدُ في الدُّخولِ إِلى مَكْتَبِ مَسؤولٍ كَبيرٍ، وحَتَّى وزيرٍ مِنْ أَجْلِ حَلِّ مُشْكِلَةِ إِنْسانٍ تَعَرَّف إِلَيْهِ قَبْلَ لَحَظاتٍ، ورُبَّما عَلَى بابِ المَسْؤولِ نَفْسِهِ.

نَعَم، أَحْبَبْتُهُ، رَغْمَ كُلِّ عَصَبِيَّتِهِ؛ لأَنَّهُ كانَ صادِقاً في كُلِّ شَيءٍ؛ حَتَّى في غَضَبِهِ وعُنْفُوانِهِ وثَوْرَتِهِ.

اليَوْمَ صَباحاً، وَدَّعْتُهُ لِلْمَرَّةِ الأَخِيرَةِ، غادَرَني رَغْمَ أَنِّي كُنْتُ لَصِيقاً بِهِ عَلَى عَكْس إِرَادَتِهِ.

وَدَّعْتُهُ مِنْ نافِذَةٍ تُرابِيَّةٍ أُغْلِقَتْ عَلَيْهِ بِهدوءٍ دُونَ أَنْ يَعْتَرِضَ كَعادَتِهِ.

رَافَقْتُهُ وَحْدي، وبَعْضُ البُسَطاءِ الَّذينَ لا يَعْرِفونَهُ؛ حَتَّى أَقارِبه لَمْ يَأْتِ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

تَرَكْتُهُ هُناكَ، تَحْتَ الرِّمالِ الرَّطْبَةِ.

فَوْقُهُ شاهِدٌ صَغِيرٌ، أَكَّدْتُ لَهُ أَنَّني سَأَزُورُهُ مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ، مُتَفَقِّداً ومُسْتَذْكِراً أَيَّامَهُ الَّتي لا تُنْسَى، مُوصِياً بِمَكانٍ يَكونُ لي قَرِيباً مِنْهُ.

واليَوْمَ، وَرِثْتُ عَنْهُ العَصَبِيَّةَ.

أَصْبَحْتُ وَحِيداً رَغْمَ كَثْرَةِ الَّذينَ هُمْ حَوْلِي.

والآنَ فَقَط ـ بَعْدَما لَمْلَمَ أَوْرَاقَهُ، وتَرَكَنِي في وحْدَتي ـ فَهِمْتُهُ.

نَعَم، فَهِمْتُهُ، رُبَّما أَبْلَغ ممَّا أَفْهَمُ نَفْسِي.

البِنْتُ المَقْدِسِيَّةُ

إِكْرامٌ ابْنَةُ قَرْيَةٍ مَقْدِسِيَّةٍ قَدِيمَةٍ مُحْتَلَّةٍ، جَدُّها مَسْعُودٌ لَمْ يَنْزَحْ مِنْ قَرْيَتِهِ قَبْلَ سَنَواتٍ طَويلَةٍ، رَغْمَ أَنَّهُمْ طَرَدوهُ مِنْ بَيْتِهِ وأَرْضِهِ.

فَضَّلَ أَنْ يَبْقَى يَفْلحُ تُرابَهُ ويَزْرَعُهُ، وإِنْ كانَ يَخْدُمُ مَنِ اغْتَصَبَ بَيْتَهُ وبُسْتانَهُ، فَقَدْ كانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ لا يَخْدمُهُ هُوَ، بَلْ يَخْدمُ الأَرْضَ الَّتي يُحِبُّها، ويَعْرِفُ كُلَّ حَبَّةِ رَمْلٍ فِيْها.

لَمْ يَكُنْ جَدُّ إِكْرام يَفْهَمُ بِالسِّياسَةِ ولا بِالعَسْكَرِ.

كانَ مُتَدَيِّناً بَسِيطاً، صَحِيحٌ أَنَّهُ كانَ يُصَلِّي ويَصومُ ويَحْفَظُ آياتٍ كَثيرَةً مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ إِلَّا بِالزَّرْعِ والحَصادِ.

وبِالرَّغْمِ مِنْ مَعِيشَتِهِ الصَّعْبَةِ، وما ذَاقَهُ مِنَ المُحْتَلِّينَ مِنْ آلامٍ وجِراحٍ، رَضِيَ العَيْشَ في خِدْمَةِ المُحْتَلِّ، ولو دُونَ بَيْتٍ.

فَهُوَ يُفَضِّلُ النَّومَ في ظلِّ شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجارِهِ؛ الَّتي زَرَعَها بِيَدَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْحَلَ ويَعِيشَ في قَصْرٍ مِنَ القُصورِ.

إِكْرام الصَّغِيرةُ لَمْ تَعْرِفْ جَدَّها إِلَّا بِسَماعِ قِصَصٍ عَنْهُ.

اسْتَشْهَدَ قَبْلَ وِلادَتِها بِأَعْوامٍ. لَمْ يُقْتَلْ في مَعْرَكَةٍ ضِدَّ المُحْتَلِّ، ولا في تَظاهُرَةٍ، ٱو حَتَّى مُجَرَّد اعْتِراضٍ.

قَتَلَهُ ابْنُ مُغْتَصِبِ أَرْضِهِ الَّتي وَرِثَها عَنْ أَجْدادِهِ.

قَتَلَهُ الصَّبِيُّ بَعْدَ أَنْ أَهْداهُ أَبوهُ بُنْدِقِيَّةً جَديدَةً بِمُناسَبَةِ بُلُوغِهِ العاشِرَة مِنْ عُمُرِهِ.

أَرَادَ الصَّبِيُّ أَنْ يُجَرِّبَ بُنْدُقِيَّتَهُ الجَديدَةَ، وبَدلاً مِنْ أَنْ يُجَرِّبَها عَلَى عُصْفورٍ أو فَأْرٍ أو حَتَّى صرصارٍ، صَوَّبَ بُنْدُقِيَّتَهُ نَحْوَ قَلْبِ الجَدِّ مَسْعودٍ.

كانَ مَسْعودٌ يَفْلحُ الأَرْضَ، ويَسْقِيها عَرَقَهُ.

رَفَعَ مَسْعودٌ مِعْوَلَهُ إِلى الأَعْلَى لِيَهْوِيَ بِهِ نُزولاً يَشُقُّ الأَرْضَ، فَاجَأَتْهُ طَلَقَةُ البُنْدُقِيَّةِ في قَلْبِهِ مُباشَرَةً.

تَعْرِفُ إِكْرامٌ قَبْرَ جَدِّها، تَحْمِلُ إِلَيْهِ مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ عُوداً أَخْضَرَ، تَغْرسُهُ في تُرابِ القَبْرِ، تَقْرَأُ الفاتِحَةَ، وتَدْعُو لَهُ ولِنَفْسِها ولأُسْرَتِها، ثُمَّ تُغادِرُ كَما جاءَتْ، وعَلَى كَتِفِها شَنْطَةُ المَدْرَسةِ.

والِدُ إِكْرامٍ يَحْمِلُ جِنْسِيَّةَ المُحْتَلِّ غَصْباً عَنْهُ، فلمْ يَكُنْ أَمامَهُ خَيارٌ: إِمّا الإِذْعانُ أو الرَّحِيلُ.

جَدَّةُ إكرام ـ أَرْمَلَةُ مَسْعودٍ ـ رَفَضَتِ الاثْنَينِ؛ حَبَسَتْ نَفْسَها في كُوخٍ مُتَهالِكٍ، قَرَّرَتِ المَوْتَ في قَرْيَتِها لِتُدْفَنَ قُرْبَ زَوجِها الشَّهيدِ.

عاشَتِ الأُسْرَةُ حَياةً بَسِيطَةً جِدّاً، في حَيٍّ تُحِيطُ بِهِ مَساكِنُ المُحْتَلِّينَ كَالسِّوارِ بِالمِعْصَمِ.

لمْ تَكُنْ إِكْرامٌ تَعْرِفُ الكَراهِيةَ، كَانَتْ ـ مِثْلَ جَدِّها ـ مُولَعَةً بِالأَرْضِ.

في مَدْرَسَتِها طالِباتٌ كَثيراتٌ يُشْبِهْنَها تَماماً، لِكُلِّ واحِدةٍ مِنْها قِصَصٌ تَحْكِيها.

هُنَّ يَشْعُرْنَ أَنَّهُنَّ أَسْعَدُ حَظّاً مِنْ نَظِيراتِهِنَّ البَناتِ؛ اللّاتي بِمِثْلِ سِنِّهِنَّ، ويَعِشْنَ خارِجَ الوَطَنِ، أو تَحْتَ قَصْفِ الاحْتِلالِ وإِرْهابِهِ في ما تَبَقَّى مِنْ وَطَنٍ.

كَانَتْ هِيَ أَيْضاً تَظُنُّ أَنَّها مَحْظوظَةٌ لِبَقائِها في أَرْضِ الوَطَنِ، بَلْ أَكْثَر حَظّاً؛ لأَنَّها قَرِيبَةٌ إِلى قَبْرِ جَدِّها، وتَسْكُنُ داخِلَ قَرْيَتِها الَّتي كَانَتْ.

هِيَ تَذْهَبُ إِلى المَدْرَسةِ، وهُنَّ قَدْ لا يَذْهَبْنَ، ويَعِشْنَ ظُروفاً قاسِيَةً.

هِيَ تَعِيشُ في أَمانٍ مُصْطَنَعٍ، وهُنَّ يَعِشْنَ في ساحاتِ الدَّمِ؛ لَكِنَّها لَمْ تَشْعُرْ بِالأَمْنِ التَّامِّ، فَكُلُّ ما هُوَ عَرَبِيٌّ حَذِرٌ عَلَى الدَّوامِ.

تَفَتَّحَتْ إِكْرامٌ عَلَى هَذا المَشْهَدِ.

أَقْصَى مَكانٍ تَذْهَبُ إِلَيْهِ هُوَ المَدْرَسَةُ في الصَّباحِ، والعَوْدَة إِلى البَيْتِ ظُهْراً.

تَحْرِصُ عَلَى الذّهابِ والعَوْدَةِ مُسْرِعَةً، تُهَرْوِلُ جَانبَ الحائِطِ، وتَدْخُلُ البَيْتَ، ولا تَخْرُجُ إِلَّا عِنْدَ الضَّرورَةِ، وأَحْياناً تَذْهَبُ إِلى جارَتِها مَرْيَمَ؛ الَّتي تَسْكُنُ الحَيَّ نَفْسَهُ؛ لِتُراجِعَ لها دُروسَها، وتَشْرَحَ لَها ما غَمُضَ عَلَيْها في دِراسَتِها.

ومَرْيَمُ في الحَقِيْقَةِ، لَيْسَتْ مُدَرِّسَةً، لَمْ تَكُنْ تَعْمَلُ في مَدْرَسةٍ، ولَمْ تَكُنْ تَعْمَلُ أَبَداً.

حاوَلَتْ مِراراً أَنْ تَجِدَ عَمَلاً، لَكِنْ ماذا تَفْعَلُ بِأَطْماعِ أَصْحابِ العَمَلِ؟

عِنْدَما كَانَت تَقولُ لَهُمْ:

ـ عَيْبٌ، عَيْبٌ.

يَضْحَكُونَ، ويَطْرُدُونَها، قائِلِينَ بِلَكْنَةٍ عَرَبِيَّةٍ سَخِيفَةٍ:

ـ (ها ها. رُوح حَبيبي رُوح، دَوِّر لَك عَ مَكان تاني).

لِذَلِكَ قَعَدَتْ مَرْيَمُ في البَيتِ تُعَلِّمُ أَبْناءَ الحَيِّ وبَناتِهِ، تُعْطِيهِمْ دُروساً خُصوصِيَّةً مُقابِلَ أَجْرٍ زَهِيدٍ، لَكِنَّهُ يَبْقَى أَفْضَل بِمِلْيونِ مَرَّة مِنْ مُوافَقَةِ أَصْحابِ العَمَلِ هَؤُلاءِ عَلَى طَلَباتِهِمْ.

في المَساءِ، وقُبَيلَ نَوْمِها، تَفْتَحُ إِكْرامٌ نافِذَتَها الصَّغِيرةَ، تَتَمَدَّدُ عَلَى السَّرِيرِ، تَرْمِي بِبَصَرِها إِلى السَّماءِ، تَتَأَمَّلُ النُّجُومَ المُنْتَشِرَةَ مِثْلَ حَبَّاتِ لُؤْلُؤٍ حَوْلَ القَمَرِ.

حَيُّ إِكْرامٍ لا يَنْعُمُ بِالأَمْنِ التَّامِّ مِثْل سائِرِ الأَحياءِ الَّتي تُحِيْطُ بِهِ، تُشَكِّلُ تِلْكَ الأَحياءُ حالَةَ رُعْبٍ.

لَمْ يَكُنْ يَمُرُّ يَوْمٌ دُونَ أَنْ يَعْبَثَ أَحَدٌ بِالحَيِّ، زُجاجٌ يتَطايَرُ، سَيارات تُضْرَبُ بِالحِجارَةِ، بُيوت تَتَعَرَّضُ لِلسَّطوِ، طِفْلٌ يُشَجُّ رَأْسُهُ بِضَرْبَةِ عَصَا.

القَمَرُ وَحْدهُ صَدِيقُ إِكْرامٍ، لَيْسَ هُنالِكَ أَصْدِقاء، أَبَواها مَشْغولانِ عَلَى الدَّوامِ، جَدَّتُها الكَبيرَةُ بِالسِّنِّ لا تَسْتَطِيعُ الكَلامَ، وغالِباً ما تكونُ نائِمَةً.

أَبوها وأُمُّها يَعْمَلانِ عِنْدَ تاجِرٍ مُحْتَلٍّ؛ يَعْملانِ عِنْدَهُ مِثْل عَبْدَيْنِ طائِعَينِ، ولا يَسْتَطيعانِ الاعْتِراضَ، فَالجِنْسِيَّةُ الوَهْمِيَّةُ لا تُؤَمِّنُ أَيَّةَ حِمايَةٍ.

أَذْعَنا لِلْواقِعِ كَيلا يَكُونَ مَصِيرُهُما مِثْل جَدِّها المِسْكِينِ أو الرَّحِيلَ.

لَمْ تَكُنْ إِكْرامٌ تَجِدُ مُسَلِّياً غَيرَ القَمَرِ، تَبْحَثُ في المَساءِ عَنْ إِذاعاتٍ عَرَبِيَّةٍ، ومَحَطَّاتٍ عَرَبِيَّةٍ، لَكِنَّها تُخْفِضُ الصَّوْتَ كَيْلا يَسْمَعَ أَحَدٌ مِنَ الخارِجِ.

تُراقِبُ حَياةَ أَطْفالِ العَرَبِ؛ كَيْفَ يَعِيشُونَ وكَيْفَ يَنْعمونَ.

ثُمَّ تَنْظُرُ لِلْقَمَرِ، تَحْلُمُ بِالحَياةِ ولِلحياةِ، لَمْ تغْلِقْ عَيْنَيْهَا، وتَنامُ عَلَى حُلُمٍ جَديدٍ.

وفي عَصْرِ يَوْمٍ يَسْبقُ امْتِحاناً مَدْرسِيَّاً مُهِمَّاً، ذَهَبَتْ إِكْرامٌ إِلى مَرْيَمَ.

تَأَخَّرَتْ إِكْرامٌ في بَيْتِ مَرْيَمَ، كَانَتِ الدُّروسُ كَثيرَةً، وتَحْتاجُ إِلى شَرْحٍ.

مَضَى الوَقْتُ بِسُرْعَةٍ، لَمْ تَنْتَبِهْ إِكرامٌ إِلَّا بَعْدَ مُضِيِّ وَقْتٍ طَويلٍ.

بَقِيَتْ إِكْرامُ في مَنْزِلِ مَرْيَمَ؛ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ.

ولَمْ تَكُنْ تَتَأَخَّرُ يَوْماً، رَجَتْها مَرْيَمُ أَنْ تَبْقَى عِنْدَها اللَّيْلَةَ، خافَتْ عَلَى أَبَوَيْها، سَتَبْكِي أُمُّها إِنْ لَمْ تَعُدْ إِلى البَيْتِ، سَتَظُنُّ أَنَّ عِصابَةً خَطَفَتْها.

وما أَكْثَرَ مِثْلَ هَذِهِ العِصاباتِ.

خافَتْ مِنْ أَنْ يَخْرُجَ أَبُوها وأُمُّها لِلْبَحْثِ عَنْها، فَتُؤْذِيهما تِلْكَ العِصاباتُ.

قَرَّرَتِ الخُرُوجَ فَوْراً، والسَّيْرَ قُرْبَ الحائِطِ عَلَى الطَّرَفِ الثّاني؛ حَتَّى تَراها مَرْيَمُ لِغايَةِ وُصُولِها إِلى البَيْت.

الكَهْرَباءُ مَقْطُوعَةٌ عَنِ الحَيِّ مِثْلُ العادَةِ.

قَالَتْ لَها:

ـ خُذِي هَذِهِ الشَّمْعَةَ لِتُنيرَ لَكِ الطَّريقَ.

قَالَتِ الطِّفْلَةُ:

ـ لا أُرِيدُ شَمْعَةً، مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ أَمْشِي في الظَّلامِ؛ كَيْلا يَراني أَحَدٌ.

أَصَرَّتْ مَرْيَمُ، خَشِيَتْ أَنْ تَصْدمَها سَيارَةٌ في الظُّلْمَةِ، أَنْ تَقَعَ في حُفْرَةٍ.

وما أَكْثَرَ الحُفَرَ في الحَيِّ!

أَخَذَتِ الطِّفْلَةُ الشَّمْعَةَ بِحَذَرٍ.

سارَتْ مُسْرِعَةً نَحْوَ الرَّصِيفِ قُرْبَ الحائِطِ عَلَى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الطَّرِيقِ؛ لِتَتَمَكَّنَ مَرْيَمُ مِنْ رُؤْيَتِها حَتَّى وُصولِها البَيْت.

كَانَتْ مَرْيَمُ خائِفَةً، كَانَتْ إِكْرامُ خائِفَةً.

الظَّلامُ تَشقُّهُ شَمْعَةٌ. لمْ تَعُدْ مَرْيمُ تَرَى في الظَّلامِ غَيرَ نُورٍ ضَئيلٍ يَتَحَرَّكُ قُرْبَ الحائِطِ.

رَأَتْ ضَوْءَ سَيارَةٍ مُسْرِعَةٍ، سَمِعَتْ صَوْتاً مُرْعِباً، سَمِعَتْ صُراخَ طِفْلَةٍ، وزَعِيقَ إِطاراتِ سَيارَةٍ.

ومُنْذُ ذَلِكَ اليَوْم لمْ يَعُدْ أَبْناءُ الحَيِّ يُضِيئونَ شَمْعاً بِلَيلٍ.

السِّرُّ العَجِيبُ

في بَيْتِ جَدِّي غُرْفَةٌ تَظَلُّ مُغْلَقَةً بِاسْتِمْرارٍ، سَأَلْتُ جَدِّي عَنْ هَذِهِ الغُرْفَةِ، فَلَمْ يُجِبْني.

سَأَلْتُ أُمِّي وأَبي، فَقالا: إِنَّهُما لا يَعْرِفانِ ما بِداخِلِها، وأَخْبَراني أَنَّها غُرْفَةٌ خاصّةٌ بِجَدِّي، يَجْلِسُ فِيْها ساعاتٍ طَويلَةً.

رَجَوْتُ جَدِّي السَّماحَ لي بِدُخُولِها، لَكِنَّهُ رَفَضَ.

كَرَّرْتُ الرَّجاءَ مَرّاتٍ ومَرّاتٍ، والإِجابَةُ كَانَتْ واحِدَةً.

وفي أَحَدِ الأَيّامِ فاجَأَني جَدِّي بِقَولِهِ:

ـ بِما أَنَّكَ راغِبٌ بِدخولِ الغُرْفَةِ، سَأُعْطِيكَ مِفْتاحَها عِنْدَما تَكْبرُ.

فَأَجَبْتُهُ عَلَى الفَوْرِ:

ـ لَكِنِّي كَبيرٌ، بَعْدَ شَهْرٍ واحِدٍ سَيُصْبِحُ عُمري عَشْرَ سِنِين.

ضَحِكَ جَدِّي حَتَّى سَقَطَتْ أَسْنانُهُ عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ قالَ:

ـ لا بَأْسَ، لا بَأْسَ، بَعْدَ شَهْرٍ إِذاً.

ذَهَبْتُ إِلى بَيْتِنا وأَنا أَحْلُمُ بِتِلْكَ الغُرْفَةِ، وصُرْتُ أُفَكِّرُ بِمُحْتَوَياتِها، وأَعُدُّ الأَيّامَ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، بَقِيَ أُسْبوعانِ، أُسْبوعٌ، يَوْمانِ.

وفي صَباحِ عِيْدِ مِيلادِي العاشِرِ اسْتَيْقَظْتُ مُبَكِّراً جِدّاً، ولَبِسْتُ أَحْلَى ثِيابي، وذَهَبْتُ مُسْرِعاً إِلى بَيْتِ جَدِّي المُجاوِرِ لِبَيْتِنا، وما أَنْ فَتَحَ جَدِّي البابَ حَتَّى قُلْتُ لَهُ:

ـ ها قَدْ أَصْبَحَ عُمرِي عَشْرَ سِنِين. هَيّا أَعْطِنِي مُفْتاحَ الغُرْفَةِ.

ضَحِكَ جَدِّي هَذِهِ المَرَّةَ أَكْثَرَ مِنَ المَرَّةِ السَّابِقَةِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَضَعُ أَسْنانَهُ، وقالَ بِكَلماتٍ مُكَسَّرَةٍ:

ـ أَنْتَ طِفْلٌ عَنِيدٌ. أَلا تَعْرِفُ الصَّبْرَ؟

ثُمَّ قالَ جَدِّي بِمَرَحٍ:

ـ لَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ سَتَأْتي. هَذا هُوَ المُفْتاحُ.

سِرْتُ بِاتِّجاهِ الغُرْفَةِ، وسَمِعْتُ دَقّاتِ قَلْبي مِنْ شَدَّتِها، فَتَحْتُ البابَ بِهُدوءٍ، ودَخَلْتُ الغُرْفَةَ.

وَقَفْتُ في الوَسَطِ، فَوْقَ بِساطٍ أَخْضَرَ كَبيرٍ، وصُرْتُ أَدُورُ، وأَدُورُ، أَتَأَمَّلُ جُدْرانَ مِنَ الكُتُبِ مَصْفُوفَةً بِعِنايَةٍ وتَرْتِيبٍ.

لَحِقَني جَدِّي، وقالَ:

ـ لَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيعُ الرَّكْضَ مِثْلَكَ، أَظُنُّكَ مُسْتَغْرِباً.

لَقَدْ جَمَعْتُ هَذِهِ الكُتُبَ مُنْذُ أَنْ كُنْتُ في سِنِّكَ.

هَلْ تُرِيدُها؟ أَنا أَعْلَمُ أَنَّكَ تُحِبُّ القِراءَةَ. إِنَّها لَكَ مُنْذُ الآن.

رُبَّما تَفْعَلُ بِها ما يَجِبُ أَنْ تَفْعَلَهُ.

وخَرَجَ جَدِّي مِنَ الغُرْفَةِ، وتَرَكَني وَحِيداً.

بَقيتُ ساعاتٍ أَتَنَقَّلُ مِنْ كِتابٍ إِلى كِتابٍ؛ حَتَّى أَنْهَكَني التَّعَبُ، وجَلَسْتُ في رُكْنٍ جانِبِيٍّ، وأَسْنَدْتُ رَأْسِي بِكتابٍ كَبيرٍ. أَغْمَضْتُ عَينَيَّ قَلِيلاً.

بَعْدَ دَقائِقَ، سَمِعْتُ أَصْواتاً غَرِيبَةً، فَتَحْتُ عَيني فَرَأَيْتُ مَجْموعَةً مِنَ الكُتُبِ تَتَّجِهُ نَحوِي.
شَعَرْتُ بِالخَوفِ الشَّدِيدِ، وأَغْلَقْتُ عَينيَّ بِسُرْعَةٍ.
اقْتَرَبَتِ الكُتُبُ مِنِّي، وسَمِعْتُ صَوتاً وَقوراً يَقولُ:
ـ مُنْذُ زَمَنٍ لَمْ نَعُدْ نَرَى أَحَداً مِنَ النّاسِ، لَقَدْ سَجَنَنا صاحِبُنا في هَذِهِ الغُرْفَةِ. ما أَجْمَلَ هَذا الصَّبيَّ!
فَقَالَ كِتابٌ آخَرُ:
ـ مَعَكَ حَقٌّ. إِنَّهُ مُجْتَهِدٌ أَيْضاً، لَقَدْ قَرَأَ كُتُباً كَثِيرَةً في وَقْتٍ قَلِيلٍ.
وسَمِعْتُ صَوْتَ كِتابٍ عَجوزٍ:
ـ لَقَد كُنَّا في الماضِي نَدورُ مِنْ يَدٍ إِلى أُخْرَى، ولَمْ نَكُنْ نَتْعَبُ أَبَداً أو نَنْزَعِجُ.
والآن أَصابَنا المَلَلُ. إِنَّني أَكادُ أَخْتَنِقُ مِنْ هَذِهِ الغُرْفَةِ.
هُنا قَالَ كِتابٌ يَبْدُو مِنْ صَوْتِهِ أَنَّهُ في مَرْحَلَةِ الشَّبابِ:
ـ كَمْ أَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ هَذا الطِّفْلُ الجَمِيلُ وَرِيثاً لِجَدِّهِ. فهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ يُسْمَحُ لأَحَدٍ بِزِيارتِنا.
تَحَرَّكْتُ قَليلاً، فَأَسْرَعَتِ الكُتُبُ إِلى أَماكِنِها، قُمْتُ مِنْ مَكاني، وخَرَجْتُ لأَسْتَأْذِنَ جَدِّي بِنَقْلِ هَذِهِ الكُتُبِ العَظِيمَةِ والحَكِيمَةِ إِلى مَكْتَبَةٍ عامَّةٍ؛ لِيَنْتَفِعَ بِها جَمِيعُ النّاسِ.
رَحَّبَ جَدِّي بِالفِكْرَةِ، وقَالَ:
ـ كَمْ تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكونَ مِثْلَكَ.

غَزَلٌ في باصٍ مُزْدَحِمٍ

في مقْعَدِ الباصِ الخَلْفِيِّ امْرَأَةٌ تُجادِلُ الرَّجُلَ الذي يَجْلِسُ مَعَها، وكانا مُلْتَحِمَيْنِ إلى حَدِّ الانْصِهارِ، حَتَّى أَنَّهُما يَبْدُوانِ شَخْصاً سَمِيناً واحِداً لولا رَأْساهُما. ولِوَهْلَةٍ قَدْ تَظُنُّ أَنَّهُما تَوْءَمانِ سِيامِيانِ.

الرَّجُلُ يَضْحَكُ بِاسْتِمْرارٍ، والمَرْأَةُ تَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ بِوَجْهٍ عَبوسٍ ونَظَراتٍ حادَّةٍ، وهُوَ يُبادِلُها بِنَظَراتٍ هادِئَةٍ.

تَسْمَعُ أَحْياناً صَوْتاً مُرْتَفِعاً، لَكِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْهَمَهُ بِسَبَبِ الضَّجِيجِ المُنْبَعِثِ مِنْ أَنْحاءِ الباصِ المُكْتَظِّ بِالرُّكّابِ.

مِنْ مقْعَدِي المُقابِلِ أَرَى حَرَكاتِ المَرْأَةِ العَصَبِيَّةِ، وتَوَسُّلاتِ الرَّجُلِ الَّذي يَبْدُو أَنَّهُ يُحاوِلُ اسْتِمالَةَ المَرْأَةِ إِلَيْهِ، وكَسْبَ رِضاها.

هِيَ لَيْسَتْ جَمِيلَةً جِدّاً، وثِيابُها بَسِيطَةٌ؛ تَبْدو كَعامِلَةٍ في مَصْنَعٍ يَسْتَغِلُّ النِّساءَ بِأَعْمالٍ قاسِيَةٍ نَظِيرَ أُجورٍ بَسيطَةٍ؛ لا يَقْبَلُ بِها العُمّالُ الرِّجالُ.

الرَّجُلُ المُلاصِقُ لِلْمَرْأَةِ يَبْدُو أَنَّهُ يُغازِلُها، وهِيَ تَرْفُضُ مُغازَلَتَهُ.

آهٍ مِنَ الباصَاتِ، وما يَحْدُثُ فِيها!

دائِماً يَقومُ الرِّجالُ بِإِزْعاجِ النِّساءِ.

لَكِنَّني أَذْكُرُ جَيِّداً تِلْكَ المَرْأَةَ الَّتي كَانَت تُحاوِلُ مُلامَسَةَ الرَّجُلِ الَّذي يَقِفُ خَلْفَها لِتُغْرِيَهُ.

مِسْكِينٌ، لمْ يَتمالَكْ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ مُسْرِعاً في أَوَّلِ مَوْقِفٍ، فِيْما وَقَفَتِ المَرْأَةُ تِلْكَ مُحْتارَةً تَنْدبُ حَظَّها التَّعِيسَ.

أَمّا هَذا الرَّجُلُ فَيَبْدُو جَريئاً، لا يُضَيِّعُ لَحْظَةً مِنْ دونِ أَنْ يَهُزَّ شارِبَيْهِ، ويُحَرِّكَ حَواجِبَهُ، ويُعَدِّلَ رَبْطَةَ عُنُقِهِ، والمَرْأَةُ تَبْدُو أَكْثَرَ عَصَبِيَّةً، وغَيْرَ راضِيَةٍ مِنْ هَذِهِ الحَركاتِ الصِّبْيانِيَّةِ.

جاءَ قاطِعُ التَّذاكِرِ، فَحاوَلَ الرَّجُلُ دَفْعَ قِيمَةِ التَّذْكَرَةِ عَنِ المَرْأَةِ، لَكِنَّ المَرْأَةَ رَفَضَتْ، وأَخْرَجَتْ قِطْعَةَ نُقودٍ، ودَفَعَتْ عَنْ نَفْسِها.

تُرَى مَاذا يَظُنُّ هَذا الرَّجُلُ نَفْسَهُ؟! حَتَّى لو كَانَتِ امْرَأَةً ساقِطَةً هَلْ سَتَقْبَلُ بِأَنْ يَدْفَعَ هَذا الرَّجُلُ مَبْلَغاً زَهِيداً لِيَنالَ رِضاها؟ شَيءٌ ساذَجٌ حقّاً!

أَدارَتِ المَرْأَةُ وَجْهَها نَحْوَ النّافِذَةِ، لمْ تَعُدْ تَنْظُرُ إِلى الرَّجُلِ وهو يُحاوِلُ مَرَّةً أُخْرَى كَسْبَ رِضاها.

تَوَقَّفَ الباصُ. وَقَفَتِ المَرْأَةُ فَبَدَتْ سَمِينَةً جِدّاً قِياساً بِالرَّجُلِ الَّذي وَقَفَ هُوَ أَيْضاً.

حَمَلَتِ المَرْأَةُ طِفْلَةً كَانَت تَجْلِسُ بِالمقْعَدِ المُقابِلِ لَها مُباشَرةً، ولمْ يَكُنْ ظاهِراً لي فِيما أَمْسَكَ الرَّجُلُ بِيَدِهِ طِفْلاً آخَرَ لمْ أَنْتَبِهْ إِلى وُجودِهِ أَيضاً، وبِيَدِهِ الأُخْرَى أَمْسَكَ يَدَ المَرْأَةِ لِتَتَمَكَّنَ مِنَ الخُروجِ مِنَ الباصِ، وهِيَ تَدْفَعُ وَزْنَها الثَّقِيلَ وعَصَبِيَّتَها الزّائِدَةَ.

وانْصَرَفْتُ أَبْحَثُ عَنْ وُجوهٍ جَدِيدَةٍ بَيْنَ الزِّحامِ.

القَرارُ الأَخِيرُ

أَسْقَطَ سَمَّاعَةَ الهاتِفِ عَلَى الأَرْضِ، قَطَعَ السِّلْكَ المُوصِلَ لِلْحَرارَةِ، حَمَلَ آلَةَ الهاتِفِ، وَضَعَها في سَلَّةِ النّفاياتِ.

رَمَى هاتِفَهُ النَّقّالَ مِنَ النّافِذَةِ بَعْدَ أَنْ سَحَبَ مِنْهُ بِطاقَةَ الهاتِفِ وكَسَرَها.

ـ لِتَكُنْ نِهايَةُ النِّهايَةِ، وخِتامُ الخاتِمَةِ، وانْقِضاءُ فُصولِ الحَياةِ:

قَالَها بِسُخْرِيَةٍ.

انْسَحَبَ مِنَ العالَمِ بِصَمْتٍ، شَعَرَ أَنَّهُ عاشَ أَكْثَرَ ممَّا يَسْتَحِقُّ.

سَنَواتُ عُمرِهِ الأَرْبَعونَ، بَدَتْ كافِيَةً لِتُشْعِلَ رَأْسَهُ وقَلْبَهُ شَيْباً وشَقاوَةً.

اسْتَدْرَكَ في النِّهَايَةِ أَنَّهُ يَحْيا في عالَمٍ غَرائِبيٍّ عَجِيبٍ، عالَمٍ السَّيِّدُ فِيهِ مَغرورٌ مُتَمَلِّقٌ، والطّامِعُ بِهِ غَبِيٌّ مُتَسَلِّقٌ.

اكْتَشَفَ أَنَّهُ يَحْيَا في عالَمٍ لا يَنْتَمِي إِلَيْهِ.

هُوَ يُشْبِهُ النّاسَ، صَوْتُهُ كَصَوْتِهِمْ، لُغَتُهُ كَلُغَتِهِمْ، ثِيابُهُ كَثِيابِهِمْ، مَرْكَبُهُ كَمَرْكَبِهِمْ، بَيْتُهُ كَبَيْتِهِمْ، لَكِنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ، يُشْبِهُهُمْ، ولا يُشْبِهُهُمْ.

ضَيَّقَ قَدْرَ ما يَسْتَطِيعُ مَساحَةَ التَّشارُكِ مَعَهُمْ، بَنَى في داخِلِهِ مَمْلَكَةً يَعِيشُ فِيها.

كائِنٌ غَرِيبٌ صُورَتُهُ كَالبَشَرِ، لَكِنَّهُ لا يَشْعُرُ لَحْظَةً أَنَّهُ يَنْتَمِي إِلَيْهِمْ.

لَقَدْ صَمَّمَ عَلَى ذَلِكَ، قَرارٌ لا رُجوعَ فِيهِ، رُبَّما هُوَ مَخْلوقٌ آتٍ مِنْ مَكانٍ آخَرَ، أو نَوْعِيَّةٌ مُسْتَنْسَخَةٌ مِنَ البَشَرِ، لَكِنَّهُ بِالتَّأْكِيدِ لَيْسَ مِنْهُمْ.

تَنامَتْ في داخِلِهِ مَشاعِرُ الاغْتِرابِ؛ حَتَّى وَصَلَ إلى قَناعَةِ العُزْلَةِ، فَالعُزْلَةُ خَيرٌ مِنَ العَيْشِ مَعَ مَخْلوقاتٍ لا يَنْتَمِي إِلَيْهَا.

قَرَّرَ أَنْ يَشِيخَ في الظُّلْمَةِ، قَرَّرَ أَنْ يَسْكُنَ العَتْمَةَ والصَّمْتَ والسِّجْنَ، فَلا تَلْمَعُ بَعْدَ الآن شَيْبَتُهُ، أو بِالأَحْرَى صَلْعَتُهُ تَحْتَ ضَوءِ الشَّمْسِ ونورِ القَمَرِ.

ـ فَلْيَكُنْ ما يَكونُ، ولْيَعْلَمِ العالَمُ أَنَّني جِنسٌ غَرِيبٌ لَيْسَ مِنَ البَشَرِ.

حَاوَلَ مَرَّاتٍ ومَرّاتٍ أَنْ يَسْقُطَ في عالَمِهِمْ، أَنْ يُشيدَ أَحلاماً مِنْ خَيالٍ، يَنْسُجُها خَلْفَ الأَقْنِعَةِ المُتَهاوِيَةِ مِثْلِ المَطَرِ.

كانَ يَنْصُتُ بِسكونٍ لِكُلِّ الأَلْسِنَةِ المُتَبَدِّلَةِ المُتَصَنِّعَةِ، حاوَلَ، لَمْ يَنْكرْ أَنَّهُ حاوَلَ، لَكِنَّهُ كانَ يَسْقُطُ في كُلِّ مُحاوَلَةٍ عِنْدَ دَرَجاتِها الأُوْلى، فَلا يَنْجَحُ في إِثْباتِ ما يُريدُ، ولا يَقْوَى عَلَى تَزْويرِ ما لا يُريدُ.

وفي الحالَيْنِ كَانَتْ نِصالُ الخَوْفِ والفَزَعِ والانْكِسارِ تَنْسَلُّ بِوَحْشِيَّةٍ ووَقاحَةٍ، تَنْغَرِزُ في صَدْرِهِ مِنْ دُونِ رَحْمَةٍ.

كانَ يَرَى النّاسَ مِنْ حَوْلِهِ أَقْنِعَةً عَلَى أَقْنِعَةٍ عَلَى أَقْنِعَةٍ.

صائِب واحِدٌ مِنْهُمْ، ومَنْصور، ورَمْزِي، وتَوْفِيق، وهَيْثَم، وغَيْرهُمْ كُثُر.

صائِب: مَسْؤولُهُ المُباشرُ في العَمَلِ؛ كانَ يزوِّرُ حَتَّى نَفْسَهُ، وما أَيْسَرَ عَلَيْهِ أَنْ يُغَيِّرَ في كُلِّ يَوْمٍ مَبادِئَهُ.

هَيْثَم: بَدَّلَ حَتَّى دِيْنَهُ لِيَنالَ مَنْصِباً تافِهاً أَعْجَبَهُ.

تَوْفِيْق: مُسْتَعِدٌّ لِيَبِيْعَ أَوْلادَهُ لِيَسُودَ ويَتَرَقَّى.

وكانَ بَيْنَهُم، وغَيْرُهُمْ كَطابَةٍ تَتَلاطَمُها الأَقْدامُ، أو وَرَقَةٍ صَفْراءَ في مَهَبِّ الرِّيحِ.

هَرَبَ مِنْهُمْ، ومِنْ غَيْرِهِمْ.

لَجَأَ إِلى آخَرِينَ مُغايِرِينَ مُعاكِسِينَ، فَلَفَظُوهُ قَبْلَ أَنْ يَحْيا بَيْنَهُمْ.

كَشَفَهُمْ عَلَى ما هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عُرْيٍ مَسْتُورٍ قَبِيحٍ.

حاوَلَ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى نَفْسِهِ، قَدَّمَ لِنَفْسِهِ تَبْرِيراتٍ.

زَوَّرَ، نَعَم! زَوَّرَ مِثْلَ كَثِيرِينَ حَوْلَهُ، لَكِنَّهُ مُزَوِّرٌ فاشِلٌ، لا يَنْطَلي تَزْويرُهُ عَلَى أَحَدٍ، فَقَذَفَتْهُ الأَمْواجُ عَلَى صُخورِ الجِراحِ.

لَمْ يَيْأَسْ، حاوَلَ مَرَّةً جَدِيدَةً، مَرّاتٍ جَديدَةً.

ومَضَى يَتَصَيَّدُ الأَلَمَ حَيْثُما تَقَلَّبَ. ما هَكَذا تُوْرَدُ الإِبِلُ!

تَرَاءَتْ لَهُ أَحْلامُ الشَّبابِ كَلَوْحاتٍ فُسَيْفُسائِيَّةٍ مُتَحَطِّمَةٍ؛ شاهَدَهَا عَلَى جِرَاحِهِ الَّتي تَعَفَّنَتْ مِنْ كَثْرَةِ ما أَجَّلَ المُداواةَ.

لَجَأَ إِلى بَيْتِهِ؛ حَتَّى بيْتِهِ لَمْ يَخْلُ مِنْ صِياحِهِمْ ومُزاحَمَتِهِمْ لَهُ.

قَرَّرَ قَطْعَ كُلِّ ما يَمُتُّ لَهُ بِصِلَةٍ إِلى البَشَرِ، جَمَعَ كُلَّ مالِهِ الَّذي حَصَدَهُ في حَياتِهِ؛ مَبْلَغٌ لا بَأْسَ بِهِ، سَيُضِيفُ إِلَيْهِ مَبْلَغَ نِهايَةِ الخِدْمَةِ.

أَجْرَى حِسْبَةً بَسِيطَةً، مَبْلَغٌ جَيِّدٌ، يَكْفِيهِ رُبَّما ثَلاثِينَ سَنَةً آتِيَةً، هَذا لو كُتِبَتْ لَهُ الحَياةُ طوالَ هَذِهِ المُدَّةِ، سَيَعِيشُ بِهَذا المَبْلَغِ بِبَساطَةٍ.

هُوَ يَمْلِكُ المَنْزِلَ، وَرِثَهُ عَنْ والِدِه.

يُوْجَدُ ثلاثُ شُقَقٍ مُسْتَأْجَرَةٍ، لَكِنَّ إيْجارَها بَسِيْطٌ، لا يَكْفِي لِيَوْمَيْنِ، قَرَّرَ أَنْ يَعْفِيَ المُسْتَأْجِرِينَ مِنْ هَذا الإيجارِ الَّذي يَبْدُو نَهُ رَمْزاً لِتَواصُلِهِ مَعَ البَشَرِ.

تَنَازَلَ بِبَساطَةٍ لِكَيْ لا يَرَى واحِداً مِنْهُمْ.

سَيَخْرُجُ مَرَّةً واحِدَةً في الشَّهْرِ فَقَط، يَشْتَرِي ما يَحْتاجُهُ مِنْ طَعامٍ، ويَعودُ إِلى بَيْتِهِ، بَلْ إِلى سِجْنِهِ الطَّوْعِيِّ، ويَكْفِي نَفْسَهُ كُلَّ هَذا الزّيفِ والغُرورِ والتَّمَلُّقِ.

ـ لو كُنْتُ مُتَزَوِّجاً لازْدَادَتْ حَياتي سوءاً.

لا أَدْرِي إِنْ كانَ أَولادِي سَيَكونُونَ سُجَناءَ مِثْلِي، أو مِثْلَ هُؤلاءِ الأَقْنِعَةِ.

حَتَّى أَنا نَفْسِي كُنْتُ قِناعاً لِنَفْسِي.

سَأَتَّفِقُ مَعَ صاحِبِ الدُّكّانِ المُجاوِرِ لِيَأْتِيَني بِالطَّعامِ والغِذاءِ الَّذي أَحْتاجُهُ مَرَّةً واحِدَةً في الشَّهْرِ؛ لِيَضَعَهُ خَلْفَ البابِ.

سَأُعْطِيهِ ما يُرِيدُهُ مِنْ مالٍ مِنْ فَتْحَةِ البابِ السُّفْلِيِّ. هَكَذا أَفْضَلُ مِنَ الخُروجِ.

لا أُرِيدُ رُؤْيَةَ الأَقْنِعَةِ المُزَيَّفَةِ؛ حَتَّى صاحِبِ الدُّكّانِ يَصْطَنِعُ لِكُلِّ مُشْتَرٍ قِناعاً.

آآخ. لو كانَ لِهَذِهِ الأَقْنِعَةِ سُوقٌ تُباعُ فِيهِ وتُشْتَرَى لَراجَتْ هَذِهِ الأَسْواقُ، وأَصْبَحَتْ مَصانِعُ الأَقْنِعَةِ أَكْثَرَ مِنَ المَخابِزِ والمَطاعِمِ، ولأَصْبَحَ أَصْحابُها مِنْ أَثْرَى الأَثْرِياءِ.

العالَمُ يَحْتَفِلُ بِعِيْدِ مِيلادِهِ!

الضَّوْءُ يَتَسَلَّلُ مِنْ تَجاوِيفِ الخَشَبِ العَفِنِ، والصَّمْتُ بِلا حُدودٍ.

عِنْدَما تَمُرُّ السَّياراتُ تُمَزِّقُ وشاحَ السُّكونِ المُنْسَكِبِ كَعَباءَةٍ شَتَوِيَّةٍ في لَيْلَةٍ اخْتَبَأَتْ فَيْها النُّجُومُ.

اليَوْمُ يَحْتَفِلُ كُلُّ العالَمِ بِمِيلادِهِ، ولا يَدْرِي أَهِيَ لَيْلَةُ نَحْسٍ، أَمْ سَعادَةٍ؟!

الكُلُّ حَوْلَ العالَمِ يَرْقُصُ ويُغَنِّي، وهُوَ يَقْبَعُ في قَبْوِهِ الَّذي لا يَرْبِطُهُ بِسَطْحِ الأَرْضِ سِوَى نافِذَةٍ عُلْوِيَّةٍ مِنَ الخَشَبِ العَفِنِ؛ نَخَرَها السُّوْسُ.

قَبْلَ سِنِينَ طَويلَةٍ خَرَجَ إِلى الدُّنْيا، أَخْبَرَتْهُ أُمُّهُ أَنَّهُ وُلِدَ في رَأْسِ السَّنَةِ.

والِدُهُ خَرَجَ هائِماً؛ يَبْحَثُ عَنْ وَسِيلَةِ نَقْلٍ تَحْمِلُ زَوْجَتَهُ إِلى المُسْتَشْفَى، فَدَهَسَتْهُ سَيّارَةٌ مُسْرِعَةٌ.

لَمْ يَعْلَمُوا عَنْ مَوْتِهِ إِلَّا في اليَوْمِ التّالي، أَمّا هُوَ فَقَدْ وُلِدَ عَلَى يَدِ جارَتِهِ العَجُوزِ، وحَمَلَ مِيلادُهُ هَذا التَّارِيخَ، وسَمَّتْهُ أُمُّهُ بِاسْمِ والِدِهِ.

ابْتَسَمَ. هُوَ يَبْتَسِمُ مَرَّةً واحِدَةً في كُلِّ عامٍ، عِنْدَما يَتَذَكَّرُ عِيْدَ مِيلادِهِ، وهَلْ ذَلِكَ غَرِيبٌ عَلَى رَجُلٍ جاءَ إِلى الحَياةِ عَلَى جُثَّةِ أَبِيهِ؟

ـ كَمْ أَكْرَهُكَ، لَنْ أَدَعَكَ تَمُصَّ ثَدْيِي، لَولاكَ لَما ماتَ أَبُوكَ.

رَمَتْهُ كَعَظْمَةٍ لِلْكِلابِ الشّارِدَةِ.

مَنْ يُصَدِّقُ أَنَّ أُمّاً تكْرَهُ الأُمُومَةَ؟ تُحَمِّلُ رَضِيعَها مَسْؤولِيَّةَ القَتْلِ؟

بَلْ، مُنْذُ مَتَى يُحاكَمُ الأَطْفالُ؟!

بَلْ، كَيْفَ يُحاسَبُ إِنْسانٌ عَلَى جَرِيمَةٍ لَمْ يَقْتَرِفْها؟

ـ أَكْرَهُكَ، أَنْتَ مِثْلُ جِلْدِ حِمارٍ نَتِنٍ، إِلْحَقْ بِأَبِيكَ خَيْرٌ لَكَ.

الجارَةُ العَجوزُ أُمُّ عَمّارٍ، هِيَ في الحَقِيقَةِ لَيْسَتْ أُمّاً لِعَمارٍ ولا لِغَيْرِهِ، وهِيَ لَمْ تَتَزَوَّجْ في الأَصْلِ، فَقَدْ كَانَتْ دَمِيمَةً قَبِيحَةً، ولَدَيْها تَشَوُّهاتٌ في يَدَيْها، وشَفَتُها العُلْيَا تَلْتَصِقُ بِأَنْفِها.

هَذا شَكْلُها في سِنِّ الصِّبا، فَتَخَيَّلْ شَكْلَها وهِيَ فَوْقَ السِّتِّينَ.

فَمَنْ يَتَزَوَّجُ مِثْلَ هَذِهِ المَرْأَةِ؟! قُبْحٌ وفَقْرٌ وتَشَوُّهٌ خُلُقِيٌّ.

ما أَقْسَى هَذا العالَمَ الَّذي تَحْكُمُهُ مَعايِيرُ قَدْ يَفْقُدُ النّاسُ بَعْضَها؛ فَيُصْبِحونَ «عِظاماً لِلْكِلابِ الشَّارِدَةِ».

أُمُّ عَمّارٍ ـ رَغْمَ كُلِّ بَشاعَتِها، ورَغْمَ هُروبِ الرِّجالِ مِنْها، وعُزوفِهِمْ عَنِ الزَّواجِ بِها ـ اغْتُصِبَتْ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاث مَرّاتٍ.

كَانَ ضَعْفُها، ووحْدَتُها، وعَدَمُ وُجُودِ مَنْ يَحْمِيْها... كُلُّ ذَلِكَ يُشَكِّلُ إِغْراءً لِرِجالٍ كَرِهُوا دَمامَتَها، وأَفْرَغُوا ـ مَعَ ذَلِكَ ـ شَهَواتِهِم في جَسَدِها المُشَوَّهِ.

كانَ يُحَدِّقُ في المِرْآةِ المُتَصَدِّئَةِ، والابْتِسامَةُ السَّاخِرَةُ تَلْوِي شَفَتَيهِ إِلى اليَمِينِ.

مَرَّةً ـ وهُوَ في الرَّابِعَةِ أو الخامِسَةِ ـ شاهَدَ آخِرَ اغْتِصابٍ لَها، كَما لَو كانَ يَحْلُمُ بِشَيءٍ لا يَعْرِفُهُ.

المَشْهَدُ لايَزالُ ماثِلاً أَمامَ عَيْنَيهِ. يَراهُ كَشَرِيطٍ سِينِمائِيّ شَدِيدِ الجُودَةِ.

امْرَأَةٌ فَوْقَ السِّتِّينَ، تَفْتَحُ شَهِيَّةَ لُصُوصٍ.

لَمْ يَجِدوا في البَيْتِ شَيئاً سِوَى هَذا اللَّحْمِ المُجَعَّدِ، وَضَعُوهُ أَمامَهُمْ، جَعَلُوهُ يُراقِبُ ما يَحْدُثُ، كانَ خائِفاً، مُرْتَعِداً.

ثُمَّ هَرَبوا وتَرَكوها تَموتُ عارِيَةً بَينَ يَدَيهِ.

ومَاذا يُمْكِنُ لِطِفْلٍ فِي الخامِسَةِ أَنْ يَفْعَلَ؟! وهُوَ يَرَى مِثْلَ هَذا المَشْهَدِ المَأْساوِيِّ الأَلِيمِ؟

ومَاذا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ سِوَى أَنْ يَحْفِرَ هَذا المَشْهَدَ في خَيالِهِ الغَضِّ الطَّرِيِّ، وهُوَ لا يَعْرِفُ غَيرَها، ولَمْ يَذُقْ غَيرَ طَعْمِ صَدْرِها الجافِّ، ومَرارَةِ دَمْعِها الَّذي كانَ يَسِيلُ في كُلِّ حالٍ وحِينٍ.

قَصِيرَةٌ قامَتُها، ولَعَلَّهُ وَرِثَ عَنْها هَذِهِ القامَةَ، مَعَ أَنَّها لَيْسَتْ أُمَّهُ الحَقِيْقِيَّةَ؛ الَّتي لا يَدْرِي ما إِذا كَانَتْ لاتَزال تَعِيشُ حَتَّى اليَوم، وحَتَّى لَوْ كَانَتْ حَيَّةً، هَلْ سَتَقْبَلُ أَنْ يَرتَمِيَ في أَحْضانِها، وهُوَ كَبِيرٌ، بَعْدَ أَنْ رَفَضَتْهُ وهُوَ صَغِيرٌ مُحْتاجٌ لحَلِيْبِها؟

مِنْ حِينٍ لآخَرَ، تُوْقِظُهُ المُفَرْقَعاتُ الَّتي تَتَرَدَّدُ احْتِفاءً بِالسَّنَةِ الجَدِيدَةِ، تَنْثُرُ خَيالاتِهِ وتُعِيدُهُ لِواقِعِهِ، يَبْتَسِمُ مِنْ جَديدٍ، العالَمُ يَحْتَفِلُ بِعِيْدِ مِيلادِهِ.

حِسابُ الزَّمَنِ

بِبُطْءٍ بالِغِ النُّفورِ، خَطَتْ نَحْوَ الهاتِفِ لِتُخْرِسَ هَذا الرَّنينَ الَّذي لا يَنْقَطِعُ.

اسْتَجْمَعَتْ ما تَبَقَّى مِنْ قُوَّةٍ واهِنَةٍ، ورَفَعَتِ السَّمَّاعَةَ، وخَرَجَتِ الكَلِماتُ مِنْ فَمِها كَأَسْياخٍ مُحَمّاةٍ عَلَى جَمْرٍ مُلْتَهِبٍ.

ـ ألو... نعم.

كانَ الطَرَفُ الآخَرُ قَدْ يَئِسَ، وأَغْلَقَ السَّمَّاعَةَ.

حَبَسَتْ أَنْفاسَها، مَطَّتْ شَفَتَها السُّفْلَى ساخِرَةً، بَعْدَما كَانَتْ أَسْرَعَ عَدّاءَةٍ مِنَ المَدْرَسَةِ حَتَّى الجامِعَةِ.

أَصْبَحَتِ الآنَ لا تَقْوَى عَلَى اللِّحاقِ بِهاتِفٍ مَجْهولٍ، يَبْدو أَنَّ صاحِبَهُ أَخْطَأَ الرَّقَمَ.

لَمْ تَكُنْ تَمْلكُ شِراءَ هاتِفٍ لاسِلْكِيٍّ.

المالُ لَمْ يَعُدْ مُشْكِلَةً، فَلا وُجودَ لَهُ أَصْلاً، كَما أَنَّ حَرارَةَ الهاتِفِ سَتَنْقَطِعُ عَمَّا قَرِيبٍ؛ فَالفَواتِيرُ لا تُدْفَعُ، والفَواتِيرُ كَثيرةٌ.

ثُمَّ ما حاجَتُها إِلى الهاتِفِ؟ ومَنْ يُريدُ الاتِّصالَ بِها؟

هَلْ سَيَتَصَدَّقُ عَلَيْها أَحَدٌ لِدَفْعِ فاتُورَةِ الهاتِفِ، كَما يَدْفَعونَ لِلْبَقَّالِ قِيمَةَ اللُّقَيماتِ التي تَتَناولُها؟

بَلْ ماذا تَأْكُلُ غيرَ خُضارٍ، ومَنْ سَيَطْبُخُ لَها، وطَعامُها لا يَتَجاوزُ حَبَّةَ طَماطِمَ وخِيارَةً واحِدَةً، وقِطْعَةَ جُبْنٍ؟!

ومَعَ ذَلِكَ يَتَوَهَّجُ «السُّكَرِيُّ» طَمَعاً بِجَسَدِها الواهِنِ.

مِسْكِينَةٌ؛ امْرَأَةٌ مُتَعَفِّفَةٌ، قُتِلَتْ عائِلَتُها قُرْبَ النَّهرِ، ولاذتْ بِالفَرارِ، لَكِنَّ شَظايا لَعِينةً سَحَقَتْ قَدَمَيْها، وأَجْزاءَ مِنْ جِسْمِها، وكادَتْ تَقْضِي عَلَى رُوْحِها «الحَيَّةِ».

ـ يا لَيْتَني مِتُّ مَعَهُمْ.

هَذِهِ أُمْنِيَتُها القَدِيمَةُ الجَديدَةُ. حاوَلَتْ قَتْلَ نَفْسِها، لَكِنَّها وفي كُلِّ مَرَّةٍ تُنَكِّسُ رَأْسَها، وتَرْتَدُّ خائِفَةً:

ـ يَكْفِيني ما أَنا فِيهِ مِنْ عَذابٍ.

امْرَأَةٌ صَلْبَةٌ، أَقْوَى مِنْ جُذورِ شَجَرَةِ البَلَحِ المَزْرُوعَةِ مِنْ سِنِينَ في مَدْخَلِ بَيْتِها القَديمِ المُتَهالِكِ، لَكِنَّ الجُذورَ تَموتُ أَيْضاً.

في عَيْنَيْهَا أَلْفُ سُؤالٍ، أَقَلُّهُ:

ـ مَنْ كانَ وَراءَ رَنِينِ الهاتِفِ الأَقْرَبِ إِلى المَوتِ مِنْهُ إِلى الحَياةِ؟

نَبَضاتُ قَلْبِها تُسْمَعُ كَرَنِينِ الهاتِفِ، وصَوْتُ الآهِ تَجْمُدُ حَيْثُ التَّماهِي والتَّوَحُّدُ.

رَأَتْ عَلَى النَّهرِ بِساطاً مِنَ الدَّمِ، وأَشْلاءَ مِنَ اللَّحْمِ.

ـ هَذِهِ لَيْسَتْ لُعْبَةً، لِتَكُنْ ما تكونُ.

هَذا ما سَمِعَتْهُ مِنْ جُنُودٍ لا تَعْرِفُ هوِيَّتَهُمْ، وهِيَ لا تَحْفُلُ الآنَ بِماضٍ ولا مُسْتَقْبَلٍ.

تُريدُ المَوْتَ لِتَلْحَقَ بِمَنْ فَقَدَتْهُمْ.

يَعودُ الهاتِفُ لِيَقْطَعَ مَشْهَدَ المَوْتِ المُتَّصِلَ.

ـ مَنْ؟ مَنْ؟

يَنْقَطِعُ الاتِّصالُ.

هَذِهِ المَرَّةُ أَجابَتْ عَلَى الفَوْرِ، كَانَتْ قُرْبَ الهاتِفِ مُباشَرَةً، لَمْ تَكُنْ بَعْدُ قَدْ قَرَّرَتْ قَطْعَ المَسافَةِ الشّاقَّةِ «زَحْفاً» نَحْو «الرَّنِينِ»، ومَعَ ذَلِكَ لَمْ تَظْفَرْ بِالمُتَّصِلِ.

ـ لا بَأْسَ، يَبْدو أَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ صَوْتٍ جَمِيلٍ عَذْبٍ. فَماذا يُرِيدُ بِعَجوزٍ مِثْلِي؟

عَلَّقَتْ مُبْتَسِمَةً لِلْمَرَّةِ الأُولَى مُنْذُ أَشْهُرٍ طَوِيلَةٍ؛ ابْتِسامَةٌ ساخِرَةٌ تُشْبِهُ ابْتِسَامَةَ المُونالِيزا، لَكِنْ هُناكَ فَرْقٌ، وشَتّانَ ما بَيْنَ ابْتِسامَةٍ وابْتِسامَةٍ.

بابُ البَيْتِ يَظَلُّ مَفْتوحاً عَلَى الدَّوامِ.

البَقَّالُ القَرِيبُ يَأْتِي مِنْ يَوْمٍ لِيَوْمٍ، يُحْضِرُ بَعْضَ الطَّعامِ الَّذي يَدْفَعُ ثَمَنَهُ الجِيرانُ.

يَظُنُّ أَنَّ العَجوزَ تُخْفِي ثَرْوَةً، يَبْحَثُ بِعَيْنَيهِ غالِباً، وبِيَدَيْهِ مِنْ حِينٍ لآخَرَ: في دُرْجٍ هُنا، وكِيسٍ هُناكَ، ويُحَرِّكُ بِرِجْلِهِ أَثاثاً مُتَهالِكاً.

رُبَّما، رُبَّما هِيَ تَفْهَمُ ما يُفَكِّرُ بِهِ:

ـ ومِنْ أَيْنَ المالُ؟

مِسْكِينٌ هَذا الرَّجُلُ أَكْثَر مِنِّي، وماذَا سَيَنْفَعُهُ المالُ؟

لو كانَ مَعِي هَلْ قَبِلْتُ مِنَ النّاسِ إِحْساناً؟

لو اسْتَطَاعَتِ الوُصولَ إِلى البابِ وغَلْقَهُ إِلى الأَبَدِ لَفَعَلَتْ.

ـ هُوَ بِالتَّأْكِيدِ يَسْتَغِلُّ طِيْبَةَ النّاسِ، ويَأْخُذُ مِنْهُمْ أَمْوالاً مُضاعَفَةً ثَمَناً لِحَبَّةِ طَماطِمَ، وَخَيارَةٍ واحِدَةٍ، وقِطْعَةِ جُبْنٍ.

النّاسُ طَيِّبونَ، لَكِنْ مَنْ يَحْمِيهِمْ مِنَ الجَشَعِ؟

آهٍ لو أَمُوتُ، فَسَيَموتُ هَذا الرَّجُلُ مِنْ غَيْظِهِ، بَلْ أَظُنُّهُ هُوَ الَّذي سَيَقْتُلُني طَمَعاً بِثَرْوَةٍ مَوْهُومَةٍ لا وُجُودَ لَها إِلَّا في عَقْلِهِ.

النَّهرُ الَّذي شَرِبَ دِماءَ الأَحِبَّةِ أَخَذَ مَعَهُ هَذِهِ الثَّرْوَةَ. ومَنْ يَقْدِرُ عَلَى لَمْلَمَتِها مِنْ قَعْرِ النَّهرِ، ومِنْ بُطونِ السَّمَكِ؟

عادَ الهاتِفُ يَرِنُّ، لَكِنَّها لَمْ تَأْبَهْ بِهِ.

سَتَقْطَعُهُ هِيَ قَبْلَ أَنْ تَقْطَعَهُ مَصْلَحَةُ الهاتِفِ. هِيَ لا تُرِيدُ هاتِفاً في الأَصْلِ.

اسْتَجْمَعَتْ ما تَبَقَّى لَدَيْها مِنْ قُوَّةٍ، أَمْسَكَتْ بِالسِّلْكِ الرَّفِيعِ، سَحَبَتْهُ بِبُطْءٍ بالِغِ الفُتورِ، أَلْغَتْ حَرارَتَهُ المَيِّتَةَ.

سَجَنَتْ ذَلِكَ الرَّنِينَ السَّاخِرَ، فَمَنْ يَتَّصِلُ في ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ، وفي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ، خارِجَ حِسابِ الزَّمَنِ؟!

القِطارُ الَّذي لَمْ يَصِلْ

الرَّجُلُ الجالِسُ في المقْعَدِ المُلاصِقِ لِلنّافِذَةِ يُوَزِّعُ نَظَراتِهِ.

حِيْناً يَنْظُرُ إلى الخارِجِ عَبْرَ الزُّجاجِ المَكْسُوِّ بِغلالَةٍ سَمِيكَةٍ مِنَ الغُبارِ، وحِيْناً يَنْظُرُ إلى النّاسِ الَّذينَ يَخْطونَ في الأَرْضِ جِيئَةً وذَهاباً.

كانَ يُحَمْلِقُ في وَجْهِهِ طِفْلٌ صَغِيرٌ، يَتَنَطَّطُ أَمامَهُ بِحَرَكاتٍ صِبْيانِيَّةٍ لَطِيفَةٍ.

كَانَتِ الأُمُّ مُنْهَكَةٌ ومُنْشَغِلَةٌ، لا تَعْنِيها نَظَراتُ النّاسِ مِنْ حَوْلِها.

زَحْمَةٌ خانِقَةٌ تَسُدُّ المَمَرّاتِ، بِالكادِ تَسْتَطِيعُ إيجادَ مقْعَدٍ تُلْقِي جَسَدَكَ فَوْقَهُ.

الأُمُّ تُراقِبُ بِاهْتِمَامٍ، تُلْصِقُ في صَدْرِها طِفْلَةً في شُهورِها الأُوْلَى، تُمْسِكُ ثَدْيَ أُمِّها، تَغوصُ في صَدْرِها حَتَّى الانْصِهارِ.

قُرْبَ المقْعَدِ حَقِيبَةُ ثِيابٍ قَدِيمَةٍ، مُمَزَّقَةُ الأَطْرافِ، باهِتَةُ الأَلْوانِ، تُحيطُها بِنَظَراتِها خشْيَةَ السَّرِقَةِ والضَّياعِ في هَذا الازْدِحامِ الفَظِيعِ.

السيِّدُ بَدَا مُسْتَغرِقاً بِمُراقَبَةِ الطِّفْلِ، يَتَنَهَّى.

انْتِظارُ وُصولِ القِطارِ المُتَأَخِّرِ عَنْ مَوْعِدِهِ، يَطْرُدُ النُّعاسَ عَنْ عَيْنَيهِ، يَشُدُّ جفْنَيْهِ صُعوداً ويَشْتَدّانِ نُزولاً.

يَخْشَى السُّقُوطَ في النَّوْمِ فَوْقَ مقْعَدِهِ الجِلْدِيِّ المُتَحَجِّرِ، يُغَلِّظُ عَلَى نَفْسِهِ؛ لِيَبْقَى يَقْظَانَ حَذِراً.

القِطارُ قَدْ يَفوتُ ويَمْضِي. لَنْ يَسْتَطيعَ الانْتِظارَ يَوْماً آخَرَ.

السَّيِّدُ حَمْلَقَ في الطِّفْلِ، يُراقِبُ حَرَكاتِهِ كَمَشْهَدٍ سِينمائِيٍّ لافِتٍ.

صافِراتُ القِطارِ تَزْعَقُ بِلا انْقِطاعٍ، العَجَلاتُ الحَديدِيَّةُ تَبْلَعُ الأَرْضَ في سِباقٍ مَحْمومٍ مَعَ الزَّمَنِ.

لاحَظَ السَّيِّدُ حَبْلاً في ساعِدِ الطِّفْلِ مَرْبوطاً بِإِحْكامٍ.

فَكَّرَ أَنَّ الأُمَّ حَذِرَةٌ جِدّاً؛ تَخْشَى ضَياعَ طِفْلِها في هَذا الزِّحامِ.

أَطْفالٌ يُفْقَدونَ، يُخْطَفونَ، يَتَشَرَّدونَ، يَتَعَلَّمونَ السَّرِقَةَ والتَّسَوُّلَ.

ـ حَياةٌ بَغِيضَةٌ كَرِيهَةٌ.

تَمَنَّى السَّيِّدُ لو يَمْلكُ عَصاً سِحْرِيَّةً يُغَيِّرُ بِها العالَمَ.

يَبْحَثُ عَنْ خَلاصٍ حَقِيْقِيٍّ لِكُلِّ شَيءٍ مِنْ أَيِّ شَيءٍ خُصوصاً الانْتِظار المُمِلّ، وعادَة تَأَخُّرِ القِطاراتِ المُزْعِجَةِ.

ـ لا، الحَياةُ لا يُمْكِنُ أَنْ تكونَ بَغِيضَةً إِلى هَذا الحَدِّ، النّاسُ يُرِيدُونَها هَكَذا.

السَّيِّدُ كانَ يَسْبَحُ في خَيالِهِ.

الحَبْلُ المَرْبوطُ بِساعِدِ الطِّفْلِ طَرَفُهُ الآخَرُ مَرْبوطٌ بِساعِدِ المقْعَدِ الَّذي تَجْلِسُ فِيهِ المَرْأَةُ.

مَسَحَ الرَّجُلُ نَظّارَتَهُ السَّمِيكَةَ، أَرْخَى رَبْطَةَ عُنُقِهِ.

ـ فِكْرَةٌ رائِعَةٌ! لا أَدْرِي مِنْ أَيْنَ تَأْتي النِّساءُ بِأَفْكارِهِنَّ! ماذَا دَعاها لِتَقومَ بِذَلِكَ؟ أَهِيَ وَحِيدَةٌ؟ أَرْمَلَةٌ؟ مُطَلَّقَةٌ؟

ثَوْبُها يُوْحِي بِالفَقْرِ الشَّدِيدِ؛ لَكِنَّ ابْنَها يَرْتَدِي ثِياباً فاخِرَةً!

التَّناقُضُ أَثارَ الرَّجُلَ. سَرَحَ بِالخَيالِ، تَرَكَ خَيالَهُ يَسِيرُ عَلَى راحَتِهِ، لَمْ يَشَأْ وَقْفَهُ؛ فَالقِطارُ الَّذي يَنْتَظِرُهُ مُتَأَخِّرٌ عَنِ الوُصولِ، يُرِيدُ التَّسْلِيَةَ، يُرِيدُ إِمْضاءَ الوَقْتِ بِسلامٍ، لا يُرِيدُ النَّومَ فَيمْضِي القِطارُ دُونَهُ.

مَسَحَ الرَّجُلُ نَظّارَتَهُ مَرَّةً ثانِيَةً.

ـ أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذِهِ المَرْأَةَ أَرْمَلَةٌ، أَظُنُّ أَنَّها عائِدَةٌ إِلى قَرْيَتِها. لو كانَ زَوْجُها عَلَى قَيْدِ الحَياةِ لَكانَ في وَداعِها.

فَكَّرَ الرَّجُلُ: أَيْنَ أَقارِبُها وأَصْدِقاؤها وجِيْرانُها؟

الطِّفْلُ ما زالَ يَلْعَبُ جِوارَ الأُمِّ، لا يُفارِقُ المَكانَ.

الحَبْلُ يَمْتَصُّهُ دَوماً إِلى مَقْعَدِ الأُمِّ.

الطِّفْلُ لا يَتَمَرَّدُ، لَمْ يَتَمَلْمَلْ مِنَ العُقْدَةِ القاسِيَةِ في مِعْصَمِهِ، يَقْفِزُ فَرَحاً بِالنّاسِ مِنْ حَوْلِهِ يَمُرُّ النّاسُ؛ بَعْضُهُمْ يُوقِعُهُ أَرْضاً، يَرْتَطِمُونَ بِهِ رُغْماً عَنْهُمْ، لا يَنْتَبِهون إِلَيْهِ، مِنْهُمْ مَنْ يَصِيحُ بِهِ:

ـ ابْتَعِدْ عَنِ الطَّرِيقِ، ومِنْهُمْ مَنْ يَنْحَني يُقَبِّلُ وَجْنَتَهُ الصَّغِيرَةَ.

الأُمُّ مَشْغُولَةٌ بِطِفْلِها وبِرَضِيعِها وبِالحَقِيبَةِ، إِلى جانِبِها رَجُلٌ مَشْغولٌ بِهِمْ جَمِيعاً.

مَسَحَ الرَّجُلُ نَظّارَتَهُ مِنْ جَديدٍ. غُبارُ القِطاراتِ يَتَعَلَّقُ بِكُلِّ شَيءٍ، المِنْدِيلُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ.

نَظَرَ الرَّجُلُ عَبْرَ النّافِذَةِ، أَلْقَى نَظْرَةً عَلَى القِطاراتِ المُتَعاقِبَةِ، شَعَرَ بِالمَلَلِ الشَّديدِ.

النُّعاسُ يَدُبُّ إِلى عَيْنَيهِ، تَمَنَّى وُصولَ القِطارِ لِيُسْقِطَ نَفْسَهُ في مقْعَدٍ مِنَ المقاعِدِ لِيَنامَ.

الخَوْفُ مِنْ عُبورِ القِطارِ ضَيفٌ ثَقِيلٌ يُشارِكُهُ جلْسَتَهُ مَعَ المَلَلِ.

بَلَّ مِنْدِيلَهُ بِقَلِيلٍ مِنْ ماءٍ يَحْمِلُهُ في زُجاجةٍ، مَسَحَ جَبْهَتَهُ، مَسَحَ جفْنَيْهِ، يُريدُ مُقاوَمَةَ النُّعاسِ حَتَّى النِّهايَةِ.

النّاسُ يَمُرُّونَ بِهِ دُونَ اكْتِراثٍ، لمْ يَعُدْ يَسْتَطِيعُ مُتابَعَةَ الطِّفْلِ عَنْ كَثَبٍ، ضاعَ الطِّفْلُ بَينَ سِيقانِ النّاسِ، مازالَ النُّعاسُ يَتَسَلَّلُ إلى عَيْنَيهِ بِكُلِّ وَقاحَةٍ.

رَآهُ يَأْكُلُ قِطْعَةَ خُبْزٍ فَخوراً بِنَفْسِهِ.

ازْدَادَ النّاسُ، غابَ الطِّفْلُ مِنْ جَديدٍ عَنْ عَينَيهِ، غابَتِ الأُمُّ.

بَعْدَ مُدَّةٍ قامَ الرَّجُلُ مِنْ مقْعَدِهِ الجِلْدِيِّ المُتَحَجِّرِ، نَظَرَ إلى ساعَتِهِ، شَعَرَ أَنَّ القِطارَ قَدْ فاتَهُ مُنْذُ زَمَنٍ.

لمْ يَعُدْ يَسْمَعُ الصّافِراتِ، نَظَرَ نَحْوَ الطِّفْلِ؛ وَجَدَ المَكانَ خالِياً، نَظَرَ نَحْوَ الأُمِّ، وَجَدَ المقْعَدَ خالِياً.

اقْتَرَبَ مِنَ المقْعَدِ، الْتَقَطَ قِطْعَةَ خُبْزٍ يابِسَةٍ كانَ يَحْمِلُها الطِّفْلُ، وَجَدَها عَلَى الأَرْضِ قُرْبَ المقْعَدِ.

الحَبْلُ لا يَزالُ مَرْبوطاً في ساعِدِ المقْعَدِ، حَلَّ الرَّجُلُ الحَبْلَ، لَفَّهُ عَلَى مِعْصَمِهِ، خَرَجَ مُغادِراً قاعَةَ الانْتِظارِ، وسَأَلَ عَنْ مَوْعِدِ القِطارِ القادِمِ.

عادَ في اليَوم التّالي، جَلَسَ في مقْعَدِ الأُمِّ، وفي يَدِهِ الحَبْل مَرْبوطاً في ساعِدِهِ، وفي يَدِهِ الأُخْرَى قِطْعَةُ الخُبْزِ اليابِسَةِ وتَذْكَرَةُ القِطارِ، يُرِيدُ أَنْ يَرْحَلَ ويَلْحَقَ بِالطِّفْلِ.

سَكَنَ المقْعَدَ، حَنَّطَ قِطْعَةَ الخُبْزِ، نَسَجَ مِنْ خِيطانِ الحَبْلِ ثَوباً جَديداً.

البَيْتُ القَدِيمُ المَهْجورُ

تَنَحَّتْ جانِباً خَلْفَ عَمودٍ يَرْفَعُ عَلَى هامتِهِ سَقْفاً تُزَيِّنُهُ خُيوطٌ عَنْكَبوتِيَّةٌ؛ بَعْضُها اسْوَدَّتْ مَعَ مُرورِ السِّنِين، وأُخَرُ حَديثَةٌ جِدّاً لَمْ يُكْمِلْ صاحِبُها نَشْرَ أَوْصالِها.

شَعَّ في عَينَيها بَرِيقٌ خافِتٌ مَسْكونٌ بِأَحلامِ الماضِي، بَعْدَ غِيابٍ طَويلٍ اقْتَضَتْهُ ظُروفٌ قاسِيَةٌ؛ لَمْ تُمْحَ آثارُها بَعْدُ.

تَنَهَّدَتْ خَلْفَ زُجاجِ المَنْزِلِ المَكْسورِ، المَكْسُوِّ بِغلالَةٍ ناعِمَةٍ مِنَ الغُبارِ السَّاكِنِ في هَذا البَهْوِ الواسِعِ المُمْتَدِّ، واهْتَزَّتْ أَصابِعُها وهِيَ تُحاوِلُ الإِمْساكَ بِمقْبَضِ البابِ؛ فَأَصابَها ارْتِعاشٌ يَنْبُضُ بِتِلْكَ الأَيّامِ المُحَمَّلَةِ بِالأَلَمِ، والمُلَوَّنَةِ بِالدِّماءِ.

أَشاحَتْ عَيْنَيْهَا لِوَهْلَةٍ.

اسْتَجْمَعَتْ كُلَّ قواها الخائِرَةِ عِنْدَما هَمَّتْ بِالدُّخولِ؛ تَفَرَّسَتْ بِعَلامَةٍ قَدِيمَةٍ كَانَتْ قَدْ حَفَرَتْها بِمُفْتاحٍ قَديمٍ، قَبْلَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعينَ سَنَة.

فَزِعَتْ، لَمْ تَقْوَ قَدَماها الثَّقِيلَتانِ عَلَى الانْتِقالِ ولو خُطْوَةٌ واحِدَةٌ لِوطْءِ تُرابِ المَكانِ.

حَسِبَتْهُ شَيْئاً شَرِيفاً لا يَنْبَغِي مَسُّهُ لِسُكْناهُ في مَكانٍ عَزيزٍ عَلَيْها، ورُبَّما كانَ عْتِداءً عَلَى حُرْمَةِ المَكانِ المَحْفورِ في الذّاكِرَةِ مِثْل نَقْشٍ عَلَى صَخْرَةٍ مَصْقولَةٍ.

عَادَتْ بِها الذّاكِرَةُ إِلى أَيّامِ الطُّفولَةِ.

لا تَزالُ تَذْكُرُ بَعْضَ الكَلِماتِ العَرَبِيَّةِ.

أُمُّها «الجَبّارَةُ» رَفَضَتِ الانْصِياعَ لأَمْرِ إِخْلاءِ المَنْزِلِ.

ظَلَّتْ مُعَسْكِرَةً فِيهِ حَتَّى ماتَتْ مِنَ الجوعِ، صارَتِ الطِّفْلَةُ تَبْكِي، ووَجَدَتْ نَفْسَها بَعْدَ ذَلِكَ في بِلادٍ بَعِيْدَةٍ، تَعِيشُ بَيْنَ أُسْرَةٍ طَيِّبَةٍ عَوَّضَتْها فُقْدانَها لِلأُمِّ والأَبِ.

وَقَفَتْ مَذْعورَةً أَمامَ المَشاهِدِ المُتَرائِيَةِ مِثْلِ خَيالاتٍ تَتَراقَصُ حَوْلَها.

أَعْمِدَةٌ مُتَهالِكَةٌ، أَرْضِيّاتٌ مُتَشَقِّقَةٌ، جُدْرانٌ مُتَصَدِّعَةٌ.

عادَتِ الذَّاكِرَةُ إِلى الماضِي، يَومَ كَانَتْ طِفْلَةً تَمْلأُ الدّارَ ضَجِيجاً وتَطْبِيلاً.

هُناكَ كَانَتْ لُعْبَتُها الصَّغِيرَةُ:

ـ آاااااااااه.

ما زالَتْ تَتَذَكَّرُ عِنْدَما تَعَثَّرَتْ قَدَمُها، ووَقَعَتْ عَلَى العَتَبَةِ، وسَالَ الدَّمُ مِنْ أَنْفِها، وتَلَطَّخَ ثَوْبُ أُمِّها الأَخْضَرُ، وهي تَحْمِلُها لِتُرْضِيَها، وتَمْسَحَ عَنْ عَيْنَيْهَا دُموعَ البُكاءِ.

هُناكَ تَحْتَ الدَّرَجِ كَانَتْ تَجْلِسُ لِساعاتٍ، تَعْتَبِرُهُ مَكاناً خاصّاً، تَعْتَبِرُهُ مُلْكَها. لا يَجْسُرُ أَحَدٌ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْهُ دُونَ إِذْنِها.

كانَ الجَمِيعُ يَحْتَرِمُ اعْتِبارَها، حَتَّى والِدها لَمْ يَعْتَرِضْ، رَغْمَ أَنَّها جَعَلَتِ المَكانَ مَخْزَناً دائِماً لأَشْيائِها الثَّمِينةِ.

كَانَتْ تَعِيشُ حَياةً رَغِيدَةً وسَعِيدةً.

فَجْأَةً اخْتَفَى أَبُوها، ورَأَتْ أُمَّها تَبْكِي، لَمْ تَكْتَشِفْ سِرَّ البُكاءِ، لَكِنَّ الصَّغِيرَةَ أَدْرَكَتْ أَنَّ أَباها رَحَلَ إِلى الجَنَّةِ شَهِيداً، بَعْدَما تَصَدَّى لِعِصاباتٍ مُجْرِمَةٍ أَتَتْ مِنْ بَعِيْدٍ.

طَلَبَتِ العِصاباتُ مِنْ أُمِّها إِخْلاءَ المَنْزِلِ، رَفَضَتْ وتَحَصَّنَتْ لأَيّامٍ دُونَ طَعامٍ؛ تَحْمِلُ بُنْدقِيَّةً قَدِيمَةً تُهَدِّدُ بِها مَنْ يُحاوِلُ اقْتِحامَ المَنْزِلِ.

بَقِيَ قَلِيلٌ مِنَ الطَّعامِ، فَتَرَكَتْهُ لِطِفْلَتِها، فَعاشَتِ الطِّفْلَةُ، وماتَتِ الأُمُّ بَعْدَ أَيّامٍ مِنَ الجوعِ والعَطَشِ.

تَذَكَّرَتِ الطِّفْلَةُ «الكَبِيرَةُ» كُلَّ ذَلِكَ بَعْدَما قَرَّرَتِ العَوْدَةَ إِلى وَطَنِها بِجَوازِ سَفَرٍ غَرْبِيٍّ واسْمٍ غَرْبِيٍّ. إِلَّا أَنَّ كُلَّ ما هُوَ عَرَبِيٌّ اشْتَعَلَ في نَفْسِها عِنْدَما جاءَتْ ضِمْنَ وَفْدٍ سِياحِيٍّ.

كَانَتْ تَسْعَى لِلوصُولِ إِلى قَرْيَتِها البَعِيْدَةِ.

فُوْجِئَتْ أَنَّ بَيْتَها القَدِيمَ لا يَزالُ جاثِماً عَلَى رَبْوَةٍ عالِيَةٍ، رُبَّما هَجَرَهُ العِصاباتُ لِشِدَّةِ بَساطَتِهِ، ولِمَكانِهِ البَعِيْدِ عَنِ المَدِينَةِ.

اشْتَرَتِ الطِّفْلَةُ «الكَبِيرَةُ» بَيْتَها مِنَ الإِدارَةِ المَدَنِيَّةِ في المنْطقَةِ.

لَمْ تَكْشِفْ لأَحَدٍ سِرَّ هَذا الشِّراءِ، بَلْ أَنَّ أَحَدَهُمُ اسْتَهْزَأَ بِها، وظَنَّ أَنَّها مُغَفَّلَةٌ.

لَكِنْ! هَلْ تَسْتَطِيعُ وُلوجَ المَكانِ، ووطْءَ بِساطِ الغُبارِ؟!

إِنَّهُ أَمْرٌ عَسِيرٌ جِدّاً، فَهَذا الغُبارُ احْتَضَنَ بِلاطَ الأَرْضِ لِسَنواتٍ طَوِيلَةٍ، عايَشَ نَسَماتِ الماضِي، امْتَلأَتْ رِئَتاهُ بَعَبَقِ الماضِي الَّذي تَحْلُمُ بِهِ.

قَفَلَتِ البابَ بِمُفْتاحٍ قَدِيمٍ، وَضَعَتْ لَوْحَةً كَبِيرَةً عَلَيْها اسْمُها الحَقِيْقِيُّ، لَيْسَ اسْمَها الغَرْبِيَّ المَوجُودَ عَلَى جَوازِ السَّفَرِ، بَلِ اسْمُها القَدِيمُ، وتَحْتَهُ عِبارَةٌ:

«هُنا اسْتَشْهَدَ أَبي وأُمِّي، ولَيْسَ لي ذِكْرَى إِلَّا هَذا البَيْت القَدِيم المَهْجور.

ذاكِرَةُ الأَلَـمِ

عادَ مِنْ رِحْلَتِهِ يائِساً بائِساً.

تَخُطُّ قَدَماهُ في الأَرْضِ السَّهْلَةِ، تَفوحُ مِنْهُ رائِحَةُ عِطْرٍ أُنْثَوِيٍّ يُثِيرُ الغَرائِزَ.

ظَنَّ أَنَّهُ تَحَرَّرَ مِنْ قُيودِ التَّارِيخِ، وحَواجِزِ الزَّمَنِ.

تَناسَى أَنَّهُ خَلِيطٌ مِنْ ماضٍ وحاضِرٍ، نِتاجُ هَذا النَّسِيجِ المُرَكَّبِ، ابْنُ هَذا الزَّمانِ الَّذي يُحاوِلُ الانْفِكاكَ مِنْهُ، وما اسْتَطاعَ إِلى ذَلِكَ سَبِيلاً.

أَصَرَّ بَيْنَهُ وبَيْنَ نَفْسِهِ عَلَى أَنَّهُ مُغامِرٌ ماهِرٌ، أَثْبَتَ أَخِيراً رُجُولَتَهُ المَنْسِيَّةَ المَسْكُونَةَ بِغلالاتٍ رَقِيقَةٍ مِنَ الأَلَمِ والجُوعِ والفَقْرِ، والمُكوثِ طَويلاً عَلَى أَعْتابِ أَصْحابِ الشَّأنِ، وفي طَوابِيرِ العاطِلِينَ الباحِثِينَ عَنْ عَمَلٍ.

نَسِيَ أَنَّ هُنالِكَ مَلايينَ مِثْلَهُ.

طُمُوحُهُ الَّذي تَكَسَّرَ عَلَى صَخْرَةِ الواقِعِ لَمْ يُجْبَرْ.

بَحَثَ لِنَفْسِهِ عَنْ مُغامَرَةٍ حَقِيقِيَّةٍ مَهْما كَلَّفَهُ ذَلِكَ مِنْ عَرَقِ جَبِينٍ، المُهِمُّ أَنَّهُ أَثْبَتَ لِلْعالَمِ ولِنَفْسِهِ أَنَّهُ رَجُلٌ قادِرٌ عَلَى كَسْرِ القُيودِ، يَسْتَطِيعُ التَّغَلُّبَ عَلَى ما يَفْرِضُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ حجرٍ؛ لأَنَّهُ عاطِلٌ، لَكِنَّهُ لَمْ يُقَصِّرْ بَحْثاً عَنْ عَمَلٍ شَرِيفٍ.

عَمِلَ حَتَّى في تَمْدِيدِ المَجارِي الصِّحِّيَّةِ، مَعَ أَنَّهُ يَمْلكُ شَهادَةً عالِيَةً.

صَدِيقَتُهُ التي أَحَبَّها في الجامِعَةِ تَخَلَّتْ عَنْهُ أَمامَ أَوَّلِ طارِقِ بابٍ يَمْلكُ شَقَّةً وسَيّارَةً وحِساباً في البَنْكِ.

ما زالَ يَتَحَسَّرُ عَلَى نَفْسِهِ، لَمْ تَسْتَطِعْ كُلُّ كَمِيّاتِ الخُمورِ الرَّدِيئَةِ التي شَرِبَها لأَوَّلِ مَرَّةٍ أَنْ تَمْحِيَ ذاكِرَةَ الأَلَمِ.

ظَلَّ يَمْشِي، لا يَدْرِي إِلى أَيْنَ.

يُرِيدُ أَنْ يُرْغِمَ نَفْسَهُ عَلَى الإِيمانِ أَنَّ المُغامَرَةَ الأَخِيرَةَ أَشْعَرَتْهُ بِالبُطولَةِ، بَلْ إِنَّهُ اليَوْمَ هُوَ البَطَلُ الحَقِيقِيُّ، يُضاهِي أَبْطالَ السِّينَما العالَمِيَّةِ.

وَجْهُهُ الشّاحِبُ الَّذي لَوَّحَتْهُ الشَّمْسُ بِنارِها كانَ يَلْمَحُ إِلى عَكْسِ ما يُرِيدُ.

ـ ما أَحْلاها مِنْ لَيْلَةٍ.

عادَ يَهْذِي؛ الخَمْرُ خَرَّبَتْ رَأْسَهُ، لَكِنَّها لَمْ تَمْحُ ذاكِرَةَ الأَلَمِ.

أَخِيراً وَصَلَ.

فَتَحَ نافِذَتَهُ المُطِلَّةَ عَلَى الشّارِعِ المُظْلِمِ.

الشّارِعُ أَشَدُّ سَواداً مِنْ غابَةٍ في... غابَةٍ لَيْسَ فِيها قَمَرٌ.

النَّاسُ في حارَتِهِ يَنامُونَ بَعْدَ صَلاةِ العِشاءِ مُبَاشَرَةً، عَمَلُهُمْ يَبْدَأُ مَعَ أَذانِ الفَجْرِ، يَخْرُجونَ رِجالاً، نِساءً، وأَطْفالاً، يَبْحَثونَ عَنْ أَرْزاقِهِمْ في كُلِّ مَكانٍ، ولا يَبْقَى في الحارَةِ أَحَدٌ.

قَدْ يَظُنُّها العابِرونَ مَلِيئَةً بِالأَشْباحِ لَيْلاً ونَهاراً.

الحَرَكَةُ فِيها تَقْتَصِرُ عَلَى وَقْتَيْنِ لا ثالِثَ لَهُما: بَعْدَ أَذانِ الفَجْرِ، وعِنْدَ عَوْدَةِ النّاسِ مَنْهوكِينَ مُتْعَبِينَ؛ حَتَّى الثُّمالَةِ قُبَيْلَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ.

يَتَسَلَّلونَ إِلى غُرَفِهِمُ الرَّطبَةِ، وفُرُشِهِمُ العَفِنَةِ، يَفْعَلونَ الشَّيءَ الوَحِيدَ الذي يُحِبُّونَهُ، يُلْقُونَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ بَطانِيّاتٍ بالِيَةً، يغْرقُونَ في نَوْمٍ عَمِيقٍ مِثْل آلاتٍ عَلاها الصَّدَأُ.

هُوَ وَحْدهُ تَمَرَّدَ، اكْتَشَفَ نَفْسَهُ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

مَزَّقَ شَهادَةَ الجامِعَةِ، شَعَرَ أَنَّ وُجُودَهُ لا فائِدَةَ مِنْهُ، اكْتَشَفَ فَجْأَةً أَنَّهُ شَيءٌ ما، لا يَمُتُّ إِلى ماضٍ أو حاضِرٍ.

تَجَسَّدَ الواقِعُ الذي لا يُجَسِّدُ واقِعَهُ، فَكَّرَ؛ رُبَّما لأَوَّلِ مَرَّةٍ في سِنيِّ عُمرِهِ الَّذي تَجاوَزَ الأَرْبَعِينَ، قَرَّرَ التَّمَرُّدَ مَعَ سَبْقِ الإِصْرارِ والتَّرَصُّدِ.

مَساكِينُ أَهْلُ هَذا الحَيِّ الفَقِيرِ!

فَقِيرٌ؟

بَلْ مُعْدَمٌ، لا تُغْرِيهِمُ الحَياةُ.

لا يَهُمُّهُمْ إِلَّا الكَدحَ مِنَ الفَجْرِ حَتَّى غُرُوب الشَّمْسِ، وبَيْنَ المَغْرِبِ والعِشاءِ، يُمارِسونَ الغَريزَةَ إِذا اسْتَطاعُوا؛ لِيَنْسوا ـ لِلَحظاتٍ قَلِيلَةٍ فَقَط ـ تَعَبَ النَّهارِ، وشَقاوَةَ الحَياةِ. وغالِباً ما يَعْجَزونَ.

وَحْدهُ قَرَّرَ اخْتِراقَ حُدُودِ العَقْلِ وذاكِرَةِ الأَلَمِ.

رَسَمَ في رَأْسِهِ أَفْكارَ المَوْتِ البَطِيءِ، المَوْتُ لا يُمْكِنُ، إِنَّها حَياةٌ حِينَما يَعزُّ المَوْتُ.

غَسَلَ يَدَهُ بِصابُونَةٍ قَدِيمَةٍ، حَرَّكَها بِصُعوبَةٍ تَحْتَ ماءٍ بارِدٍ مِثْلِ الثَّلْجِ يابِسَةٍ، مِثْل الصَّخْرِ مِنْ نُدْرَةِ الاسْتِعْمالِ.

ـ لا أَقْبَلُ أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الإِنْسانَ اللّاشَيءَ.

اللّاشَيءُ حَقِيْقَةُ الفَراغِ، يُدَمِّرُ التَّفاصِيلَ الصَّغِيرَةَ حَتَّى الإنْسانَ نَفْسَهُ.

مُغامَرَةٌ حَقِيْقِيَّةٌ خاضَها، لَمْ يَكُنْ يَمْلكُ إلَّا تِلْكَ الدَّراهِمَ البَسِيطَةَ.

أَضاعَها كُلَّها عَلَى لَيْلَةٍ حَمْراءَ، كانَ يَعْلَمُ أَنَّ تِلْكَ الغانِيَةَ تَضْحَكُ عَلَيْهِ، تُوْهِمُهُ أَنَّهُ بَطَلٌ، أَنَّهُ رَجُلٌ، مَعَ أَنَّهُ في الحَقِيْقَةِ لا يُدْرِكُ مَعْنَى الرُّجولَةِ.

لَمْ يَتْرُكْ فُرْصَةً لِنَفْسِهِ.

شَرِبَ حَتَّى الثُّمالَةَ مِنْ أَرْدَأ أَنْواعِ الشَّرابِ، لَمْ يَسْتَطِعْ تَغْيِيبَ ذاكِرَةِ الأَلَمِ، اسْتَجْمَعَ كُلَّ قواهُ المُتَبَقِّيَةِ.

غَسَلَ رَأْسَهُ في طست نُحاسِيٍّ وَرِثَهُ عَنْ أَجْدادِهِ.

نَقَعَ رَأْسَهُ في الطِّستِ، الماءُ بارِدٌ بارِدٌ.

أَيْقَنَ أَنْ لا فائِدَةَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ.

النُّورُ بَدَأَ يَتَسَلَّلُ بِرِفْقٍ، ذاكِرَةُ الأَلَمِ عَلَى حالِها، الحارَةُ تَغْرقُ في ضَوْءٍ جَديدٍ، وَجْهُ الغانِيَةِ السَّاخِرِ وهِيَ تَطْرُدُهُ بَعْدَ أَنْ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ آخِرَ الدَّراهِمِ لا يَسْتَطِيعُ نِسْيانَهُ.

ـ لا بَأْسَ، المُهِمُّ أَنَّني تَأَكَّدْتُ مِنْ رُجولَتي، أو عَلَى الأَقَلِّ هَذا ما بَدا لي.

يُتَمْتِمُ أَمامَ المِرْآةِ المُتَكَسِّرَةِ المَجْروحَةِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، المَوْروثَةِ هِيَ أَيْضاً عَنْ أَجْدادِهِ.

ـ لِمَاذَا تَعَلَّمْتُ؟! أَلَمْ يَكُنِ الأَجْدَرُ بي أَنْ أَكونَ فرَّاناً أو بنَّاءً؟!

عادَ إلى صَمْتِهِ، ارْتَدَى ثَوْبَهُ الوحِيدَ مَرَّةً ثانِيَةً، لَمْ يَغْسِلْ فَمَهُ.

بَقايا الخَمْرِ الرَّديءِ ما زالَتْ تَفُوحُ مِنْ فَمِهِ.

ذَهَبَ إلى مَحَطَّةِ القِطارِ القَرِيبَةِ، انْدَسَّ داخِلَ الدَّرَجَةِ الأَخِيرَةِ.

تِلْكَ الدَّرَجَةُ التي يَبْقَى فِيْها النّاسُ وُقوفاً فَتْرَةً طَويلَةً طَويلَةً.

تَرَكَ القِطارَ يَسِيرُ بِهِ حَيْثما شاءَ، يَتَخَفَّى مِنْ قاطِعِ التَّذاكِرِ، يَبْحَثُ عَنْ تَذْكَرَةٍ واقِعَةٍ عَلَى أَرْضِ القِطارِ، يَبْحَثُ عَنْ مَحَطَّةٍ جَديدَةٍ تُبْعِدُهُ عَنْ حارَتِهِ، عَنْ ذاكِرَةِ الأَلَمِ، عَنْ تِلْكَ الغانِيَةِ الحَمْقاءِ التي ضَحِكَتْ عَلَيْهِ، ونَزَعَتْ جُيُوبَهُ مِنْ قُرُوشِهِ البَسِيطَةِ، ثُمَّ رَمَتْهُ كَقِشْرَةِ مَوزٍ تَدوسُها الأَقْدامُ، لا قِيمَةَ لَها.

سَجَرَةُ التُّفَّاحِ

في بَيْتِنا القَديمِ حَدِيقَةٌ واسِعَةٌ واسِعَةٌ، في وَسَطِها شَجَرَةٌ كَبِيرَةٌ، عَتِيقَةٌ عَتِيقَةٌ، شاخَتْ مَعَ مُضِيِّ السِّنِين.

أَحْبَبْتُها مُنْذُ الصِّغَرِ، كانَ لي مَعَها قِصَصٌ وحَكايا عَلَى مَدَى الفُصُولِ، ومَرَاحِلِ الطُّفُولَةِ والشَّبابِ.

كانَ أَبي يَقُولُ: إِنَّ أُمَّهُ ـ رَحِمَها اللهُ ـ غَرَسَتْها شَتْلَةً صَغِيرَةً مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيْدٍ، لا يَدْرِي مَتَى بِالتَّحْدِيدِ؛ فَقَدْ كانَ طِفْلاً، وهِيَ تَحْمِلُ في قَلْبِهِ ذِكْرَياتٍ غالِيَةً عَزِيزَةً.

لِذَا ظَلَّ يَرْعاها، ويَهْتَمُّ بِها كَأَنَّها فَرْدٌ مِنْ أُسْرَتِنا، يَقُومُ بِتَنْظِيفِ الأَرْضِ مِنَ الأَوْراقِ السّاقِطَةِ مِنْها، بِالرَّغْمِ مِنْ وُجودِ جَنايني مَهَمَّتُهُ رِعايَةُ زُهورِ وأَشْجارِ الحَدِيقَةِ الكَبِيرةِ، يَعْتَبِرُ أَوْرَاقَها السّاقِطَةَ شَيْئاً غالِياً.

في مَوْسِمِ التُّفَّاحِ كُنَّا نَفْرَحُ كَثِيراً عِنْدَما يَقُومُ أَبي بِنَفْسِهِ بِقَطْفِ ثِمَارِها، ويُقَدِّمُها لَنا؛ بِاعْتِبارِها أَحْلَى وأَغْلَى هَدِيَّةٍ سَنَوِيَّةٍ مُسْتَمِرَّةٍ مِنْ أُمِّهِ ـ يَرْحَمُها اللهُ.

كُنّا نَشْعُرُ وكَأَنَّ هُناكَ عِيداً اسْمُهُ «عِيدُ التُّفَّاحِ».

كُنَّا نَتَرَقَّبُ المَوْعِدَ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، لِنَرَى تِلْكَ الفَرْحَةَ الغامِرَةَ الَّتي يَعِيشُها أَبي، وهُوَ يُرَاقِبُ الشَّجَرَةَ تُزْهِرُ وتُثْمِرُ وتُخْرِجُ خَيْرَاتِها، «هَدِيَّةَ الأُمِّ»، جَدَّتِنا الغالِيَةِ.

كانَ أَبي يَمْنَعُنا مِنَ الاقْتِرابِ مِنْها؛ حَتَّى بَعْدَ أَنْ يَنْتَهِيَ المَوْسِمُ، ولَمْ يَكُنْ يَسْمَحُ لَنا بِاللَّعِبِ في ظِلِّ الشَّجَرَةِ؛ كَيْلا نَتَسَلَّقَها، ونَكْسِرَ أَغصانَها.

لَقَدْ كانَ يَحْمِلُ لَها في قَلْبِهِ حُبّاً وَفِيّاً، أَصْدَقَ مِنْ رِواياتِ الوَفاءِ والحُبِّ التي نَسْمَعُ عَنْها الكَثِيرَ الكَثيرَ.

مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى الشَّجَرَةِ؛ بَنَى حَوْلَها سُوراً خَشَبِيّاً مُرْتَفِعاً، فَلا يُمْكِنُ الوُصولُ إِلَيْهَا إِلَّا عَبْرَ بَوّابَةٍ صَغِيرَةٍ، ولَها قِفْلٌ ومُفْتاحٌ واحِدٌ، مَكانُهُ الدّائِمُ في خِزانَةِ أَبي.

مَعَ الأَيّامِ كَبُرْنا، وكَبُرَ أَبي، وشاخَتِ الشَّجَرَةُ.

أَصْبَحَ مَنْظَرُها لا يَتَوافَقُ مَعَ مَشْهَدِ الحَديقَةِ العامِّ.

مَوْقِعُها يَتَنافَرُ مَعَ مَوْقِعِ الأَشْجارِ الأُخْرَى التي تُحِيطُ بِالحَدِيقَةِ، وتُشَكِّلُ سُوراً طَبِيعيّاً.

كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ إِعْدامَ الشَّجَرَةِ كانَ مُسْتَحِيلاً.

اخْتَرْتُ أَهْوَنَ الحلُولِ؛ عَرَضْتُ عَلَى أَبي أَنْ نَنْقُلَها بِعِنايَةٍ إِلى مَكانٍ مُناسِبٍ في أَحَدِ الأَرْكانِ، وبِذَلِكَ تَبْقَى في الحَدِيقَةِ، ولا تُسَبِّبُ تَشْوِيهاً لِلْمَنْظَرِ.

احمَرَّ وَجْهُ أَبي غَيْظاً، انْتَفَضَ في مَجْلِسِهِ غاضِباً.

قَالَ كَلِمَةَ الفَصْلِ:

ـ لَنْ تَنْتَقِلَ الشَّجَرَةُ مِنْ مَكانِها ما دُمْتُ حَيّاً.

احْتَرَمْنا إِرادَةَ أَبي. لَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ مِنْ إِخْوَتِي عَلَى اجْتِثاثِها رَغْمَ ما تُسَبِّبُهُ لَنا مِنْ إِزْعاجٍ.

عِنْد وَفاةِ أَبي لَمْ يُوصِ أَحَداً بِالشَّجَرَةِ التي أَحَبَّ وأَخْلَصَ لَها طوالَ عُمرِهِ.

لَقَدْ كان بِإِمْكانِهِ أَنْ يُوصِيَ بِها، لَكِنَّهُ عَرَفَ مِقْدارَ المُعاناةِ الَّتي تَحَمَّلَها مِنْ أَجْلِها؛ لِتَبْقَى

ذِكْرَى جَمِيلَةً مِنْ أُمِّهِ؛ فَإِنْ كَانَتْ مُلْزِمَةً في حَقِّ نَفْسِهِ؛ فَإِنَّها لَيْسَتْ بِالضَّرورَةِ مُلْزِمَةً في حَقِّ أَوْلادِهِ.

أَغْلَقَ عَينَيهِ بِصَمْتٍ، لَمْ يَطْلُبْ مِنْ أَحَدٍ مِنّا المُحافَظَةَ عَلَى الشَّجَرَةِ في مَكانِها.

والآن، وبَعْدَ سَنَواتٍ طَويلَةٍ، لا تَزالُ الشَّجَرَةُ في مَكانِها، جَفَّتْ عُروقُها وأَغْصانُها، لا تُثْمِرُ، لا وَرَقَ فِيْها إِلَّا ما نَدَرَ، لَولا اخْضِرارٌ بَسِيطٌ فَيْها لأَعْلَنّا مَوتَها مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيْدٍ.

وفي يَوْمٍ، اجْتَمَعَتْ زَوْجَتي وأَوْلادِي، ثُمَّ خَرَجُوا لِيُعْلِنوا قَراراً بِالإِجْماعِ:

ـ لا لِلشَّجَرَةِ، لا نُرِيدُها. لَقَدْ أَصْبَحَ شَكْلُها مُخِيفاً ومُزْعِجاً.

صاحُوا جَميْعاً:

ـ إِنَّها عَجوزٌ، لا فائِدَةَ مِنْها.

لَمْ أَغْضَبْ، لَمْ أَرْفَعْ صَوتي، بَلْ تَمْتَمْتُ بِهُدوءٍ، مُكَرِّراً ما قَالَهُ أَبي قَبْلَ سِنِينَ طَويلَةٍ:

ـ لَنْ تُنْزَعَ هَذِهِ الشَّجَرَةَ مِنْ مَكانِها ما دُمْتُ حَيّاً. اللَّهُمَّ ارْحَمْ أَبي وجَدَّتي.

مِنْ سِجْنِ الحَياةِ إلى سِجْنِ النِّساءِ

ـ سَيِّدي القاضِي، أَنا امْرَأَةٌ مِسْكِينَةٌ، ما عَرَفَتْ يَوْماً مَعْنَى الحَرامِ، ولا اقْتَرَفَتْ يَدَايَ جُرْماً اسْتَحَقَّ مَعَهُ كُلَّ هَذا العَذابِ.

كُلُّ الأَدِلَّةِ التي جاؤوا بِها كَذِبٌ وافْتِراءٌ، لَيْسَتْ حَقِيْقِيَّةً، لا شَكَّ أَنَّهُمْ يَتَحَدَّثونَ عَنِ امْرَأَةٍ أُخْرَى، لَسْتُ أَنا هِيَ بِالتَّأْكِيدِ.

لا أَعْرِفُ الأَحْداثَ التي يَذْكُرُونَها، أَنا لا أَطْلُبُ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ، ولا أَسْتَجْدِي مِنْكُمُ العَطْفَ والرَّأْفَةَ، فَأَنا بَرِيْئَةٌ رَغْمَ كُلِّ ما قِيلَ عَنِّي.

لا أُرِيدُ الرَّحْمَةَ، لا أُرِيدُ البَراءَةَ، أُرِيدُ حَقِّي في الحُرِّيَّةِ.

ابْحَثُوا عَنِ المَرْأَةِ التي يَتَحَدَّثُونَ عَنْها، فَأَنا لَسْتُ هِيَ بِالتَّأْكِيدِ. كَفَى! كَفَى.

كَانَت تَتَحَدَّثُ بِقُوَّةٍ، لَمْ تَثْنِ كُلُّ الأَحْداثِ المُرْعِبَةِ مِنْ عَزِيمَتِها، بَلْ زادَتْها قُوَّةً وتَصْمِيماً وعُنْفُوانَ.

القاضِي رَفَعَ الجَلْسَةَ لِلْمُداوَلَةِ:

ـ «مَحْكَمَة». حَكَمَتِ المَحْكَمَةُ حُضُورِيّاً عَلَى المُتَّهَمَةِ «حُورِيَّة صَبْرِي» بِالسِّجْنِ عَشْرَ سَنَواتٍ. رُفِعَتِ الجَلْسَةُ.

لَمْ تَسْقُطْ مِنْ عَيْنَيْهَا دَمْعَةٌ واحِدَةٌ.

هي قَوِيَّةٌ، صَلْبَةٌ، نَكَباتُ الدَّهْرِ عَلَّمَتْها الصَّبْرَ.

الحُضُورُ كانَ سَعِيداً بِقَرارِ المَحْكَمَةِ، كَلِماتُها، نَظَراتُها، ثِقَتُها الزّائِدَةُ بِنَفْسِها، رَفْضُها اسْتِدْرارَ عَطْفِ الحاضِرِينَ لَمْ يَتْرُكْ كُلُّ ذَلِكَ مَجالاً لِشُعورٍ حَتَّى بِالشَّفَقَةِ نَحْوها.

حَياتُها الطَّويلَةُ وهي تَبْدَأُ أُوْلى خُطُواتِها داخِلَ السِّجْنِ عادَتْ إِلَيْهَا بِكُلِّ ذِكْرَياتِها الحُلْوةِ والمُرَّةِ:

ـ خَمْسونَ سَنَةً كامِلَة مَضَتْ، خَمْسُونَ سَنَةً في سِجْنِ الحَياةِ الواسِعِ، فِما هِيَ لسُّنونُ العَشْرُ داخِلَ القُضْبانِ؟.

لَمْ تَكُنْ مُبالِيَةً، لَمْ تَطْلُبِ اسْتِئْنافَ الحُكْم. السِّجْنُ بِالنِّسْبَةِ لَها مَحَطَّةُ اسْتِراحَةٍ ؛ بَعْدَ رِحْلَةٍ طَويلَةٍ مِنَ العَذابِ، لَيْسَ الآنَ فَقَط، بَلْ مُنْذُ الولادَةِ.

أُمُّها المِسْكِينَةُ حَمَلَتْها بَعْدَ وَفاةِ زَوْجِها رَضِيعاً، وانْتَقَلَتْ بِها إِلى المَدِينَةِ، لَمْ يَقْبَلْ أَحَدٌ أَنْ تَعْمَلَ عِنْدَهُ بِرِفْقَةِ طِفْلَتِها.

ظَنُّوا أَنَّها هارِبَةٌ، أَنَّها حَمَلَتْ سِفاحاً.

عَرَضَ عَلَيْها رِجالٌ كَثِيرونَ «شَهامَتَهُم» التي كانَت تُخْفِي طَمَعاً بِلَحْمِ هَذِهِ المَرْأَةِ الضَّعِيفَةِ.

لَمْ تَجِدْ مَكاناً تَأْوِي إِلَيْهِ، دَافَعَتْ عَنْ شَرَفِها بِشِدَّةٍ، الوُحوشُ لَمْ تَرْحَمْ تَوَسُّلاتِها، لَمْ تَرْحَمْ بُكاءَ طِفْلَتِها الرَّضِيعِ، لَمْ تَسْتَطِعِ احْتِمالَ كُلِّ القَهْرِ الَّذي أَصابَها، لَمْ تَقْوَ عَلَى اغْتِصابِ كَرامَتِها.

في اليَومِ الثّاني اكْتَشَفَ المارَّةُ طِفْلَةً مَلْفُوفَةً بِعَباءَةِ الأُمِّ السَّوداءِ، وعَلَى العَباءَةِ آثارُ دِماءٍ، والطِّفْلَةُ تَكادُ تَتَجَمَّدُ مِنَ البَرْدِ.

أَمّا الأُمُّ فَوَجَدوها بَعْدَ أَيّامٍ طَافِيَةً قُرْبَ شاطِئِ النَّهرِ الذي يَخْتَرِقُ المَدِينَةَ.

نَشَأَتِ الطِّفْلَةُ في يُتْمٍ؛ لا أَبَ، ولا أُمَّ.

كَانَت تُراقِبُ الأَطْفالَ الَّذينَ يَسِيرونَ في الشَّوارِعِ، يُمْسِكونَ أَيْدِي أُمَّهاتِهِمْ وآبائِهِمْ.

كَبُرَتْ، وكَبُرَتْ مَعَها آلامُها.

تَكَرَّرَتْ مَأْساةُ الأُمِّ؛ «شهامَةُ الرِّجالِ» تَزْدادُ عِنْدَ امْرَأَةٍ وَحِيدَةٍ، الكُلُّ يُقَدِّمُ خَدَماتِهِ، الكُلُّ يُرِيدُ قِيمَةً واحِدَةً لِلْخِدْمَةِ.

وَرِثَتْ عَنْ أُمِّها شَيْئاً خاصّاً؛ لَمْ تَسْتَسْلِمْ لِكُلِّ المُغْرِياتِ، جابَهَتْ حَتَّى المَوتِ، تَعَلَّمَتْ.

كَانَت تُرِيدُ إِكْمالَ دِراسَتِها، لَكِنْ... مَنْ يُعَلِّمُها؟

وَقَفَتْ عِنْدَ المَرْحَلَةِ المُتَوَسِّطَةِ، بَدَأَتْ تَعْمَلُ شَغّالَةً في البُيُوتِ.

المَيْتَمُ لا يَتَّسِعُ إِلَّا لِعَدَدٍ مَحْدودٍ مِنَ الأَيْتامِ.

عِنْدَما يَكْبرُ الصِّغارُ قَلِيلاً يَبْحَثُونَ لَهُمْ عَنْ عَمَلٍ ومَكانٍ يُقِيمُونَ فِيهِ.

زَوْجُ السَّيِّدَةِ التي تَعْمَلُ عِنْدَها لَمْ يَرْحَمْ طُفولَتَها؛ مُسِنٌّ، كَرِيهٌ، رائِحَةُ العَفَنِ تَفوحُ مِنْ فَكَّيهِ.

اغْتَصَبَ بَراءَتَها.

لَمْ تَسْتَوْعِبْ ما يَحْدُثُ، لَكِنَّها رَفَضَتْ، غَرِيزَتُها أَبَتْ ذَلِكَ.

أَغْراها بِالمالِ، بِالعَطْفِ،أَظْهَرَ لَها ابْتِسامَةً تُخْفِي مَكْراً عَظِيماً، لَكِنَّها لَمْ تَسْتَسْلِمْ.

عَضَّتْهُ في يَدِهِ، كادَتْ تَنْهَشُ لَحْمَهُ، ذاقَتْ طَعْمَ الدَّمِ لأَوَّلِ مَرَّةٍ، لَمْ تَسْمَحْ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئاً مِنْ شَرَفِها.

هامَتْ في الشَّوارِعِ بائِسَةً، خَرَجَتْ في ثِيابٍ بَسِيطَةٍ؛ لا مالَ، لا طَعامَ، لا مَأْوَى.

ادَّعَى أَنَّها كَانَت تَسْرقُ، حاوَلَ القَبْضَ عَلَيْها، لَكِنَّهُ كَبِيرٌ بِالسِّنِّ.

كَانَتْ أَقْوَى مِنْهُ، سَرَقَتْ مالَهُ، وهَرَبَتْ.

أَخْفَى الحَقِيْقَةَ؛ فَماذا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ لِزَوْجَتِهِ، لأَبْنائِهِ.

صَدَّقَتْهُ الشرطَةُ، صَدَّقَهُ القاضِي، صَدَّقَتْهُ زَوْجَتُهُ رَغْمَ أَنَّها لَمْ تُصَدِّقْهُ.

رَجُلٌ مُحْتَرَمٌ مِنْ أُسْرَةٍ مُحْتَرَمَةٍ، مُوَظَّفٌ كَبِيرٌ، لِمَاذَا يَكْذِبُ؟

هِيَ مُتَشَرِّدَةٌ؛ لا أَبَ، ولا أُمَّ، هِيَ السّارِقَةُ، ولا فائِدَةَ مِنَ الكَلامِ الَّذي تَقُولُهُ.

مَكَثَتْ في سِجْنِ الأَحْداثِ سَنَواتٍ.

تَعَرَّفَتْ عَلَى كُلِّ صُنوفِ الانْحِرافِ، صَمَدَتْ، لَمْ تَتَأَثَّرْ.

وَرِثَتْ عَنْ أُمِّها نَزْعَةَ الخَيْرِ، حاوَلَتِ الفَتَياتُ هُناكَ أَنْ يُفْسِدْنَها.

كانَ يُسِيءُ أَكْثَرُهُنَّ لهَذِهِ المِسْكِينَةِ، وإِصْرارِها عَلَى التَّمَسُّكِ بِالشَّرَفِ.

هُنَّ يُمَيِّزْنَ أَكْثَر مِنَ الشرطَةِ، ومِنَ القاضِي؛ يَعْرِفْنَ مَنْ مِنْهُنَّ الشَّرِيفَةَ العَفِيفَةَ، ومَنْ هِيَ المُنْحَرِفَةُ.

صَمَدَتْ، لَمْ تَتَأَثَّرْ.

خَرَجَتْ ناضِجَةً؛ جِسْمُها اسْتَدارَ، أُنوثَتُها اكْتَمَلَتْ، نِقْمَتُها عَلَى النّاسِ والمُجْتَمَعِ ازْدَادَتْ، لَكِنْ مَنْ يُوَظِّفُ عِنْدَهُ مِثْلَ هَذِهِ الفَتاةِ؟! مَنْ يُفَكِّرُ بِالزَّواجِ مِنْ فَتاةٍ مِثْلها؟!

فَكَّرَتْ بِالعَوْدَةِ إِلى قَرْيَتِها البَعِيْدَةِ الَّتي لا تَعْرِفُ غَيْرَ اسْمِها: «دِير الشَّمْس».

لَكِنْ مَنْ يَسْتَقْبِلُها هُناكَ؟ لا عَمَّ، ولا خالَ، ولا أَقارِبَ؛ حَتَّى لَوْ وَجَدَتْ أَقارِبَ لَها؛ هَلْ سَيُصَدِّقُها أَحَدٌ؟

لَقَدْ صَدَّقَتْها بَناتُ السِّجْنِ لِخِبْرَتِهِنَّ، ولَمْ يُصَدِّقْها المُحَقِّقُ.

القاضِي حَكَمَ بِشَهادَةِ الرَّجُلِ المُعْتَدِي.

كَانَت تُفَكِّرُ: كَيْفَ اسْتَراحَ ضَمِيرُ ذَلِكَ الرَّجُلِ؟

كَيْفَ قامَ بِذَلِكَ دُونَ أَنْ يَرْحَمَ طُفُولَتَها وحَياتَها، وحَكَمَ عَلَيْها بِالمَوتِ؟!

ومَعَ ذَلِكَ لَمْ تَسْتَسْلِمْ.

في كُلِّ مَكانٍ بَحَثَتْ فِيهِ عَنْ عَمَلٍ كَانَت تُسْأَلُ عَنْ ماضِيْها.

وهِيَ تَقُولُ الحَقِيْقَةَ، لا تُحاوِلُ إِخْفاءَها.

العُروضُ انْهالَتْ عَلَيْها مِنْ أَصْحابِ العَمَلِ والمُوَظَّفِينَ الكِبارِ، لَكِنْ «خارِجَ إِطارِ العَمَلِ».

ما يُعْجِبُهُمْ فِيْها؟ هَيْكَلٌ عَظْمِيٌّ وبَقايا امْرَأَةٍ.

لَكِنْ يَبْدُو أَنَّ شَهْوَةَ الرِّجالِ لا تُمَيِّزُ إِلَّا بَعْدَ انْقِضائِها.

العُرُوضُ كَانَتْ واضِحَةٌ جِدّاً، تَصْرِيْحاً وتَلْمِيْحاً:

ـ لِنَقْضِ وَقْتاً مُمْتِعاً في مَكانٍ جَمِيلٍ، سَوْفَ تَنالِينَ ما يُرْضِيكِ.

الجَوابُ الَّذي كَانَت تَمْلكُهُ واحِدٌ لا يَتَغَيَّرُ:

ـ «تْفُووووووووووووه».

طَلقَةُ رَصاصٍ مُحَدَّدَةُ الهَدَفِ؛ تَبْصُقُ حَتَّى يَتَطايَرَ البُصاقُ، أَصْبَحَتْ ماهِرَةً في ذَلِكَ، بَلْ كَانَت تُحَضِّرُ البَصْقَةَ مُسْبَقاً لِمَعْرِفَتِها وثِقَتِها بِما يَحْدُثُ.

أَمّا النِّساءُ فَلَمْ تَكُنْ واحِدَةٌ مِنْهُنَّ تَقْبَلُ تَشْغِيلَها.

سِجِلُّها السَّابِقُ يَقُولُ أَنَّها سارِقَةٌ، أُنُوثَتُها الحالِيَّةُ، شَبابُها، مَحَلٌّ اتِّهامٍ دائِمٍ.

مَنْ تُخاطِرُ بِواحِدَةٍ مِثْلِها في مَنْزِلِها؟! مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّها قَدْ تَفْتِنُ زَوْجَها وأَوْلادَها.

هِيَ أَيْضاً لَمْ تَكُنْ راغِبَةً في الأَصْلِ أَنْ تَعْمَلَ شَغّالَةً في المَنازِلِ.

تَجْرِبَتُها الأُولَى رَمَتْها في السِّجْنِ سَنَواتٍ طَويلَةً مَعَ أَنَّها بَرِيئَةٌ، والسِّجْنُ «لَيْسَ إِلَّا لِلْمُجْرِمِينَ»!!!

عاشَتْ تَتَمَنَّى المَوْتَ.

قَبَضَتْ عَلَيْها دَوْرِيَّةُ شرطَةٍ وهِيَ نائِمَةٌ تَحْتَ جِسْرٍ، اتَّهَمَتْها الشرطَةُ بِالتَّشَرُّدِ.

ضابِطُ الشرطَةِ هَمَسَ لَها: ـ

ـ تَخْرُجِينَ الآنَ بِشَرْطٍ.

ـ «تْفُووووووووووووووووه».

بَصَقَتْ في وَجْهِهِ.

لِيُخْفِيَ جَرِيمَتَهُ سَجَّلَ لَها «إِهانَةُ شُرطِيٍّ يُزاوِلُ عَمَلَهُ».

قَضَتْ في السِّجْنِ بِضْعَةَ شُهورٍ؛ لأَنَّ القاضِي لَمْ يُصَدِّقْها.

صَمَدَتْ، لَمْ تَتَنازَلْ، صارَتْ نَزِيلَةً دائِمَةً في السُّجُونِ.

كُلَّما حَدَثَتْ سَرِقَةٌ أو جَرِيمَةٌ اسْتَدْعَتْها الشرطَةُ لِلتَّحْقِيقِ، ويَبْدَأُ التَّهْديدُ والوَعِيدُ، وأَخِيراً الضَّرْبُ.

باعَتْ عَلَى الطُّرُقاتِ كُلَّ شَيءٍ إِلَّا لَحْمَها.

الْتَقَتْ بِشابٍّ مُتَشَرِّدٍ مِثْلِها.

حَتَّى هُوَ لَمْ يَرْحَمْ عَذاباتِها، ضَرَبَتْهُ بِيَدِها بِكُلِّ قُوَّةٍ، وَقَعَ عَلَى الأَرْضِ، ثُمَّ فَرَّ هارِباً.

ظَنَّتْهُ سَيُقَدِّرُ مَصائِبَها، لَكِنَّهُ لَمْ يَكْتَرِثْ. كانَ مِثْلَ غَيْرِهِ مِنَ الرِّجالِ.

حاوِياتُ الطُّرُقاتِ تَعْرِفُها؛ تَبْحَثُ في القُمامَةِ عَنْ طَعامٍ مَرْمِيٍّ، قِطَعُ خُبْزٍ يابِسٍ، عُلَبٌ فارِغَةٌ، مَلابِسُ قَدِيمَةٌ، أَيُّ شَيءٍ يُمْكِنُ تَنْظِيفُهُ، وإِعادَةُ بَيْعِهِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ.

مَضَتْ أَيّامٌ وأَيّامٌ، شاخَتْ قَبْلَ أَوانِها، لَكِنَّها لَمْ تَسْقُطْ.

كَانَت تَذوقُ الدَّمَ، ولا تَسْمَحُ لأَحَدٍ أَنْ يَسْرِقَ عِفَّتَها.

صَمَدَتْ رَغْمَ كُلِّ شَيءٍ.

ابيَضَّ نِصْفُ شَعْرِها، تَقَلَّبَتْ في آلامِ الحَياةِ، ولَمْ تَسْتَسْلِمْ؛ حَتَّى جاءَ يَومٌ وَوَقَعَتْ مُجَدَّداً في قَبْضَةِ الشرطَةِ.

قِيْلَ: إِنَّها تِلْكَ المَرْأَةُ التي يَبْحَثونَ عَنْها.

أَنْكَرَتْ، لَكِنَّ «حَضْرَةَ القاضِي» لَمْ يُصَدِّقْها، ظَلَّ الماضِي يُلاحِقُها.

الاعْتِرافاتُ تَقُولُ أَنَّها هِيَ، وشَهِدَ البَعْضُ أَنَّها هِيَ بِالفِعْلِ.

ضَحِكاتٌ ساخِرَةٌ كَانَت تُسْمَعُ مِنْ داخِلِ القاعَةِ؛ ضِحْكَةٌ نِسائِيَّةٌ ساخِرَةٌ.

أَكْثرُ مِنْ شَخْصٍ ادَّعَى أَنَّها تِلْكَ الَّتي يَبْحَثُونَ عَنْها، كُلُّ القَرائِنِ كَانَتْ ضِدَّها، لَمْ يَكْفلْ لَها ماضِيها شَيْئاً مِنَ الرَّحْمَةِ.

بَعْدَ صُدورِ الحُكْمِ رَأَتِ المَرْأَةَ ذاتَ الضِّحْكَةِ السّاخِرَةِ، تُلَوِّحُ لَها مِنْ بَعِيْدٍ، وعَلَى ثَغْرِها ابْتِسامَةٌ ماكِرَةٌ.

غَادَرَتِ المَرْأَةُ مَكانَها، اتَّجَهَتْ نَحْوَ مَخْرَجِ القاعَةِ مُطْمَئِنَّةً، سَعِيدَةً بِالحُكْمِ.

اللَّيْلَةُ الأَخِيرَةُ

لا يُوْجَدُ شَيءٌ مُرِيحٌ، المِنْضَدَةُ المُهْمَلَةُ في رُكْنٍ جانِبِيٍّ تُلْقِي عَلَى المَكانِ مَزيداً مِنَ الغُمُوضِ والتَّحَدِّي.

وهَذا الكُرْسِيُّ البُنِّيُّ يَجْعَلُني أَتَمَنَّى لو فَكَّرْتُ أَلْفَ مَرَّةٍ قَبْلَ أَنْ أُقَرِّرَ المَجيءَ إلى هُنا.

وَحْدي أَنا مُقابِلَ «شَاشَةِ التِّلِفِزْيون» الافْتِراضِيَّةِ، أَسْتَلْقِي عَلَى فِراشٍ «وَثِيرٍ»؛ لا يُشْعِرُني بِالرّاحَةِ أَبَداً.

رَفَعْتُ السَّتائِرَ، ثُمَّ أَسْدَلْتُها مَرّاتٍ ومَرّاتٍ، الطَّرِيقُ مَهْجورَةٌ كَأَنَّها مَسْكونَةٌ بِالأَشْباحِ، لَكِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ الأَشْباحَ نَفْسَها هَجَرَتِ الطَّرِيقَ، وسَكَنَتْ طُرُقاً مُخْتَلِفَةً.

لَمْ يَسْبِقْ لي أَنْ مَرَرْتُ بِتَجْرِبَةٍ مُماثِلَةٍ، وقَدْ يَكونُ مِنَ الغَباءِ أَنْ تَمُرَّ هَذِهِ التَّجْرِبَةُ دُونَ أَنْ أُدَوِّنَها عَلَى الحائِطِ، لَعَلَّ الأَمْرَ يَسْتَدْعِي التَّرَيُّثَ، لَسْتُ أَفْهَمُ سَبَبَ كُلِّ هَذِهِ العَجَلَةِ، لَمْ يَكُنْ مُلائِماً ما حَدَثَ.

الأَشْياءُ مِنْ حَوْلِي تَعْتَرِضُ، لَكِنَّها في النِّهايَةِ لا تَمْلكُ إِلَّا أَنْ تَسْتَسْلِمَ، وهِيَ في الحَقِيْقَةِ لا تَسْتَسْلِمُ؛ لأَنَّ الأَمْرَ أَشَدُّ وَطْأَةً مِنَ الاسْتِسْلامِ نَفْسِهِ.

ساعَةٌ واحِدَةٌ وتَغِيبُ الشَّمسُ، رَغْمَ أَنِّي لَمْ أَنْتَبِهْ أَساساً إلى أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ أَشْرَقَتْ، فَكَيْفَ تَعِيشُ الشَّمْسُ عَلَى مَغْرِبِها؟

الأَشْياءُ مِنْ حَوْلِي تَرْتَجِفُ، تَذُوبُ مِثْل قِطْعَةِ سُكَّرٍ في كوبِ ماءٍ.

نَفْسِي لَيْسَتْ مُشْتاقَةً إِلَّا إِلى «لُفافَةِ سَجائِر» ودُخانِها الأَبْيَضِ.

شابٌّ آسْيَويٌّ يُريدُ الدُّخولَ لِتَنْظِيفِ الغُرْفَةِ، وهَلْ هَذِهِ غُرْفَةٌ؟! ثُمَّ مَنْ قَالَ لَهُ أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنَظِّفَها، أَنْ أَمْحُوَ عَنْها كُلَّ الذِّكْرَى؟! أَخْفَيْتُ عَنْهُ شَعْرَتَيْنِ صَغِيرَتَينِ، وَقَعَتا أَرْضاً كَيْلا تَمْتَصَّهُما آلَةُ التَّنْظِيفِ.

أَشْيائي الصَّغِيرةُ تَمْلأُ المَكانَ مِثْل تِلْكَ الشَّجَرَةِ العِمْلاقَةِ أَمامَ بابِ المَبْنَى؛ الَّتي تَنْتَصِبُ بِفَخْرٍ، فَهِيَ لَمْ تَكُنْ سِوَى بِذْرَةٍ جافَّةٍ، لو ضَرَبَها حَجَرٌ لانْفَلَقَتْ، أَمّا اليَوم فلا تَهُزُّها رِيحٌ.

هي أَقْوَى مِنِّي بِكَثيرٍ، لو صارَعْتُ جِذْعَها لَصَرَعَني، فَهُوَ أَسْمَنُ وأَشَدُّ.

أَنْهَكَنيَ الأَلَمُ، وأَرْهَقَتْني الوِحْدَةُ، فِيما تَبْدو ثَمَراتُها أَيْنَعَ وأَبْلَغَ مِنْ كُلِّ الكَلِماتِ.

سَوْفَ أُبْقِي هَذِهِ السَّتائِرَ مُسْدَلَةً، والأَضْواءَ مُطْفَأَةً إِلى أَنْ يَحِينَ المَوْعِدُ.

جارِي ـ نَزِيلُ الغُرْفَةِ المُجاوِرَةِ ـ مُزْعِجٌ، رُبَّما تَنْتابُهُ الكَوابِيسُ.

أَنا لَمْ أَنَمْ ساعَةً كامِلَةً مُنْذُ أَن سَكَنْتُ هَذِهِ الغُرْفَةَ، يَتَحَدَّثُ في مَنامِهِ لُغَةً لا أَفْهَمُها، يَصِلُني صَوْتُهُ المُفْزِعُ، لَكِنَّهُ لا يُزْعِجُني، فَهُوَ أَنِيسُ وحْدَتي مِنْ وَراءِ الأَبْوابِ المُوصَدَةِ عَلَى الدَّوامِ.

أَتَخَيَّلُ في وحْدتي أَشْياءَ وأَشْياءَ، وأَنا عَلَى سَرِيري «الوَثِيرِ»، أو في الحمّامِ «المُثِيرِ»، بَعْدَ أَن نَسِيتُ شَكْلَ الشَّمْسِ وتَدْوِيرَ القَمَرِ، ونَسائِمَ الرَّبِيعِ، وزَخّاتِ المَطَرِ.

كَأَنِّي قَضَيْتُ نِصْفَ عُمري في هَذا المَكانِ هُنا؛ حَيْثُ تُوْلَدُ الحَكايا كُلَّ يَوْمٍ، ولا تَنْتَهي، أَجْلِسُ عَلَى هَذا الكُرْسِي البُنِّيِّ، أَصْلُبُ نَفْسي عَلَيْهِ، وأَدْفُنُ قَلْبي فِيه.

يَفْهَمُني الكُرْسِي وأَفْهَمُهُ، اخْتَرْتُهُ مِنْ بَيْنِ كُلِّ كَراسِي الأَحْلامِ؛ لأَخْتَلِيَ بِهِ وأَتَوَسَّدَهُ.

عَلَى الحائِطِ رَسْمان، وَجْهٌ يَضْحَكُ، أَنْفُهُ حَمامَةٌ، وَوَجْهٌ آخَرُ كَئِيبٌ؛ أَنْفُهُ عَصا.

بَيْنَ الرَّسْمَيْنِ تَآلُفٌ ووِئامٌ، رَغْمَ ما بَيْنَهُما مِنِ اخْتِلافٍ وقِلَّةِ انْسِجامٍ، الْتَقَيا مَعاً عَلَى جِدارٍ واحِدٍ، لَمْ أَرْسُمْهُما أَنا، ولا النَّزيلُ الَّذي قَبْلِي، رُبَّما جاءا مَعَ الجِدارِ، وسَكَنا المَكانَ مِثْلِي رَغْماً عَنْهُما؛ لِيُصْلَبا عَلَى الجِدارِ، كَما أَنا مَصْلوبٌ عَلَى الكُرْسِي.

أَحَدُ الوَجْهَينِ مُسْتاءٌ ومُتَعاطِفٌ مَعَ كآبَتي، والثّاني في عَينَيهِ حُزْنٌ وأسى، لَكِنَّهُ يَبْتَسِمُ لي لِيَمْنَحَني الأَمَلَ.

جُدْرانُ الغُرْفَةِ مِثْلُ الأَحلامِ، لَكِنِّي يَئِسْتُ مِنْها، وهَذِهِ النّافِذَةُ التي رَسَمْتُها عَلَى الحائِطِ لا تُطِلُّ إِلَّا عَلَى الأَشْياءِ التي لا أَتَمَنّاها، وكُلّ يَومٍ هي في شَأْنٍ.

لا أَدْرِي؟! هَلْ كانَ سَجّاني يُرِيدُ أَنْ يُسْعِدَني، أَمْ يَزِيدني أَلَماً عِنْدَما أَحْضَرَ لي كُلَّ هَذِهِ الأَلْوانِ لأَرْسُمَ بِها عَلَى حَوائِطِ سِجْني؟!

أَلَمْ يدرْ بِأَنَّ الرَّسْمَ عَلَى الجُرْحِ يَزِيدُهُ إِيلاماً؟!

كَأَنَّما كانَ يَنْقُصُني اللَّونُ الأَحْمَرُ، فَأَكْثَرَ مِنْهُ؛ لِيُذَكِّرَني بِأَنَّ غَداً يَوْمُ رَحِيلي عَنْ هَذا المَكانِ. وأَنِّي سَأَهْجُرُ الغُرْفَةَ التي سَكَنْتُها زَمَناً مُمِلاً، أَشْطُبُ الوُجوهَ بَعْدَ رَسْمِها، ثُمَّ أَعُودُ إِلى الكُرْسِي البُنِّي لأَحْضِنَهُ أو يَحْتَضِنَني، لَسْتُ أَدْرِي.

غُرْفَتي هَذِهِ ضَيِّقَةٌ، أَضْيَقُ مِنْ جُحْرِ فَأْرٍ، وأَخْشَنُ مِنْ عُشِّ عُصْفُورٍ، وأَيُّ عُصْفُورٍ أَنا وغَداً مَوْعِدُ رَحِيلي؟! فَلَنْ يَبْقَى لي أَثَرٌ غَيْرِ تِلْكَ الشَّعْرَتَينِ، ولَنْ تَدْمَعَ عَيْنٌ.

فَتْرَةٌ طَوِيلَةٌ قَضَيْتُها في هَذا السِّجْنِ الانْفِرادِيِّ، أَنْتَظِرُ المَصِيرَ.

لم يَأْتِ جَلّادِي إِلَّا أَمْس، ولِمَرَّةٍ واحِدَةٍ، عَدَّ الدَّقائِقَ ورَحَلَ، جاءَ يَتَفَقَّدُ ذَبِيحَتَهُ، ويَقِيسُ حَلقَةَ عُنُقِي، يَتَأَكَّدُ أَيَّ عُقَدِ الحِبالِ أَوْثَق، فَقَتَلَني قَبْلَ أَنْ يَقْتُلَني.

غَداً أَرْحَلُ، سَواء أَكُنْتُ مُذْنِباً أَمْ لا، فَهَلْ ذَبْحِي يُوَازِي جُرْمِي؟!

لَيْتَ بِإِمْكاني أَنْ أَطْمِسَ كُلَّ مَعالِمِ زِنْزانَتي، وأَمْحُوَ كُلَّ أَثَرٍ لي، لَكِنَّني لا أَمْلكُ عُودَ ثِقابٍ، ولو مَلَكْتُهُ لأَشْعَلْتُ بِهِ سِيجارَةً.

لَكِنَّهُم لا يَسْمَحُونَ لِلسُّجَناءِ أَنْ يَحْمِلوا عِيدانَ الثِّقابِ؛ كَيْلا يُشْعِلوا النّارَ في السِّجْنِ، مَعَ أَنَّني مُشْتَعِلٌ بِلا عِيدانِ ثِقابٍ، والنَّارُ تَتَصاعَدُ مِنْ داخِلِي، وتِحْرقُني في لَيْلَتي الأَخِيرَة.

فَغَداً أُغادِرُ غُرْفَتي، وتَنْتَهِي حِكايَتي في غُرْفَةٍ أُخْرَى، حَيْثُ يُنَفِّذُ الجَلّادُ حُكْمَهُ في غُرْفَةِ الإِعْدامِ.

هَلْ أَخْطَأَتْ سَمَاح؟

ـ كَفَى، تَوَقَّفْنَ عَنْ إِثَارَةِ الضَّجِيْجِ.

أَوَّلُ يَوْمٍ فِي الْمَدْرَسَةِ، ولا تَحْتَرِمْنَ الْمُعَلِّمَةَ. لا أَسْتَطِيْعُ التَّحَمُّلَ.

تَضْرِبُ الْمُعَلِّمَةُ بِيَدِها عَلَى الطَّاوِلَةِ.

ـ د ج ج ج... د ج ج ج...

الصَّفُّ يَهْدأُ تَماماً.

طِفْلَةٌ تَجْلِسُ جانبَ طَاوِلَةِ الْمُعَلِّمَةِ، تَضَعُ يَدَيْهَا عَلَى أُذُنَيْها، تَصْرُخُ:

ـ آه.. صَوْتُ الضَّرْبَةِ أَوْجَعَ أُذُنَيَّ.

الْمُعَلِّمَةُ بِغَضَبٍ:

ـ أَنْتِ قَلِيْلَةُ الأَدَبِ، قُومِي مِنْ مَكَانكِ، قِفِي وَوَجْهُكِ إلى الحَائِطِ، قِصَاصاً لَكِ عَلَى ما فَعَلْتِ.

ـ لكنِّي لَمْ أَفْعَلْ شَيْئاً!

ـ كَلَامُكِ غَيْرُ مُهَذَّبٍ، أَلَا تَعْلَمِيْنَ أَنَّ احْتِرَامَ الْمُعَلِّمَةِ واجِبٌ؟

ـ لم أُخْطِىءْ حَتَّى أُعَاقَبَ.

ـ لا تَرُدِّي عَلَيَّ، لَنْ أُسَامِحَكِ، قِفِي أَمَامَ الحَائِطِ، لا أُرِيْدُ سَمَاعَ صَوْتِكِ.

سَماحُ تَبْكي، تَقِفُ كَمَا أَمَرَتْها المُعَلِّمةُ.

الْمُعَلِّمَةُ تَبْدَأُ الدَّرْسَ الأَوَّلَ، الفَصْلُ صَامِتٌ تَمَاماً، سَماحُ حَزِيْنَةٌ، حَزِيْنَةٌ.

طِفْلَةٌ اسْمُها سَارَة، فَكَّرَتْ أنَّ سَمَاحَ مَظْلُومَةٌ؛ هي لَمْ تُخْطِىءْ، الصَّفُّ كُلُّهُ كانَ يُشَاغِبُ.

سارة كَانَت حَزِيْنَةً، حَاوَلَتْ أنْ تَشْرَحَ لِلْمُدَرِّسَةِ، الْمُدَرِّسَةُ لَمْ تَسْمَحْ لها بِالكَلَامِ.

يُقْرَعُ الجَرَسُ مُعْلِناً انْتِهَاءَ الحِصَّةِ، وبَدْءَ الاسْتِرَاحَةِ.

التِّلْمِيْذَاتُ يُسْرِعْنَ بِالْخُرُوجِ إلى الْمَلْعَبِ.

سَماحُ تَبْقَى في الفَصْلِ، قُرْبَ الحَائِطِ حَزِيْنَةً، حَزِينَةً.

اقْتَرَبَتْ سارَةُ مِنْ سَماح، اعْتَذَرَتْ مِنْها، قالَتْ:

ـ لِنَذْهَبْ إلى الْمَلْعَبِ.

لَمْ تَتَكَلَّمْ سَماحُ، ظَلَّتْ في مَكَانِها، خَرَجَتْ سارَةُ تَلْحَقُ بِرَفِيْقَاتِها.

لَاحَظَتِ النَّاظِرَةُ وُجُوْدَ سَماحَ دَاخِلَ الفَصْلِ لِوَحْدِهَا، لا تُشَارِكُ رَفِيْقَاتِها اللَّعِبَ والمَرَحَ.

النَّاظِرَةُ دَخَلَتْ بِهُدُوءٍ:

ـ ما بِكِ يا حَبِيبَتي؟ لِمَاذَا أَنْتِ هُنَا وَحْدكِ؟! هَلْ اشْتَقْتِ لأُمِّكِ وأَبِيكِ؟ تُرِيْدِيْنَ العَوْدَةَ إلى المَنْزِلِ؟

ثُمَّ قالَتْ بِمَرَحٍ:

ـ هيّا، هيّا. اخْرُجِي إلى الْمَلْعَبِ، الْعَبِي مَعَ صَدِيْقَاتِكِ، سَتَعُوْدِيْنَ إلى البَيْتِ بَعْدَ سَاعَاتٍ قَلِيْلَةٍ.

لَمْ تَتَكَلَّمْ سَماحُ، دُمُوْعُها سَالَتْ عَلَى خَدَّيْها.

ـ النَّاظِرَةُ: ما الَّذي يُزْعِجُكِ؟ أَخْبِرِيْني، أَنا مِثْلُ أُمِّكِ.

فَجْأَةً، عَادَتْ سارَةُ لِتَطْمَئِنَّ عَلَى سَماح.

ـ أَما زِلْتِ هُنا يا سَماح؟

تَلْتَفِتُ الطِّفْلَةُ لِلنَّاظِرَةِ وتَقُولُ:

ـ سَماحُ حَزِيْنَةٌ لأَنَّ الْمُعَلِّمَةَ اتَّهَمَتْهَا بِقِلَّةِ الأَدَبِ، وعَاقَبَتْهَا.

قَالَتِ النَّاظِرَةُ:

ـ أَخْبِرِيْني بِمَا حَدَثَ. سَماحُ لا تُرِيْدُ قَوْلَ سَبَبِ حُزْنِها.

عَرَفَتِ النَّاظِرَةُ كُلَّ الحِكَايَةِ. شَكَرَتْ سارَةَ لِصِدْقِها وقَوْلِها الحَقّ، ولأَنَّها لَمْ تَتْرُكْ سَماحَ، وَوَقَفَتْ إلى جَانِبِها، ولَمْ تَتَهَرَّبْ مِنْ خَطَئِها، وتَنْسِبْهُ إلى غَيْرِها.

احْتَضَنَتِ النَّاظِرَةُ سَماحَ وسارَةَ، وقَالَتْ:

ـ لا بَأْسَ يا سَماحُ، يَبْدُو أَنَّ الصِّياحَ أَزْعَجَ الْمُعَلِّمَةَ؛ هِيَ لَمْ تَقْصِدْ أَنْ تُؤْذِيَكِ، لَكِنَّها فَهِمَتْكِ خَطَأً.

وأَنْتِ يا سارَةُ، كَمْ أَنْتِ قَوِيَّةٌ وشُجَاعَةٌ! لا تَخَافِي قَوْلَ الصِّدْقِ، وَلَوْ عَلَى نَفْسِكِ.

أَرَادَتْ سَماحُ أَنْ تَشْرَحَ لِلنَّاظِرَةِ، قَالَتْ بِصَوْتٍ مُرْتَجِفٍ:

ـ أَنا... أَنا لَمْ أُخْطِئْ في شَيءٍ، شَعَرْتُ بِأَلَمٍ حَادٍّ في أُذُنَيَّ مِنْ شِدَّةِ الضَّرْبِ عَلَى الطَّاوِلَةِ، رَفَعْتُ صَوْتِي دُوْنَ قَصْدِ إِهَانَةِ أَحَدٍ.

ـ ظَنَّتْ أَنَّكِ تَسْتَهْزِئِيْنَ بها.

ـ لَمْ أَقْصِدْ ذَلِكَ.

ـ نَعَمْ يا حَبيبَتي، أَنَا مُتَأَكِّدَةٌ، أَنْتِ طِفْلَةٌ مُهَذَّبَةٌ، مُؤَدَّبَةٌ.

ـ إِنَّها لا تُحِبُّنِي.

ـ هي تُحِبُّكِ، وتُحِبُّ كُلَّ رَفِيْقَاتِكِ بِالْمَدْرَسَةِ. كَانَتْ مُنْزَعِجَةً بِسَبَبِ الضَّجَّةِ داخِلَ الفَصْلِ، وأَرَادَتْ ضَبْطَ التِّلْمِيْذَاتِ.

ـ هَذا لَيْسَ ذَنْبِي، أَنا كُنْتُ أَجْلسُ دُوْنَ أَنْ أَتَكَلَّمَ، دُوْنَ أَنْ أُشَاغِبَ، أَجْلسُ أَمَامَها مُبَاشَرَةً.

ـ لا تَحْزَني يا سَماحُ، سَأُعَالِجُ الأَمْرَ بِنَفْسِي، اذْهَبِي الآنَ والْعَبِي مَعَ رَفِيْقَاتِكِ.

ثُمَّ خاطَبَتِ الْمُعَلِّمَةَ في غُرْفَةِ النَّاظِرَةِ:

ـ هَلْ شَاغَبَتْ سَماحُ، وسَاهَمَتْ بِالفَوْضَى والضَّجِيْجِ؟ هَلْ رَفَعَتْ صَوْتَها؟ هَلْ أَسَاءَتْ إِلَيْكِ إِسَاءَةً مُبَاشرَةً؟

أَجَابَتِ الْمُعَلِّمَةُ:

ـ لَمْ تَفْعَلْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ.

ـ لِمَاذَا هَذَا العِقَابُ إِذاً؟

ـ تَحَدَّثَتْ بِأُسْلُوبٍ غَيْرِ مُهَذَّبٍ.

قالَتِ النَّاظِرَةُ:

ـ عَبَّرَتْ بِبَساطَةٍ عَنْ مَشَاعِرَ أَحَسَّتْ بِهَا في لَحْظَتِهَا، أَرَدْتُ إِشْعَارَ الفَصْلِ كُلِّهِ بِضَرُورَةِ الانْضِبَاطِ خَشْيَةَ العِقَابِ، لَكِنَّها لَمْ تَفْعَلْ ما يَسْتَلْزِمُ مِثْلَ هَذَا العِقَابِ!

ـ ما ظَنَنْتُ أَنَّها سَتَتَأَثَّرُ إِلى هَذا الحدِّ!

ـ عَلَيْنَا إِصْلَاحُ الأَمْرِ معها.

فَكَّرَتِ الْمُعَلِّمَةُ، وقالَتْ:

ـ الخَطَأُ خَطَئِي أنا، سَوْفَ أُعَالِجُهُ بِنَفْسِي.

في الْيَوْمِ التَّالِي، داخِلَ الفَصْلِ نَفْسِهِ:

ـ تَعَالي يا سَماحُ، اسْمَعْنَ يا بَنَاتِي العَزِيْزَات، بِالأَمْسِ أَخْطَأْتُ بِحَقِّ صَدِيْقَتِكُنَّ سَماحَ، ما قَصَدتُ إِهَانَتَها، كُنْتُ غاضِبَةً. أَعْتَذِرُ مِنْهَا أَمَامَكُنَّ جَمِيْعاً.

احْمَرَّ وَجْهُ سَماحَ خَجَلاً، أَحْنَتْ رَأْسَها، أَلْقَتْ بِنَظَرِها عَلَى الأَرْضِ.

اقْتَرَبَتْ مِنَ الْمُعَلِّمَةِ، قَبَّلَتْها، وقالَتْ:

ـ أنا الَّتِي يَجِبُ أَنْ أَعْتَذِرَ مِنْكِ، لأَنِّي رَفَعْتُ صَوْتِي أَمَامَكِ، سامِحِيْنِي.

قَالَتِ الْمُعَلِّمَةُ ضَاحِكَةً:

ـ إِذاً، تَعَادَلْنَا، أَعْلَمُ أَنَّكِ لَمْ تَقْصِدي الإِسَاءَةَ مِثْلِي تَمَاماً.

قَامَتْ سارَةُ، وقَالَتْ:

ـ أُرِيْدُ أَنْ أَقُولَ شَيْئاً:

أَعْتَقِدُ أَنَّا كُنَّا سَبَبَ ما أَصَابَ سَماحُ بِالأَمْسِ. شاغَبْنَا كَثِيْراً؛ حَتَّى أَغْضَبْنَا الْمُعَلِّمَةَ. عاقَبَتْ سَماحَ بَدَلاً مِنّا. هي لا تَسْتَحِقُّ العِقَابَ. نَحْنُ مَنْ يَسْتَحِقُّ العِقَابَ.

قالَتْ طِفْلَةٌ أُخْرَى:

ـ نَعَمْ! هَذَا صَحِيْحٌ.

قَالَتْ ثَالِثَةٌ... رَابِعَةٌ... خَامِسَةٌ... رَفِيقَاتُ سَماحَ، اعْتَذَرْنَ مِنْهَا، وَمِنَ الْمُعَلِّمَةِ.

قَالَتْ سارَةُ:

ـ حاوَلْتُ شَرْحَ ذَلِكَ لَكِ بِالأَمْسِ، أَرَدْتُ الاعْتِذَارَ، كُنْتُ أَتَمَنَّى الوُقُوْفَ مَكَانَ سَماحَ، لَكِنَّكِ كُنْتِ غَاضِبَةً.

فَرِحَتِ المُعَلِّمَةُ، فَرِحَتْ سَماحُ، فَرِحَتْ سارَةُ، فَرِحَ الفَصْلُ كُلُّهُ.

قَالَتِ الْمُعَلِّمَةُ:

ـ أَنا الآنَ لَسْتُ غَاضِبَةً، ولَنْ أَكُوْنَ بَعْدَ اليَوْمِ.

تَعَلَّمْتُ مِنْكُنَّ دَرْساً عَظِيْماً. عَرَفْتُ قِيْمَةَ شَجَاعَةِ الاعْتِرَافِ بِالْخَطَأِ، وَالتَّرَاجُعِ عَنْهُ دُوْنَ تَكَبُّرٍ.

انْتَشَرَ الْخَبَرُ في الْمَدْرَسَةِ.

أَقَامَتِ النَّاظِرَةُ احْتِفَالاً رَائِعاً؛ كَرَّمَتْ فِيْهِ الْمُعَلِّمَةَ، وجَمِيْعَ تِلْمِيْذَاتِ الفَصْلِ.

قَرَّرَتِ النَّاظِرَةُ تَسْمِيَةَ الفَصْلِ باسْمِ: «فَصْلُ الشَّجَاعَةِ، واحْتِرَامِ الآخَرِينَ».

الوَصِيَّةُ الأَخِيرَةُ

لَيْسَ الهُرُوبُ مُتاحاً بَعْدَ الآن، فَراغُ الإِطارِ مِنَ الصُّورَةِ لا يَعْني سِوَى «النِّهايَة».

الأَشْياءُ الفارِغَةُ لا قِيْمَةَ لَها، التَّماثِيلُ الجَوْفاءُ تَزُولُ مَعَ الزَّمَنِ، وتَبْقَى حِكاياتُها.

انْهِيارُ كُلِّ أَحْلامِي ما كانَ مُتَوَقَّعاً عِنْدِي، نَقِيضُ تَوَقُّعِ الآخَرينَ.

لِتَذْهَبْ كُلُّ الأَشياءِ الثَّمِينَةِ والرَّخِيصَةِ، الرَّفِيعَةِ والوَضِيعَةِ.

ما بَديلُ هَذا غَيرُ الهُروبِ إلى سَرابٍ، إلى وادٍ سَحِيقٍ، حَيْثُ المَجْهولُ يَخْتَلِطُ بِحُبِّ التُّرابِ الأَسْودِ كَالقَطِرانِ؛ اخْتِزالاً لِمَصائِبِ السِّنِين.

أَيْنَ أَصْبَحتُ أَنا اليَوم؟! أَيْنَ كُلُّ المدَّاحِينَ والمُطَبِّلِينَ والمُلَمِّعِينَ؟! وأَنا لا آمَنُ الآنَ عَلَى نَفْسِي مِنْ نَفْسِي! فَقَدْتُ الهَواءَ الرَّطْبَ المُعَطَّرَ الَّذي كُنْتُ أَتَنَشَّقُهُ.

فَقَدْتُ كُلَّ حاجاتي الصَّغِيرةِ قَبْلَ الكَبِيرَةِ. مَضَيتُ سالِكاً طَريقَ وحْدَتي، كَمَنْ أَصابَهُ وَباءٌ لا براءَ مِنْهُ.

لَمَّا سَقَطْتُ، سَقَطْتُ وحيداً، ومَعَ سُقوطِي سَقَطَتْ كُلُّ الأَقْنِعَةِ المُزَيَّفَةِ، كُنْتُ أُدْرِكُ ما تُخْفِيهِ، وأُخْفِي.

رَنينُ الذَّهَبِ اللَّمَّاعِ ساحِرٌ أَخَّاذٌ، بِهِ تُطْوَى الحَقِيْقَةُ.

عِشْرونَ عاماً وحَوْلي الطُّبولُ تَدُقُّ، والمَزامِيرُ تَعْزِفُ، والهاماتُ تَنْحَني، لا يَدْخُلُ «بِلاطِي» إِلَّا مَنْ يَغْسِلُ قَدَمَيهِ بِماءِ الذُّلِّ والطّاعَةِ والهَوانِ، عِشْتُ هَكَذا؛ أَتَلَذَّذُ بِماءِ الوُجوهِ

يَلْسَعُ الوَجَناتِ، يَنْهَمِرُ تَحْتَ أَحْذِيَتِي الَّتي لا أَكادُ أَعْرِضُ واحِداً مِنْها؛ حَتَّى يَذوبَ مِنْ بَعْدُ في ظلامٍ طَويلٍ، رُبَّما لا يَخْرُجُ مِنْهُ مَرَّةً ثانِيَةً.

هَذا التَّلَذُّذُ كانَ رَفِيقَ رُوحِي، أَعْشَقُهُ كَما يَعْشَقُ الفَراشُ النُّورَ، أو كَما يَعْشَقُ النَّسْرُ الفَضاءَ، أو كَما يَهِيمُ القَطا بِعُشِّهِ.

تَكَشَّفَتْ أَمامِيَ الحَقائِقُ مُتَأَخِّرَةً، ذَلِكَ «المَجْدُ» الَّذي بَنَيْتُهُ مِنْ عَذاباتِ النَّاسِ ما أَفادَني بِشَيءٍ.

نَعَم! بَنَيْتُ مَجْدي عَلَى جَماجِمِ الآخَرينَ، صَنَعْتُ أَبْراجاً مِنَ الوَهْمِ، صِغْتُ مِنَ الظُّلْمِ أَساوِرَ وتِيجاناً؛ أُزَيِّنُ بِها «جَمالي»، ولم أَعِ الحَقِيقَةَ إِلَّا بَعْدَ مُضِيِّ الزَّمَنِ.

ذات مَساءٍ، جاءَتْ إِليَّ أُمِّي زاجِرَةً:

ـ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكَ يا بُنيَّ أَلَّا تُمَثِّلَ الشَّيْطانَ في الأَرْضِ؟! ألم أَحْمِلْكَ وَلِيداً، وأُرَبِّكَ صَغِيراً؟! فَلِمَ كُلُّ هَذا الظُّلْمِ يا وَلَدي؟

فَما زادَنِي ذَلِكَ إِلَّا نُفوراً.

أَمَرْتُ أَتْباعِي بِإِخْراجِها مِنْ «بِلاطِي»، أَبْعَدتُها عَنِّي، بَنَيْتُ لَها مَكاناً فاخِراً يَلِيقُ بِأُمِّ مَنْ هُمْ «مِثْلِي»، رَفَضَتِ المُكوثَ في هَذا المَكانِ، وأَتْباعِي كانُوا يَمْنَعونَها مِنَ الخُروجِ دُون إِذْنِي.

سَمِعْتُها مَرّاتٍ تَدْعُو لي: «اللهُ يَهْدِيكَ يا بُنيَّ».

كُنْتُ أَسْخَرُ مِنْ دَعَواتِها؛ حَتَّى زَوْجَتي المِسْكِينَةِ عاشَتْ رُعْباً مُتَواصِلاً، لم تَكُنْ جَرِيئَةً

مِثْلَ أُمِّي، تَعْلَمُ أَنَّني مع كُلِّ ما أَنا فِيهِ لا يُمْكِنُ أَنْ أُؤْذِي أُمِّي، أَمّا هِيَ فَشَيءٌ آخَرُ؛ لِذا كَانَت تَلوذُ بِالصَّمْتِ، بَيْنَما أَطْعَنُها في قَلْبِها، في كَرامَتِها.

آتي إِلَيْهَا والخَمْرَةُ تَفوحُ مِنِّي، وعِطْرُ الغَواني تُخْبِرُ عَنِّي، تَبْكِي في سِرِّها؛ حَتَّى البُكاء كانَ مَمْنوعاً في «حُضورِي».

لَمْ أَشْعُرْ بِكُلِّ الخَطايا الَّتي تَمُوجُ في داخِلِي مَوْجَ البِحارِ.

هَلْ كُنْتُ مَسْحوراً؟! أمْ عَمِيتْ بَصِيرَتي؟!

وَلَدي الصَّغِيرُ «شُجاع» حاوَلَ مَرَّةً أَنْ يَقولَ لي بِلُطْفٍ ما لا يَجْرُؤُ أَحَدٌ عَلَى قَوْلِهِ؛ نَفَيْتُهُ، حَرَمْتُهُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ.

كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ ما هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، لَكِنَّ بَقايا مَشاعِرِ الإِنْسانِ في داخِلِي مَنَعَتْني، وكدْتُ أَلَّا أَسْتَجِيبَ لَها لولا نُصْحُ بَعْضِ المُقَرَّبِينَ مِنِّي، فَوَجَدَتِ النَّصِيحَةُ في نَفْسِي هَوى لَها.

ما حَسِبْتُ أَنَّني سَأَصِلُ يَوْماً إِلى هُنا. أَعْمَتْني أَشْياءُ كَثيرَةٌ عَنِ الرُّؤْيَةِ، عَنِ التَّمْييزِ والتَّفْكيرِ والتَّقْريرِ، كُنْتُ مِحْوَرَ نَفْسي، ولا دَليلَ لي.

البَعْضُ مِنْ حَوْلي يُرَدِّدونَ كَلِماتي أَكْثَرَ ممَّا يُرَدِّدونَ كلامَ رَبِّهِمْ، وفي السِّرِّ رُبَّما، كانُوا يَلْعَنُونَني.

دَعَوْتُ الأُدَباءَ والشُّعَراءَ والفَنّانِينَ، أَمَرْتُهُمْ.

نَعَم! أَمَرْتُهُمْ، عَظِّمُوا شَأْني كَما لَمْ يُعَظِّمْ أَحَدٌ قَبْلِي.

لاحَظْتُ في أَعْيُنِ البَعْض مِنْهُمْ سُخْرِيَةً، فَظَلُّوا «ضُيوفاً» عِنْدِي، ولم يَعُودُوا إِلى دِيارِهِمْ.

لمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَنْ مُجَرَّدِ السُّؤالِ عَنْهُمْ؛ حَتَّى أُمَّهاتهم.

تَفَنَّنْتُ في السُّقوطِ، أَبْدَعْتُ بِشَيٍّ مَنْ يَجْرُؤُ عَلَى مُعارَضَتي، كانَ لَحْمُ الشِّواءِ يُمْتِعُني: «فَما نَفْعُ الإِنْسانِ بِناظِرَيْهِ إِذا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأَنْوارُ والظُّلَمُ؟!».

فَتَحْتُ عَلَى الحَياةِ نافِذَةً مِنْ صُنْعِي أَنا لِوَحْدِي، ومَنْ أَرادَ الوُصولَ إلى ما يُريدُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ إلى الحَياةِ مِنْ خِلالِ هَذِهِ النّافِذَةِ، ولا شَيءَ سِواها.

لم تَكُنِ التَّفاصِيلُ تُثِيرُ اهْتِمامِي، العَناوِينُ العامَّةُ تَسْكُنُ تَفاصِيلي «أنا»، لا تَفاصِيلَ سِوايَ، ولْيَذْهَبِ الآخَرونَ إلى الجَحيمِ، كُلُّ المَرايا لا تَعْكِسُ غَيْرَ صُورَتي.

غَنَّى المُطْرِبونَ «لي»، أَنْشَدَ الشُّعَراءُ أَجْمَلَ قَصائِدِهِمْ كُرْمَى لِعُيوني، لا نِعُيونِ لَيْلَى ولا سَلْمَى، كَتَبَ الطُّلابُ عَنِّي أَبْحاثَهُمْ، اشْتَغَلَتِ المَطابِعُ والمَسارِحُ والمَعاهِدُ.

لا شَيءَ قَبْلي، ولا شَيءَ بَعْدي، اعْتادَ النَّاسُ عَلَيَّ كَما «أنا» مِثْلِي؛ فَقَدِ اعْتَدتُ عَلَيهِمْ كَما «هم»، سَعادَتي في تَعاسَتِهِمْ.

البَعْضُ مِنْ حَوْلي ظَلُّوا يُصَفِّقونَ، هَذِهِ حاجَةٌ لا تَنْقُصُني.

أَغْدَقْتُ أَمْوالي عَلَى هَؤُلاءِ «البَعْضِ»، والوَيْلُ، الوَيْلُ لِمَنْ شَذَّ، فَعاقَبَتْهُ «ناري».

عِشْتُ سَنَواتٍ طَوِيلَةً أَسِيرَ ظُلْمي، أَسِيرَ هَوايَ، فَقَدتُ «رُموشَ» عَينيَّ، وما تَخَلَّيْتُ عَنْ «كِبْرِيائي».

قادَني ظُلْمي إلى كُهوفٍ ومَزالِقَ، انْكَبَّ النَّاسُ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، أَيْقَنْتُ نِهايَتي، أَيْقَنْتُ آخِرَ فُصولي، لَكِنِّي لا أَنْحَني، كَيْفَ أَتْرُكُ كُلَّ هَذا المَجْدِ الَّذي صَنَعْتُهُ، وأَدَعَهُ لِـ «يَتَلَذَّذَ» بِهِ الآخَرونَ؟!

هَواجِسِي كَانَتْ تَفْتكُ بِسَنواتِ ظُلْمِي، لَنْ أَرْحَلَ قَبْلَ أَنْ أَقْضِيَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ، لَنْ أَتْرُكَ مَكاني بِسُهولَةٍ.

فَيا جِبالُ اهْتَزِّي، ويا سَماءُ أَرْعِدِي، ويا أَرْضُ اخْسِفِي، ويا بِحارُ تَفَجَّرِي، ويا غَمامُ اهْطُلِي، ويا صَواعِقُ اقْصِفِي.

جُنِنْتُ، نَعَم! جُنِنْتُ، ومازِلْتُ أَسْمَعُ التَّصْفِيقَ حادّاً.

لَكِنَّ المُصَفِّقِينَ قَلُّوا، وبَدَؤُوا يَتَباعَدُونَ ويَتَشَتَّتونَ كَما تَتَباعَدُ السُّحُبُ، وتَتَشَتَّتُ في يَوْمٍ رَبِيعِيٍّ صافٍ.

بَقيتُ وَحْدِي.

تَذَكَّرْتُ أُمِّي في «سِجْنِها»، تَذَكَّرْتُ وَلَدِي في «مَنْفاهُ»، تَذَكَّرْتُ، وتَذَكَّرْتُ، وتَذَكَّرْتُ، وأَيّ «شَيءٍ» أَتَذَكَّرُ؟

فَما فَائِدَةُ التَّذَكُّرِ، وكُلُّ مَنْ مَعِي ذَهَبوا، وبَقيتُ وَحْدِي أَجُرُّ خُذْلاني ووِحْدَتي، ويَأْسِي، وعارِي، وانْكِسارِي؟

بَعْضُ المُرْتَعِدِينَ مِثْلِي ارْتَبطُوا بِمَصيرِي، أَمْسَكُوا بي، كادُوا يَقْتُلُونَني، وَعَدتُهُمْ بِأَمْوالٍ وبَنِينَ، ومَجْدٍ لا يَلِينُ.

ما صَدَّقُوا، لَكِنَّهُمْ تَبِعُوني، وفي الطَّرِيقِ كُلٌّ هَرَبَ مِنْ جانِبٍ.

لَمْ يَمْنَحُوني فُرْصَةً جَدِيدَةً، أَرَادُوا الفَرارَ بِأَرْواحِهِمْ، فَلا أَمْلِكُ لَهُمْ ولا لِنَفْسِي ضُرّاً ولا نَفْعاً.

فَإلى أَيْنَ المَصِيرُ؟! الشَّرُّ مِنْ أَمامِي، والخَوْفُ مِنْ وَرائِي، وما زَرَعْتُ يَنْبُتُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيَّ الحافِيَتَينِ.

صُرْتُ أَرْكُضُ كَالمَجْنونِ هارِباً مِنْ كُلِّ شَيءٍ، هَرَبْتُ حَتَّى مِنْ ظِلِّي، لا أُرِيدُكَ أَيُّها الظِّلُّ «انعَفِنْ»، لا أُرِيدُكَ، أَنْتَ تَعْرِفُ كُلَّ خَفاياي وأَسْرارِي، انْطَلِقْ، ابْتَعِدْ عَنِّي، لا تَلْبِسْني، ارْتَدِ هَذا النَّهرَ، أو ذاكَ الوادِي.

وأَنْتِ أَيَّتُها الشَّمْسُ، أَطْفِئِي نُورَكِ، اخْلَعِي نارَكِ، اسْكُنِي خَوْفي وجُرْمِي.

صُرْتُ أَتَقَلَّبُ بَيْنَ الجِبالِ، أَمْتَطِي جَوادَ الفَزَعِ والجُوعِ والتَّشَرُّدِ مِنْ كَهْفٍ إِلى آخَرَ.

أُصادِفُ «الوحُوشَ»، وُحوشَ البَرارِي، تُشْفِقُ عَلَيَّ فَتَتْرُكُني.

أَكَلْتُ أَوْرَاقَ الشَّجَرِ، حَشَائِشَ الأَرْضِ، حَضَنْتُ بُرودَةَ البَادِيَةِ، شَرِبْتُ الماءَ المُرحِلَ، ارْتَدَيْتُ خُشُونَةَ التُّرابِ، تَوَسَّدتُ صَلابَةَ الصَّخْرِ.

وفَجْأَةً، وَجَدتُ نَفْسِي في قَبْضَةِ رُعاةِ الأَرْضِ، وَحِيداً بِلا تَصْفِيقٍ ولا تَطْبِيلٍ.

حَمَلُوني، أَطْعَمُوني، أَسْقوني حَلِيبَ نِياقِهِمْ.

أَلْبَسُوني جِلْدَ نِعاجِهِمْ، شَعَرْتُ بِالدِّفءِ، وبِبَعْضِ الأَمَلِ والأَمانِ، بَعْضُهُمْ عَرَفَني، لَمْ يُفْشُوا سِرِّي، كانُوا يَنْظُرونَ إِلى بَعْضِهِمْ، يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُون، لَكِنَّهُمْ لا يَتَكَلَّمُونَ.

رُبَّما كَانَتْ قُلوبُهُمْ أَرَقَّ مِنْ نَسائِمِ الرَّبِيعِ، أَوْ مِنْ أَوْراقِ الزُّهورِ، عَرَفْتُ مُتَأَخِّراً، لَكِنْ ماذا اسْتَفَدتُ؟!

سَمَحُوا لي أَنْ أَكْتُبَ عَلَى جِلْدِ نَعْجَةٍ وَصِيَّتي، آخِرَ كَلِماتي.

كَانَتْ جِراحِي مُتَعَفِّنَةً، أَطْرافي مُتَيَبِّسَةً، الدُّودُ يُعَشْعِشُ في كُهوفِ مَفاصِلِي، يُطِلُّ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ يَخْتَفِي.

لم يَتَكَلَّمُوا، أَحْضَروا لي جِلْدَ نَعْجَةٍ، وعُوداً مُقَلَّماً.

غَرَسْتُ رَأْسَ العُودِ في جُروحِي، ما شَعَرْتُ، بَلَلْتُ طَرَفَ العُودِ بِدَمِي؛ لأَكْتُبَ وَصِيَّتي؛ لأَكْتُبَ «اعْتِرافي».

تَرَفَّقُوا بي، مَعَ أَنِّي قَدْ أَكونُ سَبَبَ وُجودِهِمْ في الجِبالِ والوُدْيانِ.

حَنَّتْ عَلَيَّ قُلوبُهُمْ، وما «حَنَّيتُ».

مَسَحُوا جِراحِي الكَثيرَةَ، وما «شَفيتُ».

حاوَلُوا تَبْريدَ عُروقي المُحْتَرِقَةِ، وتَحْريكَ جَوارِحِي المُتَبَلِّدَةِ، وما أَفْلَحُوا.

كانُوا أَكْثَرَ مِنِّي قُوَّةً، وكُنْتُ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ضَعْفاً، كَتَبْتُ آخِرَ كَلِماتي، لَكِنْ لِمَنْ أَكْتُبُها؟ لا أَحَدَ يُريدُها، لا أَحَدَ يُريدُ أَنْ يَسْمَعَ عَنِّي شَيئاً؛ حَتَّى أُمِّي رُبَّما، وبِمَ أُوصِي؟ لا شَيءَ عِنْدِي لأُوصِيَ به؛ حَتَّى الكَفَنَ لا أَمْلِكُهُ.

لا أَقْدِرُ عَلَى مُواصَلَةِ الكِتابَةِ، أَشْعُرُ بِثِقَلِ العُودِ بَيْنَ أَصابِعِي، هَذِهِ الأَصابِعُ الَّتي فَعَلَتْ، وفَعَلَتْ، الآنَ لا تَقْوَى عَلَى طَرْدِ ذُبابةٍ.

آآاه.. آآاه...

في الصَّباحِ، اجْتَمَعَ الرُّعاةُ قُرْبَ صُخورٍ بَيْضاءَ، دَعوا اللهَ بِسُكونٍ، تَأَمَّلُوا هَذا القَبْرَ النّائِي؛ الَّذي يَحْتَضِنُ صاحِبَ «الجِراحِ» الكَثيرةِ، بَعْدَما لَفُّوهُ بِجِلْدِ نَعْجَةٍ عَلَيْه وَصِيَّتُهُ.

دَفَنوها مَعَهُ دُونَ أَنْ يَقْرَؤوها، لَمْ يَحْتَفِظوا بِها كي لا يَقْرَأَها أَحَدٌ، نَظَروا إِلى بَعْضِهِمْ.

قَرَّروا إِخْفاءَ هَذِهِ الذِّكْرَى، أَرَادُوا طَمْسَ مَعالِمِ القَبْرِ، اتَّفَقوا أَلَّا يَتَكَلَّمُوا، رُبَّما «خَوفاً» مِنْ «بَطْشِ» صاحِبِ القَبْرِ، مَعَ أَنَّهُ مَيِّتٌ، أو احْتِراماً لِلْمَوتِ نَفْسِهِ.

سارُوا بِصَمْتٍ نَحْو أَنْعامِهِمْ. سارُوا مَعاً، يَعْرِفونَ الطَّرِيقَ الَّذي يَتَوَجَّهونَ إِلَيْهِ، الهَدَفُ الَّذي يَسْعَونَ إِلَيْهِ مُنْذُ سَنَواتٍ طَويلَةٍ.

عادُوا إلى بُيوتِهِمُ الَّتي هَجَرُوها، إِلى زُوْجاتِهِمْ، إِلى أَهْلِهِمْ، إلى أَوْلادِهِمْ، وأَخْفوا ذِكْرَى ذَلِكَ القَبْرِ حَتَّى لا يَتَحَدَّثَ عَنْهُ أَحَدٌ.

ذَهَبَ كُلٌّ مِنْهُمْ بِأَنْعامِهِ تَرْعَى مِنْ جَديدٍ بِالقُرْبِ مِنْ بُيوتِهِمْ، تَحُفُّهُمُ الذِّكْرَى، ويَغْشاهُمُ الأَمَلُ.

أَمَّا ذَلِكَ القَبْرُ؛ فَقَدْ سَحَقَتْهُ صُخُورُ الجِبالِ، وهَبَّتْ عَلَيْهِ أَعاصِيرُ البادِيَةِ، وغَطَّتْهُ الرِّمالُ، وأَبادَتْهُ الأَحْلامُ، ولَمْ يَعُدْ شاهِدُهُ يَدُلُّ عَلَيْهِ.

أَمَّا تِلْكَ الوَصِيَّةُ، أو «الاعْتِرافُ»، فَلَمْ تَعُدْ تَنْفَعُ الآنَ، وَجَدَتِ الدِّيدانُ فِيْها وَجْبَةً لَذيذَةً، فَنَخَرَتْها حَتَّى طُمِسَتْ، ولَمْ يَبْقَ مِنْ حُروفِها حَرْفٌ.

ومَرَّتْ فَوْقَ القَبْرِ نِعاجٌ، ومَرَّتْ فَوْقَ القَبْرِ خِرافٌ، ومَرَّتْ فَوْقَ القَبْرِ جِمالٌ، ما عادَ لِظُلْمِهِ مَكانٌ، ولا لِظلامِهِ مُصَفِّقونَ، ولا مُطَبِّلونَ، ولا مَنْ «يَحْزَنونَ».

قِصَصٌ قَصِيرَةٌ جِدّاً

قِصَصٌ قَصِيرَةٌ جِدّاً

الطّاوِلَةُ رقم «٧»

فَرَكَ عَينَيهِ جَيِّداً، تَحَرَّى حَقِيْقَةَ مايَرَاهُ، لَعَلَّهُ وَهْمٌ مَرَّ بِخاطِرِهِ، «أَنا أَحْلُمُ، أَحْلُمُ، أَحْلُمُ».

أَدْرَكَ أَنَّ ما يَرَاهُ لَيْسَ غَيرَ الحَقِيْقَةِ، كَيْفَ يَسْتَوضِحُ الأَمْرَ ولا يَجْرُؤُ عَلَى مُجَرَّدِ السُّؤالِ؟!

في المَطْعَمِ الفَخْمِ الَّذي يَعْمَلُ بِهِ نادِلاً في مَساءِ كُلِّ يَوْمٍ، فُوجِئَ بِدُخولِها مَعَ مَجْموعَةِ فَتَياتٍ، كَيْفَ لا يَكونُ؟! لَكِنَّهُ كانَ!

عادَ يَفْرُكُ عَينَيهِ ويَشُدُّهُما لِلأَسْفِلِ والأَعْلَى؛ لَعَلَّهُ يَسْتَيقِظُ مِنْ حُلُمٍ، بَلْ قُلْ كابُوس.

لم يَعْتَدْ أَنْ يَأْتيَ أَحَدُ المُوَظَّفِينَ مَعَهُ في الدّائِرَةِ الحُكومِيَّةِ إِلى هَذا المَكانِ الَّذي تَفوقُ وَجْبَةُ عَشاءٍ واحِدَةٍ قِيمَةَ مُرَتَّبِهِ كُلِّهِ، ولَيْسَ مُرَتَّبَ مُوَظَّفٍ عاديٍّ، فَكَيْفَ هِيَ وقَدْ بَدَأَتْ عَمَلَها قَبْلَ أَيّامٍ، ولم تَقْبِضْ بَعْدُ مَعاشَها الأَوَّلَ؟

ـ عَجِيبٌ!

قَالَها بِصَوْتٍ هامِسٍ، لَكِنَّ زَبوناً سَمِعَها، فَقالَ ساخِراً:

ـ وممَّا العَجَبُ؟

أَجابَه:

ـ لا شَيءَ يا سَيِّدِي، لا شَيءَ.

ـ إِذاً أَحْضِرْ ليَ الطَّلَبَ الَّذي طَلَبْتُ.

اسْتَدْرَكَ أَنَّهُ الآنَ يَعْمَلُ في مَطْعَمٍ، وَلَيْسَ مُديراً في مَصْلَحَةٍ، وعَلَيْهِ تَلْبِيَة طَلَباتِ الزَّبائِنِ دُونَ تَأْخِيرٍ:

ـ حاضِر سَيِّدي، حاضِر. وبِسُرعَةٍ.

خَشِيَ أَنْ تَراهُ مِنْ مقْعَدِها.

لَكِن عَلَيْهِ أَن يَتَقَدَّمَ نَحْوَ الطَّاوِلَةِ، حَيْثُ تَجْلسُ لِيَسْأَلَ عَمَّا يُرِدْنَ مِنْ طَلَباتٍ:

ـ لا بَأْسَ، يُمْكِنُ لأَيِّ زَمِيلٍ آخَرَ أَنْ يَسْأَلَهُنَّ.

ـ لو سَمَحْتَ.

نادَتْهُ إِحْدَى الجالِساتِ مَعَها، لم يُجِبْها، هَزَّ رَأسَهُ، لم تَنْتَبِهْ إِلَيهِ، كَانَتْ تَتَحَدَّثُ عَلَى هاتِفِها النَّقّالِ. مَشَى مُهَرْولاً وطَلَبَ مِنْ زَمِيلٍ لَهُ أَنْ يَذْهَبَ إِلى الطَّاوِلَةِ رقم «٧».

طِفْلٌ ودَبّابَةٌ

على مَرْأَى مَلايِينَ طِفْلٌ ودَبّابَةٌ، وعَلَى مَرْأَى الملايِينِ أَنْفُسِهِم الدَّبابَةُ نَفْسُها تُوَجِّهُ مدْفَعَها نَحْوَ الطِّفْلِ نِفْسِهِ.

الملايينُ يَنْظُرونَ، والطِّفْلُ يَعْرِفُ أَنَّهُمْ يَنْظُرونَ ولا يَعْبَأُ.

طِفْلٌ يَحْمِلُ حِجارَتَهُ لِيَبْنِيَ بِأَكْوامٍ مِنْها بَيْتاً دَمَّرَهُ مُحْتَلٌّ، المُحْتَلُّ يَخْشَى الطِّفْلَ، ويخْشَى تِلْكَ القَبْضَةَ الغَضَّةَ، وهُمْ ما زالُوا يَنْظُرُونَ.

مُفارَقاتٌ عَجِيبَةٌ، والأَعْجَبُ مِنْها أَنَّهُم «ما زالوا يَنْظُرونَ».

مِصْباحُ العَمْياءِ

تَخْرُجُ كُلَّ يومٍ إِلى نَهرٍ قُرْبَ بَيْتِها، تَغْسِلُ الأَطْباقَ والثِّيابَ، وتَعودُ كَما تَذْهَبُ «حَفِيَةً»، وفي سَيْرِها تَصْطَدِمُ بِدَورِيّاتِ المُحْتَلِّينَ، وتَسْقُطُ في فِراشِها مُرْهَقَةً، ويَأْتي الصَّباحُ لِتُكَرِّرَ الأَمْسَ.

وتَمُرُّ الأَيّامُ عَلَى عادَتِها دُونَ حَتَّى أَنْ تَمْلأَ قِنْديلَها، أو تُبَلِّلَ خَشَبَ مَوْقِدِها مِنْ أُنْبوبِ نفْطٍ ضَخْمٍ يَخْتَرِقُ بَيْتَها.

نَخْلَةٌ

جَلَسْتُ يَوْماً تَحْتَ نَخْلَةٍ عَلَى شاطِئِ الخَلِيجِ.

كَانَتِ السُّحُبُ تَتَسَلَّلُ خَلْفَ بَعْضِها هارِبَةً مِنْ شَيءٍ ما.

فَجْأَةً، رَأَيْتُها تَسيرُ عارِيَةَ القَدَمَينِ عَلَى جَمْرٍ مُشْتَعِلٍ.

تَمَنَّيتُ لو أَسْأَلُ عن سِرِّ هذا السَّيْرِ؛ لَكِنَّها لم تَحْفَلْ بي ولا بِوُجودِي.

بَقيْتُ جالِساً في ظِلِّ النَّخْلَةِ، مُتَهَيِّباً مِنْ لَهيبِ الشَّمْسِ.

ظَلَّتْ تَمْشي حَتَّى سَقَطَتْ في البَحْرِ، كانَ البَحْرُ رَزِيْناً، تَسَمَّرْتُ بِالنَّخْلَةِ؛ حَتَّى الْتَصَقْتُ بِها.

وما زِلْتُ، أَتَسَمَّرُ كُلَّ عامٍ في الموعِدِ نَفْسِهِ، مُنْتَظِراً خُروجَها مِنَ البَحْرِ.

لَكِنْ مُنْذُ مَتَى يُخْرِجُ البَحْرُ قَواقِعَهُ؟!

في صَدْرِي

في صَدْرِي كُتْلَةٌ لَحْمِيَّةٌ تَنْبُضُ بِالحُبِّ، تَعْرِفُ كَيْفَ تُحِبُّ! ومَتَى وأَيْنَ!
هَذِهِ الكُتْلَةُ سَبَبُ سَعادَتي وشَقائِي، تُمارِسُ عَلَيَّ قَهْراً نَفْسِيّاً ودِكْتاتورِيَّةً عَمْياءَ، وأَنا خاضِعٌ لَها رَغْمَ وُجودِ قِوًى مُعارِضَةٍ.
اسْتَسْلَمْتُ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيْدٍ.
لَطَالَمَا أَبْكَتْنِي وأَضْحَكَتْني.
بَقيْتُ مُسْتَسْلِماً لِكُلِّ ما تُمْلِيهِ عَلَيَّ مِنْ تَعْليماتٍ وأَوامِرَ صارِمَةٍ.
وبِالأَمْسِ اسْتَجَبْتُ لِخَفَقان شَديدٍ جَديدٍ، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ الأَخِيرُ...
رُبَّما...

الأَلْعابُ الصَّغِيرَةُ

ـ ابْتَعِدي عَنِّي، اذْهَبِي مِنْ هُنا، لا أَسْتَطِيعُ رُؤْيَتَكِ.

كانَ يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوتِهِ، لا يُرِيدُ مُشارَكَةَ أُخْتِهِ الصَّغِيرَةِ في أَلْعابِهِ.

فَهُوَ يَمْلِكُ أَلْعاباً كَثِيرَةً، وهِيَ تَمْلِكُ أَلْعاباً مِثْلَهُ، لَكِنَّها تُحِبُّ اللَّعِبَ مَعَهُ.

تَرْمِي نَفْسَها، يَنْظُرُ إِلَيْهَا بِغَضَبٍ، يَدْفَعُها بِيَدَيْهِ.

الأُمُّ اعْتادَتْ عَلَى عِراكِهِما المُتَواصِلِ، هُوَ يُحِبُّ أُخْتَهُ، لَكِنَّهُ لا يُرِيدُها أَنْ تُخَرِّبَ أَلْعابَهُ الصَّغِيرَةَ.

أَخِيراً، قَرَّرَتِ الابْتِعادَ عَنْهُ. قَالَتْ:

ـ لا تُحِبُّني، لَنْ أَلْعَبَ مَعَكَ بَعْدَ اليَوْم.

فَرِحَ في أَوَّلِ الأَمْرِ، ثُمَّ افْتَقَدَ مُشاغَبَةَ أُخْتِهِ الصَّغِيرَةِ. تَمَنَّى لو تَعُودُ كما كَانَت.

لم يَعُدْ يُخْفِي أَلْعَابَهُ، يُغْرِيها بِالاقْتِرابِ واللَّعِبِ، لَكِنَّها تَرَى الغَضَبَ في عَينَيهِ.

حَزِنَ الصَّبِيُّ، حَزِنَتِ البِنْتُ، الأُمُّ أَيضاً حاوَلَتْ مَصالَحَتَهُما، فَما اسْتَطاعَتْ.

لم يَتَخاصَما قَبلَ اليوم، عِراكُهُما قَديمٌ، لَكِنَّهُما لا يَتَخاصَمان.

ظَنَّ أَنَّ أُخْتَهُ لا تُحِبُّهُ، ظَنَّتْ أَنَّهُ أَيضاً لا يُحِبُّها.

خَرَجَ لِيَلْعَبَ قُرْبَ الدَّارِ، شاهَدَ أُخْتَهُ عَلَى الشُّرْفَةِ، تَحْمِلُ عُروسَتَها الَّتي تُحِبُّها، رَأَتْهُ، حَزِنَتْ لأَنَّها لا تَلْعَبُ مَعَهُ.

أَرْخَتْ أَصابِعَها، سَقَطَتِ العَروسَةُ.

خَشِيَ الصَّبِيُّ أَنْ تَسْحَقَها إِطاراتُ السَّياراتِ فَتَحْزَنُ أُخْتُهُ، رَكَضَ لِيُعِيدَها إِلَيْهَا سَلِيمَةً.

سَيّارَةٌ مُسْرِعَةٌ كادَتْ تَصْدمُهُ، زَعِيقُ مَكابِحِها هَزَّ الحَيَّ.

حَمَلَ الصَّبِيُّ اللُّعْبَةَ العَروسَةَ، طارَ بِها إِلى البَيْتِ.

طارَ قَلْبُ أُخْتِهِ مِنَ الفَرَحِ، فَرِحَتْ بِنَجاةِ أَخِيها لا بِنَجاةِ اللُّعْبَةِ.

عَرَفَتْ كَمْ يُحِبُّها، عَرَفَ كَمْ تُحِبُّهُ، صارَا يَلْعَبَانِ مَعاً بِكُلِّ الأَلْعابِ، لَمْ تَعُدْ تُخَرِّبُ لَهُ أَلْعَابَهُ.

لَمْ يَتَعارَكا بَعْدَ ذَلِكَ اليَوْم، كانَ يُنادِيْها:

ـ اقْتَرِبي، اقْتَرِبي، لا أَتَحَمَّلُ بُعادَكِ.

مَرْحَباً

ما أَجْمَلَ هَذِهِ الكَلِمَةَ!

بعْضُ مَنْ أَلْقاهُمْ في يَوْمِيّاتي لا يَقُولُونَها، وإِنْ قالُوها كَانَت مِثْلَ المِسْكِ المُغَلَّفِ بِطَبَقَةِ غُبارٍ سَمِيكَةٍ، ولَكِنّي أَمْضَغُها بِسلامٍ.

فَهِيَ كَلِمَةٌ تُبَيِّضُ صَفَحاتِ الحَياةِ.

طُوبَى لِمَنْ يَقُولُها بِلا طَمَعٍ، لَكنَّني عامِلٌ بَسِيطٌ، لا تُلْقَى عَلَيَّ بِرِضًى كامِلٍ، بَلْ هِيَ مِثْلُ المَكْرُماتِ تُلْقَى، ولَعَلَّها شَيءٌ آخَرُ؟

السِّنْدِيانَةُ

في وَسَطِ حَدِيقَةِ بَيْتِها سِنْدْيانَةٌ، قَالَتْ لِزَوْجِها:

ـ إنَّ السِّنديانَةَ شاخَتْ، وحانَ وَقْتُ اجْتِثاثِها.

وَعَدَها أَنْ يَقْطَعَها مِنْ جُذُورِها عِنْدَما يَجِدُ وَقْتاً لِذَلِكَ.

سَأَلَتْهُ:

ـ لِمَاذَا لا تُحْضِرُ شَخْصاً يُزِيلُها مِنْ مَكانِها قَبْلَ أَنْ تَسْقُطَ وتُؤْذِيَ أَحَداً؟

ضَحِكَ الزَّوجُ:

ـ مُنْذُ مَتَى يا زَوجَتي العَزيزَة يَسقُطُ السِّنديانُ؟

لَمْ تَقْبَلِ الزَّوجَةُ بِهَذِهِ السُّخْرِيَةِ، شَعَرَتْ بَالحنقِ والغَضَبِ، حَمَلَتْ فَأْساً، وخَرَجَتْ لِتَقْطَعَ الشَّجَرَةَ بِنَفْسِها، لَكِنَّ الزَّوْجَةَ لا تَعْرِفُ كَيْفَ تَسْقُطُ سِنديانَةٌ، فَسَقَطَتِ السِّنديانَةُ عَلَيها، وأَصابَتْها بِكُسورٍ.

ظَلَّ زَوجُها يَضْحَكُ، ويَقُولُ:

ـ ما هَكَذَا يَسْقُطُ السِّنديانُ يا حَبيبَتي.

رِوَايَةٌ قَصِيرَةٌ مِثْلُ الأَحْلامِ

قِصَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ مِثْلُ الأَحْلامِ

لا تَسْأَلُوني ما اسْمُهُ حَبِيبي

لا تسألوني ما اسمه حبيبي

الحُلُمُ الأَوَّلُ: طُفُولَةٌ وشَبابٌ

مُنْذُ أَيّامِ الطُّفُولَةِ وأَحْلامُنا تَأْتي وتَذْهَبُ، وغالِباً ما تَضْمَحِلُّ وتَزُولُ مَعَ مُرورِ الأَيّامِ؛ لأَنَّ الأَحْلامَ عادَةً ما تُولَدُ مِنْ وَهْمٍ، وتَنْهارُ عَلَى أَعْتابِ واقِعٍ، وقَدْ سَمِعْتُ يَوماً وأَنا أَعْبُرُ الطُّفُولَةَ إِلى الشَّبابِ رَجُلاً مُتَوَسِّطاً في السِّنِّ يَقولُ:

ـ كُلَّما كَبُرْنا صَغُرَتْ أَحْلامُنا.

لم أُصَدِّقْ مَقولَتَهُ، ولم أَطْمَئِنَّ إِلَيْهَا، فَقَدْ كَانَتِ الحَياةُ أَمامِي واسِعَةً وسْعَ سَماءٍ، كَبيرَةً مِثْلَ بَحْرٍ، شاسِعَةً مِثْلَ فَضاءٍ.

فكَيْفَ لِتَجْرِبَةٍ مَهْما كَانَتْ أَنْ تَحُدَّ مِنْ أَحْلامِي؟! أَنْ تَمْنَعَ طائِراً مِنَ التَّحْلِيقِ في سَماءٍ لا حُدُودَ لَها.

فَلْيَقُلْ مَا يَشاءُ، ولْنُؤْمِنْ بِما نَشاءُ.

مَنْ هُوَ لِيُؤَطِّرَ لي أَفْكارِي وتَطَلُّعاتِي؟

ومَضَيْتُ في طَرِيقِي غَيْرَ عابِئٍ بِهِ وبِأَمْثالِهِ. لَسْتُ مُتَشائِماً عَلَى الإِطلاقِ.

لا هُوَ ولا غَيْرُهُ يَمْلِكُ تَسْيِيرَ أَفْكارِي، ولا أَظُنُّهُ يَقْصِدُ ذَلِكَ.

غَيْرَ أَنَّ مَقُولَتَهُ تَفاعَلَتْ في نَفْسِي، واسْتَفَزَّتْني مِنْ واقِعِي، لَكِنَّها لَمْ ولَنْ تُسَيِّجَ أَحْلامي بِأَفْكارٍ مُقْلِقَةٍ.

لَكِنَّ الحَياةَ كُلَّها مَجْمُوعَةُ أَحْلام، وهِيَ عِنْدَما تَتَحَقَّقُ في بَعْضِ جَوَانِبِها، نُصِرُّ عَلَى أَنَّها حُلُمٌ، ونَظَلُّ نَحْلُمُ ونَحْلُمُ ونَحْلُمُ، حَتَّى نَظُنَّ الواقِعَ جُزْءاً مِنَ الأَحْلام.

وقَدْ كُنْتُ مِثْلَ كَثِيرِينَ غَيرِي ـ وما زِلْتُ ـ كَمَلايِينَ، ورُبَّما كَمِلْيارَاتٍ مِنَ البَشَرِ، أُصِرُّ عَلَى أَنْ أَعِيْشَ الأَحْلامَ، وَأَنْ أُبادِرَ إِلَيْهَا، ورُبَّما أَنْسِجُ أَحْلاماً أُخْرَى مِنْ واقِعٍ، ولو كَانَتْ عَلَى حِسَابِ الحَقِيْقَةِ.

أَمَّا هِيَ، فَلَمْ تَكُنْ مِثْلي، مَعَ أَنَّها كَانَت تَأْتِي في سُوَيْعاتٍ مِنْ خَيالاتٍ لا تَنْتَهِي، تَسْرِي في تَفاصِيلِي، في مَشَاهِدَ يَوْمِيَّةٍ دائِمَةٍ لا تَنْقَطِعُ.

مَرْأَى حَتْمِي، كَأَنَّهُ واقِعٌ مَلْمُوسٌ، مَعَ افْتِرَاضِهِ نَسِيْجاً مِنْ رُوْحٍ ودَمٍ ـ وبِالطَّبْعِ ـ إِنَّها خَيالاتٌ «واقِعِيَّةٌ» لا تَتَوَقَّفُ عَنْ نَبْضٍ في قَلْبٍ دافِئٍ يَتَدَفَّقُ بِالحَياةِ.

هَكَذَا عَرَفْتُها في عُمْقِ أَحْلامِي، ضَوءاً يَمْشِي عَلَى بِسَاطٍ سِحْرِيٍّ مُمْتَدٍّ آخِرُهُ الأُفُقُ، وأَوَّلُهُ هُنا داخِلُ صَدْرِي، في أَعْماقِ حُجَيْرَاتِ قَلْبي.

كَانَتْ تَسْكُبُ فيَّ أَحْلاماً وتَمْضِي.

تَزْرَعُ في حَنايَايَ صَفَاءً ونَقَاءً. تَسْطَعُ في فَضائِي المُظْلِمِ حِينَ يَمَلُّ اللَّيْلُ جُفُونَهُ، والحُزْنُ دُمُوعَهُ، والبَحْرُ ماءَهُ، فَتَنْقَضُّ عَلَى مَشَاعِرِي تَفْتَرِسُ ما في دَوَاخِلِي مِنْ بَقَايَا إِنْسَانٍ.

كَانَتْ تَأْتِي في أَوْقَاتٍ عَزَّ زَمَانُها ومَكَانُها.

تَرْسُمُ في أُفُقِ الوُجُودِ قَصْراً مِنْ رِمَالٍ.

تُبْدِعُهُ لَحْناً عَلَى أَوْتَارِ فَرَحٍ بَاقٍ رَغْمَ الفَقْدِ.

وظَلَّتْ تَعِيشُ في فَضاءٍ ما، ووَقْتٍ ما، راسِخَةً في قَلْبٍ خَفُوقٍ، يَنْبُضُ مَعَ وَمِيضِ ثَغْرِها الوَضِيءِ.

كَانَتْ تَشْغَلُ نَفْسِي بِسَنَا ضَوْءٍ لا يَتَوَقَّفُ، أَسْتَجْمِعُ كُلَّ قِوَايَ لأُفَكِّرَ فِيها.

بَلْ لَمْ تَكُنْ تَنْتَظِرُني لأُفَكِّرَ، فَهِيَ تَأْتِي كَبَرْقٍ في سَحَابَةٍ، أو كَنَسْمَةٍ في فَضَاءٍ.

أَيّامٌ وأَيّامٌ! كَانَتْ خَلِيلَةَ كُلِّ أَحْلامِي، سِرَّ بَقَائِي.

سَنَواتٌ عَلَى مَرِّ الحَياةِ ومُرِّها، لا أَعْرِفُ لَها عَدّاً ولا مَنْ يَعُدُّونَ، تَقَاسَمْتُ مَعَ تَقَاسِيمِها تَفَاصِيلَ وُجُودِي.

لَوْ ضَحِكَتْ أَضْحَكُ بِطَيْفِها المَطْبُوعِ مِثْلِ وَمْضٍ في خَاطِرِي، مِثْلِ وَرْدٍ بَاسِمٍ، مِثْلِ عِشْقٍ مُتَوَّجٍ بِالغَارِ.

ومَضَيْنَا في أَيَّامِنَا وأَحْلامِنَا، حَتَّى كَادَتْ كُلُّ الأَحْلامِ والأَيَّامِ تَتَلاشَى مَعاً.

لَكِنَّها بَقِيَتْ مُوْرِقَةً، مُزْهِرَةً، بَهِيَّةً، كَما هِيَ.

تَصْنَعُ مِنْ تَفَاصِيلِي انْتِصَاراتِ حَيَاةٍ.

تَغْزِلُ مِنِ انْكِسَارَاتِي وِشَاحَ قُوَّةٍ، يُشْعِلُ في نَفْسِي شَرَارَتَها، فَأَعُودُ مَعَهَا مُنْتَصِراً، مَعَ كُلِّ خَسَارَةٍ.

وتَبْقَى نَجْمَةً بَرِّيَّةً تَلْمَعُ في سَمَاءٍ.

كَانَت حُلُمَاً بَعِيْداً بَعِيْداً، كَصُبْحٍ دَافِئٍ في ثَلْجِ شِتَاءٍ، كَنَبْتَةٍ حَيْرَى في أَرْضِ مَوَاتٍ، كَلَمْسَةِ عَطْفٍ في فَيْضِ شَقَاءٍ.

تَسْطُعُ كَنَجْمَةٍ رَاقِصَةٍ في لَيْلِ صَيْفٍ احْتَرَقَ نَهَارُهُ، فَتَبْسُمُ في شَوْقٍ تُلَطِّفُ رَمَضَهُ.

الحُلُمُ الثَّاني: تَفَاصِيلُ مِنْ صُنْعِ يَدَيَّ

عِشْتُ دَهْراً أَرْسُمُ صُوَراً مِنْ خَيَالاتٍ مُلَوَّنَةٍ لا تَنْقَطِعُ.

تَفَاصِيلُ صَنَعْتُهَا بِيَدَيَّ هاتَيْنِ، وأَصْبَحتْ خَلِيْلَةَ ذَاتِي.

أُجَسِّدُ مَا لَيْسَ مِنْ وَاقِعٍ وَاقِعَاً.

أَعِيْشُهُ وَهْماً، كَإِدْمَان لا ارْفِضَاضَ عَنْهُ.

عَادَةٌ يَوْمِيَّةٌ عَشِقْتُها بِجُنُونٍ، عِشْتُهَا وَحْدِي. لَمْ أُخْبِرْ بِها أَحَداً، لا لأَنانِيَّةٍ أَوِ اسْتِئْثارٍ، بَلْ لأَنَّها سِرِّي، وَلَهِي.

بَلْ بِالأَصَحِّ (حُلُمِي) الَّذِي لا أَوَدُّ أَنْ يُشارِكَني فِيهِ أَحَدٌ مَهْما كانَ قَرِيْباً مِنِّي.

ولا أَنْكرُ أَنِّي حاوَلْتُ أَنْ أَعِيْشَ مِثْلَ غَيرِي.

مَرَرْتُ بِمُغَامَرَاتٍ كَثِيرةٍ، عَرَفْتُ نِسَاءً مِنْ كُلِّ لَوْنٍ وطَعْمٍ.

عِشْتُ مَعَ نِزَارٍ في مُغَازِلاتِهِ، ومَعَ جَمِيلٍ في وَلَهِهِ، ومَعَ قَيْسٍ في وَجَعِهِ.

لَكِنَّني ظَلَلْتُ في النِّهايَةِ وَحْدِي، بِرِفْقَةِ أَحْلامِي.

عَشِقْتُ (المَساءَ) لإيْلِيا أَبي ماضِي، حِينَ يَرْسُمُ صُورَةً حَيَّةً في خَيَالِي:

(السُّحُبُ تَرْكُضُ في الفَضَاءِ الرَّحْبِ رَكْضَ الخَائِفِينْ
والشَّمْسُ تَبْدُو خَلْفَهَا صَفْرَاءَ عاصِبَةَ الجَبِينْ
والبَحْرُ سَاجٍ صامِتٌ فِيهِ خُشُوعُ الزَّاهِدِينْ

لَكِنَّمَا عَيْنَاكِ بَاهِتَتانِ في الأُفقِ البَعِيْدْ
سَلْمَى... بِمَاذا تَفْكُرِيْنْ؟
سَلْمَى... بَماذا تَحْلُمِيْنْ؟
أَرَأَيْتِ أَحْلامَ الطُّفُولَةِ تَخْتَفِي خَلْفَ التُّخُومْ؟
أَمْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكِ أَشْبَاحَ الكُهُولَةِ في الغُيُومْ؟
أَمْ خِفْتِ أَنْ يَأْتِيَ الدُّجَى الجَانِي ولا تَأْتِي النُّجُومْ؟
أَنَا لا أَرَى مَا تَلْمَحِينَ مِنَ المَشَاهِدِ إِنَّما
أَظْلالُها في نَاظِرَيْكِ
تَنُمُّ - يَا سَلْمَى - عَلَيْكِ)

إِلَى أَنْ يَقُولَ:

(ماتَ النَّهارُ ابْنُ الصَّبَاحِ فَلا تَقُولِي: كَيْفَ مَات؟
إِنَّ التَّأَمُّلَ في الحَيَاةِ يَزِيدُ آلامَ الحَياةْ
فَدَعِي الكَآبَةَ والأَسَى، واسْتَرْجِعِي مَرَحَ الفَتَاةْ
قَدْ كَانَ وَجْهُكِ في الضُّحَى مِثْلَ الضُّحَى مُتَهَلِّلاً
فِيهِ البَشَاشَةُ والبَهَاءْ
لِيَكُنْ كَذَلِكَ في المَسَاءْ)

كَلِمَاتٌ تَحْفرُ عَمِيقاً عَمِيقاً، تُنْبِتُ المَشَاعِرَ في صَلابَةٍ وقَسْوَةٍ وحَنانٍ، تُرَفْرِفُ فَوْقَ أَحْلامٍ.

هُوَ يُرَدِّدُ بِلَذَّةٍ اسْمَ (سَلْمَى)، وأَنَا لا أَجْرُؤُ. هُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْها، يَرْسُمُهَا، يُصَوِّرُها، يُذِيْعُ سِرَّها، يُخَلِّدُها، وأَنا لا أَقُولُ: مَنْ؟ مَنْ؟

فَـ (لا تَسْأَلُوني ما اسْمُهُ حَبِيبي).

الحُلُمُ الثَّالِثُ: رِيشَةُ شَاعِرٍ

وفي يَوْمٍ، سَاعَةَ مَساءٍ.

والمَساءُ في نَفْسِي مُزْدَحِمٌ عَلَى الدَّوَامِ.

مَسَاءٌ رَسَمَتْهُ رِيْشَةُ (أَبي ماضِي) السِّحْرِيَّةِ مِنْ شِعْرٍ وأَحْلامٍ، ودَمْعٍ وأَمَلٍ.

ذَات مَساءٍ، رَأَيْتُها حُلُماً مُتَجَلِّياً بِصَفَاءٍ، أَو رُبَّما طَيْفَاً عَابِراً كَضِياءٍ.

كَانَتْ نُجُومُ سَمائِي في أَمْكِنَتِها كَالعادَةِ، تَرْسُمُ في لَيَالِي نَفْسِي هَشِيْماً مِنْ فَرَحٍ.

كَانَ مَسَاءً لْألاءَ وَضَّاءَ.

طَيْفٌ ظَهَرَ دُونَ اسْتِئْذَانٍ، نَبَتَ كَرِيْحَانَةٍ في أَرْضٍ تَكَادُ تَمُوتُ مِنَ العَطَشِ، أَشْرَقَ كَشَمْسٍ في لَيْلَةٍ لَيلاءَ.

ودُونَ تَوَقُّعٍ وتَرَقُّبٍ، هَلَّتْ نَسَائِمُ عِطْرِيَّةٌ سِحْرِيَّةٌ جاءَتْ مِنْ بَعْدِ أَحْلامٍ.

تَوَسَّدَتْ قَلْباً، بَلْ تَمَلَّكَتْهُ، وهُوَ لَها مِنْ قَبْلِ أَنْ يُشْرِقَ ذَلِكَ المَساءُ.

لَمْ يُصَدِّقِ القَلْبُ ما يَرَى. لَمْ يَعِ لِلْفَرَاغِ امْتِلاءً كَلَحْظَتِها، ولَمْ تُدْرِكِ الرُّوحُ انْطِلاقَاً كَلَحْظَتِها.

تَجَمَّعْتُ حَوْلَ نَفْسِي، أَبْحَثُ عَنْ أَجْزَائِيَ المُبَعْثَرَةِ المَفْقُودَةِ.

تَفَرَّسْتُ في حَقِيقَتِها، في جَوْهَرِها، في حَرَكاتِها وسَكَنَاتِها، وصُحْتُ في أَعْماقِي:

ـ أَلَسْتُ أَحْلُمُ؟! أَلَيْسَ حُلُماً أَنْ تَتَجَسَّدَ الأَحْلامُ أَمَامَنا، فَلا نُصَدِّقُ ما تَرَاهُ العَيْنُ، وما تَسْمَعُهُ الأُذنُ؟

(عَجَباً لأَمْرِكَ أَيُّها الإِنْسَانُ، كَأَنَّ خُبْزَكَ اليَوْمِيَّ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ عَذابٍ، غَيْرَ قَهْرٍ، تَكْتُبُ عَلَى نَفْسِكَ الأَلَمَ، حَتَّى في لَحَظَاتِ الفَرَحِ عِنْدَما تَكُونُ شابّاً تُفَكِّرُ دائِماً بِالهَرَمِ، وعِنْدَما تَكُونُ غَنِيّاً تَخافُ دائِماً الفَقْرَ. وعِنْدَما تَكْبُرُ تَتَحَسَّرُ عَلَى أَيّامِ الشَّبَابِ).

صَارَتْ نَظَراتي تَرْتَجِفُ في اللحظَة الأُولى، وكُنتُ بِتَفاصِيلِي أَرْتَعِدُ مِثْلَ نُورِ مِصْباحِ جَدَّتِي القَدِيم.

قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُجَرَّدَ تَوَجُّسٍ لا مُبَرِّرَ لَهُ، أَو صَدْمَةٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعَةٍ.

رُبَّما، لَسْتُ أَدْرِي.

ثُمَّ تَوَارَتْ في حِجَابٍ كَنَجْمَةٍ خَلْفَ سَحَابَةٍ، تَسْرُقُ الأَحْلامَ مِنْ وَاقِعِها، تَمْلأُ البَحْرَ ماءً، تَزْرَعُ شُهُبَ السَّمَاءِ.

لَكِنَّها وفي كُلِّ حَالٍ بَدِيْعَةٌ كَتِلْكَ اللَّحْظَةِ.

فَمَا أَبْدَعَ الأَحْلامَ حِيْنَ تَتَرَاءَى في جَنَباتِ حَقِيقَتِها!

مَا أَنْبَهَ النَّفْسَ حِيْنَ تَتَقَمَّصُ أَحْلاماً تُضِيءُ في دَياجِيرَ لا تَنْتَهي!

وفي لَحَظاتٍ تَبَدَّلَ كُلُّ شَيءٍ... لم يَعُدِ المَكَانُ هُوَ المَكَانُ، ولا الزَّمَانُ هُوَ الزَّمانُ.

هِيَ هِيَ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ أَنا.

كَانَتِ الأَفْكارُ تَتْرَى، تَتَصَاعَدُ مِثْلَ دُخَانِ مِدْفَأَةِ حَطَبٍ في لَيْلَةٍ شَتَوِيَّةٍ بَارِدَةٍ.

تَجَمَّدَتِ الأَطْرَافُ.

ابتَلَعْتُ رِيْقِي، لَكِنَّ الرِّيْقَ انْقَطَعَ.

سَمِعْتُ صَوْتَ فَيرُوزَ يَتَرَاقَصُ مُغَرِّداً مِنْ بَعِيْدٍ.

(مـا تَـارِي الـكَـلامْ بِـيـضَـلُّـو كَـلامْ
وكِـلْ شِـي بْـيِـخْـلَـصْ حَـتَّـى الأَحْـلامْ)

فَهَلِ الأَحْلامُ تَنْتَهي حَقّاً؟ هَذَا مُسْتَحِيلٌ، فَالحَياةُ مَجْمُوعَةُ أَحْلام، والحَيَاةُ لا تَتَوَقَّفُ إِلَّا بِالمَوْتِ، وحَتَّى أَنَّنَا نَحْلُمُ بِالحَياةِ مَا بَعْدَ المَوتِ، فَكَيْفَ تَمُوتُ الأَحْلامُ وتَنْتَهِي؟!

ورُحْتُ أُنْشِدُ مَعَ فَيرُوزَ في هَمْسٍ وخُشُوعٍ:

(لاتَـسْـأَلُـونـي مَـا اسْـمُـهُ حَـبِـيـبـي
أَخْـشَـى عَـلَـيْـكُـم ضَـوْعَـةَ الـطِّـيُـوبِ
واللهِ لَـو بُـحْـتُ بِـأَيِّ حَـرْفٍ
تَـكَـدَّسَ الـلَّـيْـلَـكُ فـي الـدُّرُوبِ
لاتَـسْـأَلُـونـي مـا اسْـمُـهُ.. مـا اسْـمُـهُ
مـا اسْـمُـهُ حَـبِـيـبـي
تَـرَوْنَـهُ فـي ضِـحْـكَـةِ الـسَّـوَاقِـي
فـي رَفَّـةِ الـفَـرَاشَـةِ الـلَّـعُـوبِ
فـي الـبَـحْـرِ، فـي تَـدَفُّـقِ الـمَـرَاعِـي
وفـي غِـنَـاءِ كُـلِّ عَـنْـدَلِـيـبِ
فـي أَدْمُـعِ الـشِّـتَـاءِ حِـيْـنَ يَـبْـكِـي
وفـي عَـطَـاءِ الـدِّيـمَـةِ الـسَّـكُـوبِ

مَـــحَـــاسِـــنٌ لا ضَـــمـــمـــتَّـهـــا كِـــتَـــابٌ
ولا ادَّعَـــتْـــهـــا رِيْـــشَـــةُ الأَدِيـــبِ
لاتَـــســـأَلُـــونـــي... مـــا اسْـــمُـــهُ
كـــمَـــاكُـــمْ. فَـــلَـــنْ أَبُـــوحَ بـــاسْـــمِـــهِ
حَبِـيـبِـي).

الحُلُمُ الرَّابِعُ: لَيْلٌ وصَبَاحٌ

ومَضَى لَيْلٌ طَوِيلٌ طَويلٌ، طَوَاهُ لَيْلٌ كَمَا لَمْ يَطْوِ مِنْ قَبْلُ، وجاءَ صُبْحٌ عَجِيبٌ.

ولِكُلِّ صَباحٍ مَعَهُ عَجِيبَةٌ.

وتَحَوَّلَتِ الصَّبَاحَاتُ والمَسَاءَاتُ، وتَغَيَّرَ وَهْجُ الشَّمْسِ، وشَكْلُ البَحْرِ، ولَوْنُ السَّماءِ.

وتَبَدَّلَ طَعْمُ الماءِ، ورائِحَةُ الزَّهْرِ، وصَوْتُ الحَمائِمِ، وزَخَّاتُ المَطَرِ.

واشْتَدَّ ضَوْءُ القَمَرِ، وغَنَّى اللَّيْلُ، وتَرَاقَصَتْ أَغْصَانُ الشَّجَرِ.

وأَصْبَحَ لأُغْنِيَةِ (حَبِيبي) ثَوْبٌ آخَرُ.

هَذِهِ الأُغْنِيَةُ الَّتي سَمِعْتُها ـ مِنْ قَبْلُ ـ رُبَّما أَلْفَ مَرَّةٍ، سَمِعْتُها اليَوْمَ كَأَنَّما لِلْمَرَّةِ الأُوْلَى، لا تُشْبِهُ كُلَّ تِلْكَ المَرَّاتِ.

كَانَتِ الأَفْكارُ مُتَناثِرَةً، والأَحْلامُ مُبَعْثَرَةً مُتَقَاطِرَةً، وطَيْفُ الماضِي لَمْ يَزَلْ ماثِلاً خَلْفَ عُيونٍ ما لها عُنْوانٌ.

ومَضَيْنا مَعاً في رِحْلَةِ حُلُمٍ قَشيبٍ ـ أَو تَلِيدٍ ـ لَمْ أَعُدْ أَدْرِي!

مِنْ أَيْنَ جاءَتْ!

لَسْتُ أَدْرِي! كَيْفَ؟! مَتَى؟! لِمَ؟! لَسْتُ أَدْرِي. لَسْتُ أَدْرِي!

كَيْفَ احْتَوَتِ المَشاعِرَ والأَحاسِيْسَ وتَمَكَّنَتْ مِنْ مَنَابِعِها؟

كُلُّ ما فِيها عَجَبٌ!

لَيْسَ لِلأَحْلامِ بُعْدٌ. وهَلْ فِعْلاً تَنْتَهِي الأَحْلامُ مِثْل كُلِّ شَيءٍ؟

عَزَفَتْ أَمَامِي أَنْغَاماً مُوْسِيْقِيَّةً غَيْرَ مَسْبُوقَةٍ.

لأَوَّلِ مَرَّةٍ أَجِدُ نَفْسِي أَتَخَلَّى عَنْ كُلِّ أَوْرَاقِي الدَّفِينَةِ.

أَسْتَسْلِمُ، أَرْفَعُ كُلَّ رايَاتِيَ البَيْضَاءِ بِسُهُولَةٍ، وحَتَّى قَبْلَ أَنْ أَدْخُلَ المَعْرَكَةَ.

لَمْ أَعُدْ أَجْرُؤُ عَلَى تَخَطِّي نَفْسِي، فَقَدْ كَانَتْ في واقِعِها أَجْمَلَ مِنْ كُلِّ الأَحْلامِ.

اعْتَرَتْ قَلْبي حالَةُ تَرَنُّحٍ وتَمَاهٍ.

صَدَّقْتُ الواقِعَ، فَنَسيتُ الأَحْلامَ.

عِشْتُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ حُلُمِي، لَمَسْتُهُ بِيَدِي، تَعَمْلَقَ في ذَاتِي، حَتَّى كِدْتُ أُصَدِّقُ.

وفاتَنِي أَنَّ الأَحْلامَ شَيءٌ والواقِعُ شَيءٌ آخَرُ مُخْتَلِفٌ تَمَامَاً عَنْ أُغْنِياتٍ وقَصَائِدَ مَنْحُوتَةٍ في صَخْرٍ.

حَالَةٌ مِنَ العُري الصَّادِقِ لا تَأْتِي بِسُهُولَةٍ، لَكِنَّها رُبَّمَا تَذْهَبُ مَعَ أَقَلِّ النَّسَماتِ رِقَّةً.

اسْتَسْلَمْتُ لِمَرْئِيَّاتِي، كَانَتْ أَحْلامِي صَيْدَ مَشَاعِرَ، قَنْصَاً بَعِيْداً تَمَاثَلَ أَمَامِي.

وصِرْتُ أُنْشِدُ لَها كُلَّمَا اسْتَقَلَّتْ مَشَاعِرِي بَعْدَ ذَلِكَ:

لا يَعْرِفُ الحُبَّ إِلّا مَنْ يُكابِدُهُ ولا الصَّبَابَةَ إِلّا مَنْ يُعَانِيْها

فَتُجِيبُ ضَاحِكَةً:

ـ نَصَّابٌ. لا أُصَدِّقُ. لا أُصَدِّقُ.

أَمَّا أَنَا فَأَعُودُ إِلى فَيْرُوزَ، رُبَّمَا لأَرْسُمَ مِنْ خِلالِها حُلُماً آخَرَ.

لَكِنَّ الأَحْلامَ بَاتَتْ عَصِيَّةً مُتَمَرِّدَةً حَرونَ.

(كــلْ شِــي بْــيِــخْــلَــصْ حَــتَّــى الأَحْــلامْ!)

هَلْ يُمْكِنُ؟ حَتَّى الأَحْلام! وأَيُّ أَحْلامٍ؟!

الحُلُمُ الخامِسُ: لَوَّحْتُ بِيَدِي مُوَدِّعاً

لَكِنَّنا فَجْأَةً، وقَبْلَ أَنْ تَكْتَمِلَ فُصُولُ رِوايَتِنا، غَيَّرْنا الواقِعَ وبَدَّلْناهُ.

غَيْرَ أَنِّي ما تَغَيَّرْتُ ولا تَبَدَّلْتُ، لَكِنْ تَقَزَّمَتْ في نَفْسِي وَقائِعُ الأَحْلامِ، ولَمْ تَتَقَزَّمْ هِيَ عِنْدِي، ولَمْ تَتَبَدَّدْ.

ـ لَسْتُ أَنا مَنْ يَبِيْعُكَ الوَهْمَ.

لَمْ تَقُلْها، ومَعَ ذَلِكَ سَمِعْتُها.

قُلْتُ بِرَهْبَةٍ:

ـ جُدُرٌ عالِيَةٌ، لَمْ تَبْدُ في أَحْلامِي.

سَمِعْتُ مِنْ بَعِيْدٍ جُمْلَةً مُكَرَّرَةً أَبْغَضُها: (الأَحْلامُ شَيءٌ، والواقِعُ شَيءٌ آخَرُ).

خَطَفَتْ قَلْبِي مِنْ وَرَائِي، ثَقَبَتْ فِيهِ نَفَقاً، لَمْ يَعُدْ هُناكَ حُلُمٌ يَجْرُؤُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، حَمَلْتُ أَوْراقِي وصَمْتِي ـ ورُبَّما مُصِيبَتِي ـ لَمْ أَتَمالَكْ حَتَّى أَنْ أُلْقِيَ تَحِيَّةً.

ومِنْ بَعِيْدٍ، كَمَنْ يَخْشَى نَفْسَهُ، كَفارِسٍ سَقَطَ مِنْ صَهْوَةِ جَوَادِهِ في قَلْبِ مَعْرَكَةٍ، لَوَّحْتُ بِيَدِي مُودِّعاً قَبْلَ أَنْ أَعودَ جاثِياً.

لَمْ أَعْرِفْ قَبْلَها (أُنْثَى) حَرُونَ مِثْلَها.

فِيها ما لَيْسَ بِغَيرِها. اكْتَشَفْتُ أَشْياءَ وأَشْياءَ، لَكِنَّها قاوَمَتْ، قاتَلَتْ كُلَّ الأَحْلامِ، ولَمْ تَنْتَصِرْ.

صاحَتْ:

ـ لا لِلأَحْلامِ.

وعِنْدَما هَوَتِ الأَحْلامُ تَحتَ قَدَمَيْها، لَمْ تَدُسْهَا، فَهِيَ لا تَعْرِفُ أَنْ تَدُوسَ مَنْ تَكْرَهُ، فَكَيْفَ مَنْ تُحِبُّ؟!

لَمْ تَرْفُضْ، لَمْ تَعْتَرِضْ، لَكِنَّها لا تَسْتَسْلِمُ:

ـ أَنْتَ جَرِيءٌ جِدّاً. أَنا لا أُحِبُّكَ ولا أَكْرَهُكَ. رُبَّما مَعَ الأَيّامِ أُحِبُّكَ.

عِطْرُها طَبِيعِيٌّ:

ـ لا أُحِبُّ المَساحِيقَ. أنتِ أَجْمَلُ مِنَ الحُلُمِ نَفْسِهِ.

تَضْحَكُ بِلُطْفٍ، تَنْظُرُ إِلى أَعْلَى، ثُمَّ تَعودُ لِلنَّظَرِ نَحْوِي نَظَراتٍ حالِمَةً:

ـ أَمَا زِلْتَ تَحْلُمُ؟!

ـ الحُلُمُ صَدِيقِي، ورَفِيقُ دَرْبِي. وأَنْتِ أَعْظَمُ أَحْلامِي.

ـ أَلَمْ يَقُلْ لَكَ أَحَدٌ مِنْ قَبْلُ أَنَّكَ نَصّابٌ؟

ـ هَلْ تَسْمَحِي؟

ـ بِمَاذا؟

ـ أُرِيدُ أَنْ أُقَبِّلَ أَصَابِعَ قَدَمَيْكِ.

تُطِلُّ دَهْشَةٌ مِنْ عَيْنَيْهَا، تَرْفُضُ بِبَرِيقٍ عَجِيبٍ:

ـ مُسْتَحِيلٌ.

ـ أَرْجُوكِ.

ـ مُسْتَحِيلٌ. كَيْفَ؟ كَيْفَ؟ لا يُمْكِنُ.

تَضُمُّ يَدَيْهَا إِلى صَدْرِها بِخَوفٍ، مَعَ أَنَّ كُثُراً حاوَلُوا تَقْبِيلَ تُرابٍ يَقَعُ مِنْ أَسْفَلِ نَعْلِها، باهِظِ الثَّمَنِ.

كَانَتْ عِنْدِي أَثْمَنَ مِنْ كُلِّ الوُجُودِ، وكُنْتُ لَها أَثْمَنَ مِنْ (لَثْمِ قَدَمٍ).

قَالَتْ بِحَزْمٍ:

ـ لا تُوجَدُ مَرَّةٌ ثانِيَةٌ.

اعْتَدتُ أَنْ أَسْتَجِيبَ لَها بِلا نِقاشٍ.

ومَضَيْتُ حَيْثُ لا أَعُودُ، مَضَيْتُ إِلى مَجْهُولٍ، إِلى عالَمٍ لا يَعْرِفُ كَيْفَ يَحْلُمُ، كَيْفَ يَمْضِي.

غَادَرْتُ بِلاداً وبِلاداً. قَطَعْتُ جِبالاً ووُدْيانَ.

مَشَيْتُ نَحْوَ الضَّياعِ بِقَدَمَيَّ هاتَيْنِ، غَرَزْتُ في عُمْقِ أَحْلامِي خَنْجَراً مَسْنُوناً.

لَكِنَّها بَقِيَتْ تَصْنَعُ كُلَّ تَفاصِيلِي، تَجْعَلُ مِنّي قِطَعاً لأَلْعابِها الصَّغِيرَةِ.

تُشْعِلُ في أَنْفاسِي مَشاعِرَها الرَّقِيقَةَ، وتَرْسُمُ في مُخَيِّلَتي طُقوسَها الفَرِيدَةَ.

وبَقِيَتْ كُلُّ الأَحْلامِ تاجاً مُرَصَّعاً عَلَى هامَتِها، وبَقِيْتُ أَنا مَصْلوباً عَلَى جُدْرَانِ مَدِينَتِها.

أَخُطُّ في جِوارِ الوتدِ المَغْروزِ في كَفَّيَّ الدَّامِيَتَينِ:

(لا تَسْأَلُونِي ما اسْمُهُ حَبِيبِي).

الحُلُمُ السَّادِسُ: ذِكْرَياتُ واقِعٍ قَصِيرٍ

رُحْتُ أَسْتَعِيدُ ذِكْرَياتِ واقِعٍ قَصِيرٍ مَعَها.

عِنْدَ أَوَّلِ الْتِقاءِ نَظَراتٍ، عَرَفْتُها، دارَ حِوارٌ سَرِيعٌ مُرْتَبِكٌ.

لَمْ أَقْدِرْ عَلَى التَّواصُلِ، فَقَدْتُ كُلَّ وَقارِي وصَرامَتي.

عَرَفْتُ رَقَمَ هاتِفِها، وبُعَيْدَ لَحَظاتٍ، أَرْسَلْتُ رِسالَةً قَصِيرَةً:

ـ كانَ حُضورُكِ رائِعاً.

لَمْ تَبْخَلْ بِإِجابَةٍ أَقْصَرَ:

ـ أَنْتَ الرَّائِعُ.

طَلَبْتُ لِقاءً، كَلَّمْتُها. قالَتْ:

ـ هَلْ أَعْرِفُكَ؟ أَشْعُرُ أَنّي الْتَقَيْتُكَ مُنْذُ زَمَنٍ.

ـ وأَنا مِثْلُكِ. أَجَبْتُها بِيَقِينٍ.

أَيَّتُها الحُلُمُ الآتي دِفْئاً مِثْل نَسائِمِ وَرْدَةٍ بَرِّيَّةٍ، تَعْصِرِينَ كُلَّ مُخَيِّلَتي، تَسْقِينَ بِها عُشْباً عَلَى رَمَضِ رِمالٍ صَحْراوِيَّةٍ.

تُفَتِّشِينَ في أَنْفاسِي عَنْ نُقوشٍ لَيْستْ مَوْسِمِيَّةً ولا سَطْحِيَّةً، عُمْقُها عُمْقُ بَحْرٍ، وصَداها صَدَى شَوْقٍ.

كَانَت تَفاصِيلُها الَّتي أَرَاها لأَوَّل مَرَّةٍ صورَةً ساطِعَةً في نَفْسِي.

وفي ثانِيَةٍ واحِدَةٍ تَناثَرَتْ كُلُّ الحَواجِزِ بَيْنَنا ـ أَو بِالأَصَحِّ هَكَذَا ظَنَنْتُ ـ لَمْ أَسْأَلْها مَنْ أَنْتِ، لأَنَّها اخْتَزَلَتْ في عَيْنَيْهَا كُلَّ حِكاياتِ الدُّنْيا.

والنَّفْسُ عِنْدَما تُلاقِي ما تَتَمَنّاهُ، تَنْسَى الواقِعَ أَو تَتَناساهُ.

تَتَجَمَّدُ في كَينُونَتِها كُلُّ تَجارِبِ الحَياةِ وخُبراتِها، وتَشُلُّ كُلَّ مَراحِلِ التَّفْكِيرِ والتَّأَمُّلاتِ، ويَسْطَعُ الحُبُّ بِكُلِّ ما فِيهِ مِنْ خَيالاتٍ، وأَحْلامٍ، وتَهَيُّؤاتٍ.

أَمَّا أَنا فَلَمْ أَسْكُنْ مُنْذُ أَنْ رَأَيْتُها. صارَ العالَمُ عِنْدِي مُخْتَلِفاً.

تَوَسَّدْتُ عَيْنيها بِلا اسْتِئذانٍ.

كَانَتْ كَرِيمةً بِإِحْسانٍ، سَخِيَّةً كَطَيفِ أَحْلامٍ.

عِنْدَما تَضْحَكُ، تُغْلِقُ عَيْنَيْهَا.

ـ آه... آه... إِلى هَذَا الحَدِّ أَنْتِ تُدْرِكِينَ أَنَّ النّاظِرَ إِلَيكِ لا يُمْكِنُ أَنْ يَنْظُرَ إِلى فَضاءِ عَيْنَيْكِ ومَساحَةِ ابْتِسامَتِكِ في آنٍ واحِدٍ؟!

صُورَةٌ حَقِيقِيَّةٌ لا يُمْكِنُ وَصْفُها ولا تَخَطِّيْها. واقِعٌ عَجِيبٌ، لَمْ أَكُنْ أَحْلُمُ الآنَ بِهِ عَلَى الإِطْلاقِ.

ـ صَدِّقِي! أَنْتِ تَرْحَمِينَ النّاسَ بِذَلِكَ.

فَمَنْ ذَا الَّذي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَى هَذَينِ المَشْهَدَينِ في وَقْتٍ واحِدٍ؟!

تَخْجَلُ عِنْدَما تَسْمَعُ هَذَا الكَلامَ، تَرْفَعُ رَأْسَها، ثُمَّ تُخْفِضُهُ، وتَنْظُرُ إِلى الأَرْضِ.

هِيَ تَعْرِفُ أَنَّها أَقْوَى مِنْ بُرْكان، ومِنْ طوفان.

تَصِفُ ما في داخِلِها بِتِنِّين سَجِينٍ. ومَنْ يَجْسُرُ عَلَى اخْتِراقِ حُجْرَةِ التِّنِّينِ؟!

الحُلُمُ السَّابِعُ: قَلْبٌ وسَيَّارَةٌ

سَيَّارَتِي تَجُوبُ شَوارِعَ المَدِينَةِ، وقَلْبي يَجُوبُ الفَضَاءَ.

هِيَ إِلى جانِبي، تَنْظُرُ إِلى السَّماءِ حِيناً، وإِلى النّاس مِنْ حَولِنا حِيناً آخَر.

كانَ عِطْرُها يَمْلأُ صَدْرِي. لمْ أَعِ الفارِقَ بَينَنا.

قُلْتُ، ولأَوَّلِ مَرَّةٍ أَقُولُها صَادِقاً:

ـ أُحِبُّكِ.

ضَحِكَتْ.

ـ هَكَذَا! بِكُلِّ بَسَاطَةٍ؟! عَلاقَتُنَا لمْ يَمْضِ عَلَيها أربعٌ وعشرونَ ساعَةً؟!

ـ وهَلِ الحُبُّ يُحْسَبُ بِالسّاعاتِ والثَّواني؟

لمْ تَقُلْ في أَوَّلِ لِقاءٍ:

ـ أَنْتَ نَصّابٌ.

قَالَتْ ذَلِكَ بَعْدَ لِقاءاتٍ يَومِيَّةٍ سَرِيعَةٍ عَجِيبَةٍ، بَدَّلَتْ بُوصِلَةَ أَوْقاتي، ومَعَها بَدَّلْتُ نَمَطَ حَياتِي.

حَدَّثْتُها عَنْ ماضيِّيَ، اسْتَمَعَتْ.

قُلْتُ أَشْياءَ لا يَعْرِفُها أَحَدٌ مِنَ البَشَرِ.

قُلْتُ تَفاصِيلَ لمْ أَقُلْها لأَحَدٍ يَوْماً.

وفي سُوَيعاتٍ مِنْ زَمَنٍ، تَمَلَّكَتْ كُلَّ عُمرِي الماضِي الَّذي جاوَزْتُ نِصْفَهُ، وقارَبَ الانْتِهاءَ.

كانَتْ حَقِيْقَةَ الحُلُمِ، وحُلُمَ الحَقِيقَةِ.

لَكِنَّي أَدْرَكْتُ عُمْقَ الهُوَّةِ بَينَنا، هِيَ في فَضاءٍ، وأَنا عَلَى ما أَنا عَلَيهِ.

لمْ تُشْعِرْني بِذَلِكَ، لمْ تَنْفض خَيالاتي.

كانَتِ الأَشْياءُ مِنْ حَوْلِها جَدِيدَةً، وكُلُّ ما فِيها جَدِيدٌ، تَرْسُمُ الضَّحِكاتِ كَالفَراشاتِ السَّعِيدةِ، تَسْكُنُ الأَطْيابَ كَالدُّهْنِ والبَخّورِ، تَسْكُبُ البَسَماتِ مُشْرِقَةً كَنورٍ عِنْدَما تَضْحَكُ، تَبْرُزُ سِنٌّ غَيَّرَتْ نَظْرَتي لِجَمالِ اتِّساقِ الأَسْنانِ.

لأَوَّلِ مَرَّةٍ أُدْرِكُ أَنَّ جَمالَ الأَسْنانِ ورَوْعَتَها لَيْسَ في تَناسُقِها فَقَط، بَلْ في فَوْضَوِيَّتِها أَحْياناً.

وفي يَوْمٍ، في لَحْظَةِ جُلُوسٍ في مَقْهَى فاخِرٍ، قالَتْ:

ـ هيّا بِنا إِلى مَكانٍ آخَرَ.

لمْ أَقُلْ شَيْئاً، لمْ أَسْأَلْ، لمْ أَجْفَلْ، لمْ أُفَكِّرْ بِشَيءٍ.

والْتَصَقْنا في وحْدَتِنا. لأَوَّلِ مَرَّةٍ أَلْمِسُ وَجْهَها. لمْ تَكُنْ تُرِيدُ ذَلِكَ، لَيْسَ هَدَفَها، مَهْما كانَتِ الظُّروفُ.

ـ هَلْ تُصَدِّقُ؟

قَالَتْها جازِمَةً:

ـ هَلْ تُصَدِّقُ أَنَّني مِمَّنْ لمْ يَلْمِسْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَكَ ولا جَانّ؟

ـ اقْتَرِبي إِلى النُّورِ. اقْتَرِبي. أُرِيدُ أَنْ أَراكِ أَكْثَرَ.

وعَلَى ضَوْءِ شَمْسٍ، رَأَيْتُها كَما لمْ أَرَ نِساءً، كانَ ضَوءٌ يَنْسَكِبُ مِنْها لا عَلَيها.

ـ أُفٍّ مِنْ ذَلِكَ المَقْهَى، ذِي الأَنوارِ الخافِتَةِ. دَعِي وَجْهَكِ لِلشَّمْسِ، حَتَّى تُشِعَّ الشَّمْسُ أَكْثَرَ.

الحُلُمُ الثَّامِنُ: فِيلْمٌ بِالأَبْيَضِ والأَسْوَدِ

في رُكْنٍ هادِئٍ كانَ جُلوسُنا اليَوْمِيُّ في ذَلِكَ المَقْهَى خافِتِ الضَّوْءِ.

نادِلُ المَقْهَى لَطِيفٌ يُمَيِّزُ في دِقَّةٍ، يَومَ جِئْنا إلى الرُّكْنِ نَفْسِهِ، كانَ هُناكَ مَنْ سَبَقَنا إِلَيْهِ، فَأَوْحَى لِمَنْ فِيهِ بِمُغادَرَةِ المَكانِ.

في لِقائِنا الأَوَّلِ كانَ الأَمْرُ غَرِيباً:

ـ هَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ أَجْلِسُ مَعَ فَتاةٍ في مَكانٍ كَهَذا.

قُلْتُها بِبَساطَةٍ، ولا أَظُنُّها صَدَّقَتْ أَو اقْتَنَعَتْ!

ـ بِالأَصَحِّ لَعَلَّها أَيْضاً أَوَّلُ مَرَّةٍ أَجْلِسُ مَعَ أُنْثَى جَلْسَةً كَهَذِهِ.

ـ ما أَجْمَلَ كَلِمَةَ أُنْثَى! هِيَ أَجْمَلُ مِنْ كُلِّ الكَلِماتِ الَّتي تُوصَفُ بِها المَرْأَةُ.

ـ هَلْ تُصَدِّقِينَ أَنِّي أُحِبُّكِ؟

ـ لا أَدْرِي، لَسْتُ مُتَأَكِّدَةً، لَكِنّي بَدَأْتُ أُصَدِّقُكَ.

ـ طَيِّب، أَعْطِني قُبْلَةً.

ـ لا.

ـ لَمْسَةً.

ـ بِالطَّبْعِ لا.

ـ إذاً! غَمْرَةً.

ـ ها ها ها.

هَذِهِ الضِّحْكَةُ تَنْسجُ ابْتِساماتِي، تَزْرَعُ في نَفْسِي كُلَّ آهاتِي، تُمَزِّقُ في كياني كُلَّ ماضِيّيَ المارِقِ.

ـ كُنْتُ مُخْطِئاً دُونَ شَكٍّ، لأَنّي قُلْتُ لَكِ كُلَّ أَشْيائي. ما كانَ لي أَنْ أَقُولَ وقَدْ كانَ بِإِمْكاني.

ـ لا تَسْتَطِيعُ.

صَحِيحٌ ما تُقولُهُ، طَبْعاً لا أَسْتَطِيْعُ.

لَقَدْ كُنْتُ أَمامَها سَطْراً مَكْتوباً، أَو فِيلْماً قَدِيماً يُعادُ عَرْضُهُ بِالأَبْيَضِ والأَسْوَدِ.

وكانَتْ هِيَ أَوَّلَ المُشاهِدِينَ وآخِرَهُمْ.

أَعْتَرِفُ أَنَّها ما قَالَتْ يَوماً خَطَأً.

ـ أَنا لا أَتَصَنَّعُ الحُبَّ. أَقُولُ ذَلِكَ ولأَوَّلِ مَرَّةٍ.

كَلِمَةٌ لمْ أَقُلْها لِكُلِّ النِّساءِ اللَّاتي عَرَفْتُهُنَّ في حَياتي، أَنا أُرِيدُ الزَّواجَ مِنْكِ.

أَنا لا أُرِيدُكِ عابِرَةَ سَريرٍ.

ـ أَنْتَ تَتَخَيَّلُ.

قَالَتْ بِغَضَبٍ.

ـ لا أَقْصدُ. تَذَكَّرْتُ فَقَط تِلْكَ الرِّوايَةَ الشَّهِيرَةَ (عابِرُ سَريرٍ).

ـ أَنْتَ تَحْلُمُ.

ـ ما أَجْمَلَ الأَحْلامَ في عَينَيكِ. هاتانِ العَينَانِ اللَّتانِ تَبْرُقانِ في ضَوءِ المَقْهَى الخافِتِ. تُشْعِلِينَ في قَلْبي نَواقِيسَ الفَرَحِ الَّتي لا تَنْطَفِئُ.

أَرِيدُكِ زَوْجَةً لا صاحِبَةً.

ـ لا هَذَا ولا ذَاكَ. مُسْتَحِيلٌ.

ـ وما المانِعُ؟ أَلأَنِّي مُتَزَوَّجٌ؟

ـ لا، أَبي لَنْ يُوافِقَ.

ـ إِذَا وافَقَ أَبُوكِ، هَلْ تُوافِقِينَ؟

أَحْنَتْ رَأْسَها. قَالَتْ بِصَوتٍ مُنْخَفِضٍ واثِقٍ:

ـ نَعَم.

صَدَّقْتُ كَلامَها بِبَراءَةٍ، بَلْ بِجُنونٍ رُبَّما.

ـ لأَذْهَبَ إِلى أَبِيكِ الآنَ فَوْراً.

ـ أَنْتَ مَجْنُونٌ. مَجْنُونٌ، مُسْتَحيلٌ، لَنْ يُوافِقَ، أَتَعْلَمُ مَنْ هُوَ؟

ـ لا يَهُمُّني مَنْ هُوَ. المُهِمُّ عِنْدِي أَنْتِ.

ـ كَلامٌ أَسْمَعُهُ مُنْذُ صِبايَ، حَوْلي كَثِيرونَ يَقولُونَ ذَلِكَ كُلَّ يَومٍ.

ـ الله... الله... يا حَبيبَتي.

ـ هَلْ هَذَا حَقيقيٌّ؟ أَنْتَ تُضْحِكُني. أَنا أَدْرِي. أَنْتَ تَتَمَنَّى جَسَدِي.

ـ جَسَدُكِ؟! (هههههههه) النِّساءُ كَثِيراتٌ. حَوْلَكِ كَثِيرٌ مِنَ الرِّجالِ، وحَوْلي كَثِيرٌ مِنَ النِّساءِ، لَكِنَّكِ لَسْتِ كَالنِّساءِ.

أَنا أَحْلُمُ بِكِ مَلِكَةً في بَيتي، لَكِنَّهُ حُلُمٌ مُسْتَحِيلٌ.

ـ إِذاً لِنَبْقَ في الأَحْلامِ. أَلا تكفِيكَ هَذِهِ المَشاعِرُ الطَّيِّبَةُ؟

هَل تصَدِّقِينَ لَو قلتُ لَكِ أنَّ رؤيَةَ وَجهِكِ تَحتَ الضَّوءِ ولَو كانَ خافِتاً، أَحَبَّ إِلَيَّ مِن أَيِّ شَيءٍ آخَرَ؟

ـ نَصّابٌ. أَنتَ نَصّابٌ. بَل نَصّاب كَبير.

ـ نَصّاب أَو غَير نَصّاب. هَذِهِ حَقِيْقَةٌ واقعَةٌ. صَدِّقي أَو لا تصَدِّقي.

الحُلُمُ التّاسِعُ: لِماذَا أنا؟

ـ قُلْ لي كَيْفَ حَدَثَ هَذَا؟

قَالَتْ في يَومٍ مِنْ أَيّامِنا القَلِيلَةِ.

ـ لَسْتُ أَدْرِي.

أَجَبْتُها دُونَ تَفْكِيرٍ:

ـ أَنْتِ حُلُمٌ قَدِيمٌ مُنْذُ البَعِيْدِ.

ـ وزَوْجَتُكَ؟!

ـ سَتُحِبُّكِ حَتْماً، ولو بَعْدَ حِيْنٍ، وأَنْتِ لو عَرَفْتِها سَتُحِبِّينَها. هِيَ رائِعَةٌ، وطَيِّبَةٌ.

ـ أَنْتَ إِنْسانٌ عَجِيبٌ. لِمَاذَا أَنا؟

ـ قُلْتُ لَكِ: لَسْتُ أَدْرِي، لَسْتُ أَدْرِي.

عِنْدَما أَكُونُ مَعَها لا أَشْبَعُ مِنْها. عِنْدَما أَكُونُ مَعَها أَخْشَى لَحْظَةَ الوَدَاعِ، هَلْ أَتْرُكُها؟ لا أَسْتَطِيْعُ البُعْدَ عَنْها. كُلُّ لِقاءٍ يَزيدُ في نَفْسِي لَهِيبَ الحُبِّ.

تَشْغلُ نَفْسَها كُلَّ يَومٍ بِأَشْياءَ كَثِيرَةٍ.

تَرَى النّاسَ بِعَيْنَيْهَا المُتَلألِئَتَينِ طَيْفاً مِنْ خَيْرٍ لا يَنْقَطِعُ، تُوَزِّعُ ابْتِساماتِها كَوَرْدَةٍ بَيْضاءَ تَفِيضُ بَهاءً ودَلالاً.

ـ هَكَذَا أَنا، أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ هَكَذَا.

عَلَى الهاتِفِ سَمِعْتُ خُطُواتِها تَطْرُقُ الأَرْضَ بِثَباتٍ.

وَصَلَتْ مَرْكَزَ عَمَلِها في وَقْتٍ مُبكرٍ ذاتَ صَباحٍ.

وأَنا مِنْ وَراءِ الهاتِفِ أُكَلِّمُها.

أُسْمِعُها شَريطَ غَرامِي المُتَكَرِّرَ؛ الذي رُبَّما سَمِعَتْهُ مَرَّاتٍ ومَرَّاتٍ، ومَلَّتْهُ مِنْ كَثْرَةِ التِّكْرارِ.

أَصْواتٌ كَثِيرَةٌ تَنْسابُ مِنْ حَوْلِها، كَلِماتُ غَزَلٍ تَتَساقَطُ مِنْ هُنا وهُناكَ، كَأَنَّها تَتَعَمَّدُ أَنْ تُسْمِعَني ما يُقالُ لَها، فَأَتَحَرَّق غَيْظاً.

اسْتَوْقَفَتْها زَمِيلَةٌ لَها، قَالَتْ بِصَوتٍ مُرْتَفِعٍ:

ـ اللهُ أَكْبَرُ! اللهُ أَكْبَرُ! تَبْدِينَ مِثْل غَزالَةٍ صَغِيرَةٍ.

وكَرَّرَتِ التَّكْبِيرَ مَرَّاتٍ ومَرَّاتٍ.

لم تَنْزَعِجْ، جامَلَتْها.

لِمَاذَا لا تَمَلُّ مِنْ تِكْرارَاتِها؟ وتَمَلُّ مِنْ تكْراراتي؟ لَسْتُ أَدْرِي! لِمَاذَا تُصَدِّقُها ولا تُصَدِّقُني؟ لَسْتُ أَدْرِي!

زَمِيلَتُها خَطَفَتْ مِنِّي كَلِماتِي، سَرَقَتْ مِنّي رُؤْيَتَها الصَّباحِيَّةَ.

أَنا الَّذي يَجِبُ أَنْ أَقُولَ ذَلِكَ.

مَنْ هَذِهِ لِكَي تَخْطِفَ مِنْ شَفَتي كَلِماتي وآهاتِي... و(تكبيراتي)؟!

أَسْمَعُ طَرْقَ نَعْلَيْها، وهِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْو مَكْتَبِها... الطَّرِيقُ طَويلٌ.

أَرَى العُيونَ مِنْ حَوْلِها، أَرَى الرِّقَابَ تَشْرَئِبُّ نَحْوَها، وأَنا في مَكانِي أَعْصِرُ هاتِي وآلامِي.

ومَنْ أَنا لأَعْتَرِضَ، أَو لأَلومَها؟ لَكنِّي رَجُلٌ شَرْقِيٌّ أَحْمِلُ كُلَّ شَرْقِيَّتي حَتَّى النّخاع.

ـ لا تَكُنْ هَكَذَا. عَجَباً لِلرَّجُلِ الشَّرْقِيِّ كَيْفَ يُفَكِّرُ!

تَقُولُها بِتَعَجُّبٍ، بِثِقَةٍ وحَنانٍ.

حَتَّى في المَقْهَى ذِي الطِّرازِ الغَرْبِيِّ تُصِرُّ عَلَى دَفْعِ الحِسابِ.

أَضْحَكُ وأَقُولُ:

ـ دَعِيني أَدْفَعُ الحِسابَ هُنا، ثُمَّ نَذْهَبُ لِلغَداءِ عَلَى حِسابِكِ في مَطْعَمٍ فاخِرٍ.

ـ هَلْ تَسْخَرُ؟ هَيّا، ونَحْنُ فَيْها.

كُلُّ تَفاصِيلِ وَجْهِها مَلأَى بِالحُبِّ والحَكايا والخَبايا.

رُبَّما نَقْدِرُ أَنْ نَصِفَها ـ كَما يَقُولُونَ ـ بِالمَرْأَةِ الحَدِيدِيَّةِ، لَكنِّي أَحْتَجُّ تَماماً عَلَى هَذَا الوَصْفِ، لا أَرَى فِيْه ـ بِالنِّسْبَةِ لَها ـ غَيْر أَمْرٍ هامِشِيٍّ.

هِيَ حَدِيدِيَّةٌ بِالتَّأْكِيدِ. شَيءٌ لا يَخْتَلِفُ اثْنانِ عَلَيهِ، لَكِنَّ حَدِيَّدِيَّتَها مِنْ نَوْعٍ آخَرَ.

هِيَ حَدِيَّدِيَّةٌ تَعْرِفُ مَتَى تَذُوبُ، ومَتَى تَجْمدُ، ومَتَى تَكُونُ بارِدَةً، ومَتَى تُشْعِلُ النّارَ في كُلِّ الأَشْياءِ الَّتي حَوْلَها، ومَعَ ذَلِكَ لا تَشْتَعِلُ.

الحُلْمُ العاشِرُ: أَنا رَجُلٌ شَرْقِيٌّ!

في مَرَّةٍ قَالَتْ:

ـ رُبَّما تُرِيدُني كَعابِرِ سَريرٍ.

(تَضْحَكُ وتُضِيفُ):

ـ هَذِهِ الأَخِيرَةُ مِنْ كَلِماتِكَ.

ـ لا، لَيْسَتْ مِنْ كَلِماتِي. قُلْتُ لَكِ هِيَ قِصَّةٌ مَشْهورَةٌ. أَقُولُ مُصَحِّحاً.

ـ وَهَلْ تَظُنُّني جاهِلَةً إِلى هَذَا الحَدِّ؟ أَنْتُمْ غُرَباءُ أَيُّها الرِّجالُ الشَّرْقِيُّونَ، هَذِهِ القِصَّةُ الَّتي تَسْتَشْهِدُ بِها. أَلَمْ تَكْتُبْها امْرَأَةٌ؟

ـ ومَنْ قَالَ لَكِ أَنَّني ضِدُّ النِّساءِ؟

ـ أَنْتَ رَجُلٌ شَرْقِيٌّ، عَقْلُكَ وتَفْكِيرُكَ وحَياتُكَ وتَكْوينُكَ، وحَتَّى المَرْأَة لا تَرَى فِيها غَيرَ مَتاعٍ.

ـ . . . . . .

لا أَسْتَطِيْعُ الدِّفاعَ عَنْ نَفْسِي، كَيْفَ أُوَاجِهُ هَذَا المَدَّ الجارِفَ؟ هِيَ تَعْرِفُ كَيْفَ تَنْتَقِي كَلِماتِها، تَعْرِفُ كَيْفَ تُواجِهُ، مَتَى تَرْتَدُّ، ومَتَى تُهاجِمُ، وفي كُلِّ الأَحْوالِ تَتْرُكُ خَصْمَها ضَعِيفاً مَسْلوبَ القوَى.

المُشْكِلَةُ لا تَكْمُنُ في جَمالِها، المُشْكِلَةُ في داخِلِي أَنا، بَلِ المُشْكِلَةُ هِيَ أَنا، أَنا الرَّجُلُ.

سَبَّبْتُ لَها ضِيقاً، بَعْدَما مَلَأْتْ كيانِي، رَغْمَ أَنّي رَجُلٌ مُتَزَوِّجٌ مَشْغُولٌ، أَنْهَكَتْهُ السُّنونَ عُمراً وعَمَلاً.

ومَعَ ذَلِكَ عِنْدَما دَنَتْ تَمَلَّكَتْ، وغَلَّفَتْ كَلَّ كياني؛ حَتَّى تَجَرَّدْتُ مِنْ نَفْسِي، وقَدَّمْتُها هَدِيَّةً لَها.

لا أُنْكِرُ أَنَّها لمْ تَظْلِمْ، ولمْ تَرْفُضْ، ولمْ تَتَمَرَّدْ، لَكِنَّها قَرَّرَتْ بِصَراحَتِها الدَّائِمَةِ أَنَّ الأَمْرَ عادِيٌّ، وانْصَرَفَتْ، ودِمائِي تَغْلِي في عُروقِي، وقَلْبي يَكادُ يَقْفِزُ مِنْ مَكانِهِ مِنَ الحيرَةِ.

لم (أَرْسُمْ) عَلَيها ـ كَما يَقُولُ بَعْضُ الرِّجالِ ـ.

أَنا أَرَدْتُ الزَّواجَ مِنها. هي لا تَرْفُضُ فِكْرَةَ أَنْ تكونَ زَوجَةً ثانيَةً لِرَجُلٍ مُتَزَوِّجٍ.

لمْ تَقُلْ ذَلِكَ أَمامي عَلَى الأَقَلّ، رُبَّما لأَنَّها احْتَرَمَتْ مَشاعِرِي، أَو تَسْتَمْتِعُ بِسَماعِها عَرْضِي المُتَكَرِّرَ.

هِيَ لَيْسَتْ سارِقَةً.

وكَرَجُلٍ يُمْكِنُني أَنْ أَتَزَوَّجَ مَرَّةً ثانِيَةً ما دُمْتُ أَنْوِي العَدْلَ بَيْنَ زَوْجَتَينِ.

لَيْسَتْ هَذِهِ مُشْكِلَة مِنْ ناحِيَتي.

وهِيَ أَيْضاً لمْ تُعَقِّدِ الأَمْرَ، بَلْ كانَتِ المَسْأَلَةُ عِنْدَها غَيرَ ذَلِكَ تَماماً.

ما هِيَ؟ لَسْتُ أَدْرِي.

بَيْدَ أَنَّها تَرَى أَنَّ العَدْلَ بَيْنَ زَوْجَتَينِ مُسْتَحيلٌ.

ـ أَنْتَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ، رَغْمَ كُلِّ خُبراتِكَ لا تَعْرِفُ كَيْفَ تُعامِلُ الأُنْثَى.

ـ مَعَكِ حَقٌّ، أَعْتَرِفُ. أَقُولُ ذَلِكَ مُقِرّاً بِذَنْبِي، إِنْ كانَ هَذَا ذَنْباً.

يَرُنُّ هاتِفُها، أَقُومُ مِنْ مَكانِي، تُشِيرُ لي بِأَنِ اجْلِسْ.

لا أُرِيدُ، أَتَحَجَّجُ بِاتِّصالٍ، أَبْتَعِدُ عَنْها لِكَي لا أَسْمَعَ ما يَدورُ بِاتِّصالاتِها، لَكِنَّها لا تَكْتَرِثُ، وتَقولُ عِنْدَما أَعودُ:

ـ لِمَاذَا ابْتَعَدتَ؟ لا تَفْعَلْ ذَلِكَ مَرَّةً ثانِيَةً، لَيْسَ هُنالِكَ أَسْرارٌ.

وعِنْدَما تَأْتِيها مُكالَمَةٌ مَرَّةً ثانِيَةً، تَنْتَفِضُ وتَرْكُضُ بَعِيْداً عَنِّي لِكَي لا أَسْمَعَ، وتَنْسَى ما قالَتْهُ لي قَبْلَ قَلِيلٍ.

ـ أَنْتِ بِالنِّسْبَةِ لي امْرَأَةٌ مَجْهولَةٌ، هُنالِكَ أَسْرارٌ كَثِيرَةٌ تُحِيطُ بِكِ، ولا أَعْرِفُها، ولا أُرِيدُ أَنْ أَتَطَفَّلَ عَلَيكِ لأَعْرِفَها.

هَلْ تَظُنِّي أَنِّي مُتَطَفِّلٌ؟

تُطَقْطِقُ أَصابِعَ يَدَيْها بِطَرِيقَةٍ مَرِحَةٍ، تَرْمُقُني بِنَظَراتٍ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ.

الحُلُمُ الحادِي عَشَر: لَسْتُ مُلْكِيَّةً خاصَّةً

تَقُولُ ـ لِتَخْتَصِرَ الكَلامَ ـ:

ـ هيّا بِنا نَذْهَبُ، عِنْدِي مَوْعِدُ عَمَلٍ.

ـ نَعَم! عَرَفْتُهُ، ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذي لا يَتَوَقَّفُ عَنْ مُغازَلَتِكِ.

ـ وأَنْتَ مَا لَكَ يا أَخِي؟!

ـ أَنْتِ تَتَقَبَّلِينَ ذَلِكَ وتَفْرَحِين.

ـ لا يُوجَدُ امْرَأَةٌ في العالَمِ لا يَسْتَهوِيها الغَزَلُ.

تَمْشي أَمامِي، أَفْسَحُ لَها الطَّرِيقَ لِتَمْضِيَ، تَسِيرُ بِبُطْءٍ، وغُنْجِ دَلالٍ.

تَسُرُّها نَظَراتٌ مُتَجَمْهِرَةٌ حَوْلها، تُصِيبُها نَشْوَةٌ تُحْزِنُني.

لا تَرْفُضُ هَذِهِ النَّظَراتِ، تَعْتَبِرُ أَن لَيْسَ لَها عَلاقَة بِها.

هِيَ حُرَّةٌ، ولَكِنْ لَيْسَ عَلَى حِسابِي، أوِ الأَقَلّ لَيْسَ عِنْدَما تَكُونُ مَعِي.

ـ أَنا لَسْتُ مُلْكِيَّةً خاصَّةً لأَحَدٍ. لِمَاذَا النّاسُ يَعْتَبِرونَني كَذَلِكَ؟

ـ أَنا لا أَعْتَبِرُكِ كَذَلِكَ.

ـ لِمَاذَا تُقْحِمُ نَفْسَكَ في كُلِّ شَيءٍ يا أَخِي؟

ـ لَيْتَني أَسْتَطِيعُ، لَكِنِّي لا أَرِيدُ سِوَى قَلْبِكِ.

تَضْحَكُ وتَقولُ بِغُنْجٍ ودَلالٍ:
ـ أَنْتَ تَحْلُمُ.

الحُلُمُ الثّاني عَشَر: تَمَنِّياتٌ مُلَوَّنَةٌ

ما أَجْمَلَ الأَحْلامَ عِنْدَما تَبْقَى في مُخَيِّلاتِنا، وتَعُودُ إِلَيْهَا، مَعَ أَنَّنا نَتَوَهَّمُ أَنَّ الأَحْلامَ لو تَحَقَّقَتْ أَو تَحَقَّقَ بَعْضٌ مِنْها فَإِنَّ حَياتَنا سَوفَ تَتَغَيَّرُ وتَتَبَدَّلُ وتَتَحَسَّنُ، وخاصَّةً في الحُبِّ.

لَكِنْ ماذا لو كانَ الحُبُّ مُسْتَحيلاً في زَمَنٍ باتَ كُلُّ شَيءٍ يُوزَنُ بِالمادَّةِ؟!

مَع أَنِّي حَقِيقَةً لم أَرَ ذَلِكَ في نِفْسِها لَحْظَةً واحِدَةً.

فَمِنَ الواضِحِ أَنَّ المادَّةَ عِنْدَها لَيْسَتْ ذاتَ قِيمَةٍ مُباشرَة، وهَذا شَيءٌ إِيْجابيٌّ يزِيدُني تَقْديراً لَها، ويَجْعَلُني أَحْتَرِمُ فِيها إِنْسانِيَّتَها.

فَالإِنْسانُ تُنْسَبُ لَهُ الإِنْسانِيَّةُ، ولو تَجَرَّدَ مِنْها، فَهَلْ يُمْكِنُهُ أَن يَكونَ إِنْساناً؟!

رُبَّما يَحْمِلُ صِفاتِ الإِنْسانِ الشَّكْلِيَّةَ، أَمَّا المَعْنَوِيَّة فَتَذْهَبُ إِدْراجَ الرِّيحِ، فيُصْبِحُ مِنْ سائِرِ المَخْلوقاتِ إِلّا الإِنْسان.

وهي قِمَّةٌ في إِنْسانِيَّتها.

لا أَقُولُ ذَلِكَ لأَنّي أُحِبُّها حُلُماً وَواقِعاً، فَهَذا شَيْءٌ وذَلِكَ شَيْءٌ آخَرُ، حَتَّى عَلاقَتها بي كانَتْ إِنْسانِيَّةً.

أَعْتَرِفُ أَنَّها لم تُظْهِرْ حُبّاً في أَيّامِنا ـ عَلَى قِلَّتِها ـ، لَكِنَّها كانَتْ تُقَدِّرُ ما أُكِنُّهُ لَها مِنْ حُبٍّ، وتَحْتَرِمُهُ.

وأَحْياناً يَقُودُني جَهْلِي ـ ورُبَّما رُعُونَتي ونَزَقِي وطَيْشِي ـ لِلاعْتِقادِ بِأَنَّها تُحِبُّني فِعْلاً.

أَفْعالُها تَقودُني أَحْياناً إِلى هَذا الشُّعُورِ.

رُبَّما تُرِيدُ بِذَلِكَ أَنْ تُرْضِيَ نَفْسَها، أَوتُرْضِيَني، فالأَمْرُ سِيّان.

ثُمَّ أَرْجِعُ عَنِ احْتِمالاتِي، وأَسْتَسْلِمُ لِما أَسْمَعُهُ مِنْها، مَعَ أَنَّها تَقُولُ:

ـ لا تُصَدِّقْ ما تَسْمَعُهُ، وصَدِّقْ إِحْساسَكَ، ما الأَصْدَقُ: شَفَتايَ أَمْ عَيْنايَ؟

يا لَها مِنْ أُنْثَى ذَكِيَّةٍ! تَعْرِفُ كَيْفَ تَصْنَعُ مِنْ خَيالاتِي أَحْلاماً، وتَبْني عَلَى رِمالِ شاطِئِي جِبالاً مِنَ التَّمَنِّياتِ المُلَوَّنَةِ.

الحُلُمُ الأَخِيرُ

قَالَتْ: اخْرُجْ بِسُرعةٍ. لا مَكانَ لَنا الآنَ هُنا. اخْرُجْ. هَيّا. سَأَلْحَقُ بِكَ فَوْراً.
وخَرَجْتُ دُونَ نِقاشٍ، مُسْتَسْلِماً كَعادَتي.
لم تَتوقَّعْ أَنّي سَأَنْتَظِرُها. انْتَظَرْتُ مُدَّةً طَويلَةً أَمامَ سَيّارَتِها الفارِهَةِ، أَكْثَر ممّا يُمْكِنُ أَنْ تَتَوَقَّعَ.
كادَ الحُلُمُ يَنْتَهي مِنْ طولِ الانْتِظارِ، كُنتُ أَحمِلُ باقَةَ وَرْدٍ، وقارُورَةَ عِطرٍ، وحُلُمٍ يَموتُ.
ومَضَيتُ دونَ أنْ تَأتي، ودُونَ أَن أَعرفَ سَبَبَ تَأَخُّرِها.
عُدْتُ إِلى سَيّارتي القَديمَةِ الرَّخِيصةِ، إِلى أَحْلامي المُحطَّمَةِ.
لَقَدْ ظَلَمتْني أَحْلامي، أَو رُبَّما أَنا ظَلَمتُ أَحلامي.
فَكَيْفَ لِلأحلامِ إِنْ ظُلِمَتْ أَنْ تَعودَ؟! رَكِبتُ السَّيارَةَ، وانْطَلَقْتُ بِها بِجُنونٍ، اسْتمعْتُ إِلى فَيروزَ تُغَنّي:

(بحبَّكْ حَتَّى نْجومِ اللَّيل... نِجْمي ونِجْمي تُوقَعْ
وخَلَصِ الحُبّ.. وسَكتِتِ الكِلْمِي
واتْسَكَّرِ القَلْب.. ما وقعْ ولا نِجْمِي
ما تَارِي الكَلامْ بِيضَلُّو كَلامْ
وكِلْ شِي بيِخْلَصْ حَتَّى الأَحْلامْ
والإِيّام بْتِمْحِي إِيّامْ)

فهرس الموضوعات

إِهْداءٌ ٥
ما أَجْمَلَ أنْ تكُونِي رَفِيقَتِي! ٦
لَيْسَ هوَ! ١١
ذِكْرَيَاتُ إِجَازَةٍ صَيْفِيَّةٍ ١٤
لِلْمَوْتِ وَجْهٌ آخَرُ ١٨
ما بَيْنَ الظَّنِّ الآثِمِ وخِلافُهُ فَرْقٌ ٢٣
عَزْفٌ مُنْفَرِدٌ ٢٦
السَّاعَةُ المُنَبِّهَةُ ٣٠
المُتَسَوِّلَةُ ٣٢
المَرْأَةُ الغامِضَةُ ٣٥
حاضِر سَيِّدِي ٤٠
حُزْمَةُ المالِ ٤٦
صَدِيقِي ٤٩
البِنْتُ المَقْدِسِيَّةُ ٥٢
السِّرُّ العَجِيبُ ٥٨
غَزَلٌ في باصٍ مُزْدَحِمٍ ٦١

القَرارُ الأَخِيرُ ٦٣
العالَمُ يَحْتَفِلُ بِعِيْدِ مِيلادِهِ! ٦٧
حِسابُ الزَّمَنِ ٧٠
القِطارُ الَّذي لَمْ يَصِلْ ٧٤
البَيْتُ القَدِيمُ المَهْجورُ ٧٨
ذاكِرَةُ الأَلَمِ ٨١
شَجَرَةُ التُّفَّاحِ ٨٦
مِنْ سِجْنِ الحَياةِ إِلى سِجْنِ النِّساءِ ٨٩
اللَّيْلَةُ الأَخِيرَةُ ٩٧
هَلْ أَخْطَأَتْ سَمَاح؟ ١٠٠
الوَصِيَّةُ الأَخِيرَةُ ١٠٧

قِصَصٌ قَصِيرَةٌ جِدّاً

الطّاوِلَةُ رقم «٧» ١١٢
طِفْلٌ ودَبّابَةٌ ١١٤
مِصْباحُ العَمْياءِ ١٢٠
نَخْلَةٌ ١٢٠
في صَدْرِي ١٢٢
الأَلْعابُ الصَّغِيرَةُ ١٢٣
مَرْحَباً ١٢٥

السِّنْدْيانَةُ ١٢٦

رِوَايَةٌ قَصِيرَةٌ مِثْلُ الأَحْلامِ
قِصَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ مِثْلُ الأَحْلامِ
لا تَسْأَلُوني ما اسْمُهُ حَبِيبي

الحُلُمُ الأَوَّلُ: طُفُولَةٌ وشَبابٌ ١٢٩
الحُلُمُ الثَّاني: تَفَاصِيلُ مِنْ صُنْعِ يَدَيَّ ١٣٢
الحُلُمُ الثَّالِثُ: رِيْشَةُ شَاعِرٍ ١٣٥
الحُلُمُ الرَّابِعُ: لَيْلٌ وصَبَاحٌ ١٣٩
الحُلُمُ الخَامِسُ: لَوَّحْتُ بِيَدِي مُوَدِّعاً ١٤٢
الحُلُمُ السَّادِسُ: ذِكْرَياتُ واقِعٍ قَصِيرٍ ١٤٥
الحُلُمُ السَّابِعُ: قَلْبٌ وسَيَّارَةٌ ١٤٧
الحُلُمُ الثَّامِنُ: فِيلْمٌ بِالأَبْيَضِ والأَسْوَدِ ١٥٠
الحُلُمُ التّاسِعُ: لِمَاذَا أنا؟ ١٥٤
الحُلُمُ العاشِرُ: أَنا رَجُلٌ شَرْقِيٌّ! ١٥٧
الحُلُمُ الحادِي عَشَر: لَسْتُ مُلْكِيَّةً خاصَّةً ١٦٠
الحُلُمُ الثَّاني عَشَر: تَمَنِّياتٌ مُلَوَّنَةٌ ١٦٢
الحُلُمُ الأَخِيرُ ١٦٤
فهرس الموضوعات ١٦٥